

المناسبات القرآنية

«دراسة لغوية بيانية»

تأليف

أ.د. عقيد خالد حمودي العزاوي

الجامعة المستنصرية

مركز البحوث والدراسات العربية والدولية

٢٠١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَنُ أَكْبَرُ أُحْكِمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

صَلَّى
الْعَظِيمِ

«سورة هود، الآية: ١»



❖ إلى...

الطيب الذي يأبى الرحيل عن عيني وعن روحي وقلبي وفكري

❖ إلى...

روح والدتي -طيب الله ثراها-

ثمرة طيبة من ثمرات الروح

الباحث

المقدمة

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، والحمد لله متّزّل الكتاب المعجز بنظم آياته، وتناسب سورته وفواصله.

أنزل كتابه العزيز بأفصح لسان، وأدّخر في آيه غرر البلاغة ودور البيان، تحدّى به قوماً ملكوا ناصية الفصاحة وفنون الكلام، فأبوا بالخيبة والخسران، بهرّتهم سلاسة ألفاظه، وأحكام أساليبه، واتساق إيجازه وأطنابه. وما فيه من حجة وبرهان، هو حبل الله المتين، ونوره المبين حياة للقلوب الميتة، وبصر للعيون العمياء، وسمع للآذان الصماء، شفاء نافع وريّ نافع، لا تنتهي معانيه ولا تنقض عجائبه ولا تحصر معجزاته بعدد، ولا يقف إعجازه عند حد.

إنّ هذه المعاني العظيمة -فضلاً عن قدسية القرآن في نفوس المسلمين- منحتني طاقة ودافعاً عظيماً لأن أقف واكتب في هذا الكتاب المعجز، فضلاً عن أمنية تسكن أعماق القلب أن أقدم كتاباً آخرّاً في المناسبة القرآنية دراسة لغوية بيانية اخدم بها كتاب الله واضعه بين يدي القراء الكرام.

وهي دراسة بيانية سياقية لغوية وظفت فيها علم المناسبات القرآنية وأثره في إغناء الدرس اللغوي والبلاغي -البياني- وأنّ الحاجة الى دراسة المناسبات القرآنية وربطها بعلوم اللغة والبلاغة ضرورة لطالب العلم والباحث في علوم اللغة وعلوم القرآن الكريم، ومن ذلك:

أنّ الناظر في هذه الفنون والمدرّك لها، والحائز لملكها يقف على يقين، لا يشوبه تردد من جهة إعجاز القرآن الكريم بالتفصيل، وهي جهة دلّته اليقينية على صدق رسول الله محمد ﷺ فيكون بذلك مؤمناً عن عقيدة لا تقليد وعن برهان لا محاكاة، وفي ذلك شرف لا غاية ورائه.

وأنَّ المتمكن في هذه العلوم؛ أصولها وفروعها يلمس بنفسه دقائق العربية وأسرارها ويدرك مراتب الكلام ومراميه، ومزايا صورته فيهتدي الى مواطن النقد الصحيح، ومعرفة الجيد من الكلام ورديئه.

ومن أجل ذلك كله كانت حاجتنا الى دراسة هذه العلوم، وهي علوم المناسبات القرآنية وكيف أثر السياق فيها لغوياً وبيانياً وما كشفته لنا من كنوز ونفائس لا تقف عند حد، وكما تكشف لك هذه اللغة العظيمة عن سرِّ جمالها من فضل التقدم على سائر اللغات، حتى نزل القرآن الكريم فوسعته معنى وأسلوباً على ما فيه من روعة وجلال وكمال وإجلال، فكان ذلك شهادة بتبوُّئها فكان الصدارة بين اللغات واستوائها على عرش الصدارة والسيادة.

من هذه الأسباب وغيرها من الأهداف وَضَحَ لنا أهمية الموضوع والكتابة فيه، ولكونها دراسة قرآنية لغوية بيانية ولكون المناسبة لم تدرس دراسة لغوية بيانية على حد علمي.

وتكمن أهمية الموضوع لحاجة المكتبة اللغوية والبيانية الى مثل هكذا دراسات لتعين القُرَّاء على فهم بعض دراسات القرآن الكريم، وبخاصة في علم المناسبة، وكذلك تقديم دراسات تطبيقية في علم المناسبات، وأثر اللغة فيها وعلوم البيان والبلاغة فيها.

أسباب اختيار الموضوع:

١- إظهار علم المناسبات بوصفه علماً يمتاز بأهمية كبيرة في دراسات إعجاز القرآن الكريم وبيان أسلوبه المعجز من خلال صورته وأنواعه.

٢- إظهار علاقة المناسبات وأثرها في المعاني اللغوية وسياقته اللفظية وعدوله عن الأصل وسياقاته الحالية.

٣- أثر علم المناسبات في وجوه النظم وبناء الجملة.

٤- إظهار العلاقة بين المناسبات والأثر البياني الذي تحدثه من خلال جمالية الصور التشبيهية والمجازية والاستعارية والكنائية.

٥- بيان الأثر الجمالي للمناسبة وعلاقته بالفاصلة القرآنية.

٦- بيان قسم من المناسبات وتطبيقاتها في سور القرآن الكريم لتوضيحها للقارئ.

منهج الدراسة:

اقتضت طبيعة البحث أن يسير المنهج العلمي المتبع في هذه الدراسة على المنهج الوصفي في دراسة الفصل التمهيدي ثم أضحى منهجاً تطبيقياً يصف الظاهرة اللغوية أو البيانية ومطبّقاً عليها أسس وضوابط المنهج التطبيقي من خلال الآيات وتوضيحها في النص القرآني في الفصول الأربعة الأخرى.

وقد حاولت الإفادة من جهود السابقين والمحدثين في تحليل جوانب الدراسة وأبعادها العلمية. لذلك اقتضت طبيعة الموضوع الرجوع الى الكثير من المصادر والمراجع المختلفة قديمها وحديثها وكان على رأس هذه الكتب التفاسير القرآنية بأنواعها اللغوية والبيانية، وكان على رأسها تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب والإتقان للسيوطي وكتب علوم المناسبات والرسائل الخاصة بعلم المناسبات القرآنية، وكتب البلاغة، وكتب اللغة، والدراسات الحديثة التي لها علاقة قريبة بموضوع دراستنا أشرنا إليها في متن الدراسة.

خطة الدراسة ونقسيماها:

لقد اقتضت طبيعة البحث أن اقسمه الى مقدمة وفصل تمهيدي وستة فصول.

تناولت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع ومشكلة البحث وهدف الدراسة وتقسيمات البحث.

ثم جاء الفصل التمهيدي؛ إذ تناولت فيه مقدمة تاريخية في علم المناسبات، ومفهوم المناسبة، وموضوعه، وثمرته، ونشأته، وموقف العلماء من علم المناسبات، وأقوال العلماء القائلون والمانعون لعلم المناسبات وأشهر المؤلفات والبحوث، وأنواع المناسبات وصوره.

ثم يأتي الفصل الأول: المناسبات بين المعاني اللغوية وسياقاتها اللفظية وجاء في مبحثين: الأول: المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي وكان من فقرتين الأولى: المعنى الوظيفي لبنية الاسم والثاني: أسماء الاشتقاق.

وكان المبحث الثاني بعنوان المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي وجاء في مطلبين: الأول: صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن والثاني صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة.

ثم جاء الفصل الثاني يحمل عنواناً: المناسبة بين عدول اللفظ عن الأصل وسياق الحال وكان من خمسة مطالب: تناولنا في المطلب الأول: المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي والمبحث الثاني: المناسبة بين حذف اللفظ والسياق اللغوي أما المبحث الثالث: فكان المناسبة بين الوصل والفصل أما المبحث الرابع: المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي. والمبحث الخامس: المناسبة بين التعريف والتكثير وسياقها اللغوي.

أما الفصل الثالث فكان بعنوان: المناسبة والتناسب في وجوه النظم وبناء الجملة. وكان من خمسة مباحث. تناولت في المبحث الأول: التناسب في وجوه الاستفهام، والثاني: التناسب في وجوه الأمر. والثالث: التناسب

في وجوه النهي والرابع: التناسب في وجوه النداء. والخامس: التناسب في وجوه التوكيد.

أما **الفصل الرابع** فجاء بعنوان: المناسبة في وجوه النظم والصورة البيانية فكان من أربعة مباحث تناولنا في المبحث الأول: المناسبة والتناسب في صور التشبيه والثاني: المناسبة والتناسب في صور المجاز والثالث: المناسبة والتناسب وصور الاستعارة والرابع: المناسبة والتناسب في صور الكناية.

أما **الفصل الخامس** فكان بعنوان: التناسب في الفواصل القرآنية. وجاء بخمس مباحث: جاء المبحث الأول: تعريف الفاصلة القرآنية والخلاف بين الفواصل والسجع، أما الثاني: المناسبات بين فواصل الآي ومضمون السورة. والثالث: العلاقة بين الفاصلة وسياق آياتها. والرابع: الفاصلة القرآنية وعلم المناسبات والخامس: التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية -دراسة تطبيقية-.

وجاء **الفصل السادس** بعنوان: المناسبات القرآنية -دراسة تطبيقية- وكان في مبحثين: الأول: المناسبة بين فاتحة الكتاب وسورة البقرة، وفيه مطالب: الأول: التناسب بين السورة في المفتح ، والمطلب الثاني: التناسب بين السورة في الخواتيم، والثاني: التناسب بين سورة البقرة وآل عمران وفيه مطالب: المطلب الأول: التناسب بين فاتحتي السورتين ، والمطلب الثاني: التناسب بين فواتح السور وخواتيم التي قبلها والتي تليها.

ثم جاءت **الخاتمة** بأهم النتائج التي توصل إليها البحث ثم قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي تناولها البحث.

والله من وراء القصد

المؤلف أ. د. عقيد خالد العزاوي

بغداد ٢٠١٥

المنهجية

مقدمة تاريخية في علم المناسبات

عرفت بدايات هذا العلم في بغداد على يد أبي بكر النيسابوري (ت ٣٢٤هـ) وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن الشهرستاني: أول من أظهر ببغداد علم المناسبات - ولم تكن سمعناه من غيره - وهو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان نحريراً في العلم والشرعة والأدب كان يقول على الكرسي إذا قُرئت عليه الآية: لَمْ جَعَلْتَ هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة^(١).

وقد صرّح البقاعي بقدّم علم المناسبات القرآنية، وانتشاره بين الصحابة والتابعين، واعتمادهم إياه في فهم أي الكتاب الحكيم، فقال في كتابه (مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور): «وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقض هذا العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون»^(٢). قال أبو عبيد في (كتاب الفضائل)^(٣): حدثنا معاذ، عن ابن عون: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسله عما قبلها^(٤). يريد - والله أعلم - أن ما قبلها بدله على

(١) البرهان: ٣٦/١؛ والإيتقان: ١٨٠/٢، والبيان القرآني في تفسير نظم الدرر: ١١.

(٢) مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور: ٣١.

(٣) كتاب الفضائل: ٢٦١/٢ رقم ٦٩٥.

(٤) مصنف عبد الرزاق: ٣٦٥/٣ رقم ٥٩٨٨.

تحرير لفظها بما تدعو إليه المناسبة. ثم لم يجد ذلك العلم ما يليق به من العناية، فشكا القاضي أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) في كتابه (سراج المريدين) قائلاً: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني، منتظمة المباني؛ علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلَةً، ورأينا الخلق بأوصاف البَطَلَة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه^(١).

وأبان الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) عن مناسبة بعض الآي في تفسيره الكشف، وقال الرازي (ت ٦٠٦هـ): «أكثر لطائف القرآن مودعه في الترتيبات، والروابط»^(٢) وقال: «علم المناسبات علم عظيم أُودِعَتْ فيه أكثر لطائف القرآن وروائعه»^(٣).

وقال ولي الدين الملوي شيخ الزركشي لذلك العلم فقال: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؛ ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقَّت له»^(٤).

وسار الشيخ كمال الدين الزملكاني، سيراً حثيثاً في الخروج بعلم المناسبات إلى حيز الظهور، فعقد دروساً لتبيانه وشرحه^(٥).

(١) البرهان: ٣٦/١؛ والإتقان: ١٠٨/٢.

(٢) البرهان: ٣٦/١.

(٣) البرهان، الزركشي: ٣٥/١.

(٤) المصدر السابق: ٣٧/١؛ والإتقان: ١٠٨/٢.

(٥) المصدر السابق: ٣٩/١.

على إنَّ أول من أفرد علم المناسبات القرآنية بالتصنيف هو: أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الأندلسي النحوي (ت ٨٠٧هـ) صاحب البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن وملاك التأويل، وهو: شيخ أبي حيان (٧٥٤هـ)^(١). ثم جاء دور برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) فكتب: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وقد ألفه في مدى أربع عشرة سنة. ووصف شأن علم المناسبات وأثره فقال: وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب^(٢).

ثم جاء جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ): وألف كتابه، وذكر في مقدمته أنَّ هذا الكتاب هو جزء من كتاب كبير في موضوع التناسب، واسمه أسرار التزويل، وله أيضاً في التناسب، قطف الأزهار في كشف الأسرار، ومراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، وخص النوع الثاني والستين من كتابه الإتقان في علوم القرآن بالحديث عن مناسبات الآيات والسور، وذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في (البرهان)، وزاد عليه في الأمثلة.

وللعلامة عبد الحميد الفراهي (ت ١٣٤٩هـ) كتاب (دلائل النظام)، وله تفسير لم يتمه أسماء: (تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان). وكان ممن تنبّه لأهمية هذا العلم، ونوّه بقيمته وشرفه^(٣).

وكتب د. محمد عبد الله دراز في التناسب القرآني كتاب (النبا العظيم)

(١) البرهان، الزركشي: ٣٥/١؛ وأسرار ترتيب القرآن: ٤٠.

(٢) نظم الدرر، البقاعي: ١١/١؛ وأسرار ترتيب القرآن: ٤٠، والبيان القرآني في تفسير نظم الدرر: ٢٥.

(٣) دلائل النظام: ٧٥.

الذي يعد مثلاً موفقاً في بيان جلالة علم المناسبات، وضرورته في فهم كتاب الله تعالى.

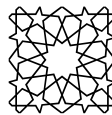
كما اعتنى كثير من المفسرين بعلم مناسبات القرآن الكريم في تفاسيرهم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره لسورتي الفاتحة والإخلاص، وتلميذه: ابن القيم في تفسيره لسورتي الفاتحة والمعوذتين، حتى جعل بعضهم الإمام ابن القيم رائداً لهذا الاتجاه^(١).

وأيضاً الأستاذ سيد قطب، في تفسيره في ظلال القرآن. ومن المعاصرين أيضاً الدكتور (عناية الله أسد سبحاني)، في كتابيه «إمعان النظر في نظام الآي والسور»، و«البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران»، وقد كان الأول تأصيلاً وتنظيراً وتقييداً للتناسب القرآني. هكذا تضافرت الجهود وبرز هذا العلم إلى حيز الوجود، وبه يظهر وإن هذه الجهود كانت على ثلاثة أقسام:

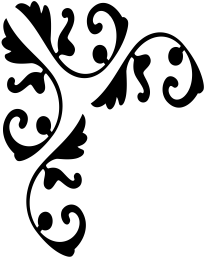
❖ القسم الأول: من أفرد بالتصنيف.

❖ القسم الثاني: الذين جعلوه نوعاً من علوم القرآن الكريم وتحدثوا عنه في باب من كتبهم.

❖ القسم الثالث: المفسرون الذين عُنُوا بذكر المناسبات في تفاسيرهم.



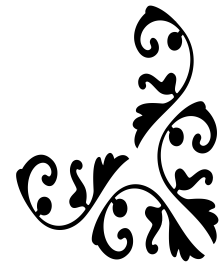
(١) دراسات في التفسير الموضوعي، المقدمة.



الفصل التمهيدي

مقدمة في علم المناسبات

- ✓ المطلب الأول: مفهوم المناسبة.
- ✓ المطلب الثاني: نشأة علم المناسبة.
- ✓ المطلب الثالث: موقف العلماء من علم المناسبات.
- ✓ المطلب الرابع: أهمية علم المناسبات، فائدته، أشهر المؤلفات فيه.
- ✓ المطلب الخامس: أنواع المناسبات.



الفصل التمهيدي

مقدمة في علم المناسبات

المطلب الأول: مفهوم المناسبة

هو ربط الكلام بعبءه بعبء حتى يكون كالبيان المرصوص، أو جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، أو أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبتة من حيث الترتيب^(١). وقد قيل أيضاً: هو جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض فيقوى كذلك الارتباط فيصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى^(٢).

١- أمّا تعريف المناسبة لغة:

النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، منه النسب يسمى لاتصاله وللاتصال به، نقول: نسبت أنسب بعبء^(٣). والمناسبات: جمع مناسبة، والمناسبة هي المشاكلة، والمشاركة، والمشاكلة، والمقاربة^(٤).

ويقال: فلان يناسب فلاناً فهو نسيبه، أي: قريه وبينهما مناسبة أي: مشاكلة، ونسبت الرجل ذكرت نسبه، وبابه نصر، ونسبة أيضاً بالكسر وانتسب إلى أبيه أي: اعتزى، وتنسب إليك أي: ادعى أنه نسيبك^(٥). ويقال

(١) ينظر: البرهان: ٣٦.

(٢) الإتقان: ٦٣١.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٤٢٣/٥-٤٢٤.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٧٥٦/١؛ ومختار الصحاح: ٢٧٣/١؛ والمصباح المنير: ٦٠٢/٢.

(٥) مختار الصحاح: ٣٠٩/١.

أيضاً: المشاكلة والمقاربة، يقال: «بين الشيئين مناسبة وتناسب: أي: مُشاكلة وتشاكل، وكذا قولهم: لا نسبة بينهما، وبينهما نسبة قريبة وهي في استعمالات اللغويين والنحاة تطلق على موافقة لفظ لفظ في الحكم لما بينهما من التجانس أو التشابه أو التجاور»^(١).

عند اللغويين: المناسبة: المُشاكلة، وناسب فلاناً شَرَكَهُ في نسبه وشاكله، يقال: بينهما مناسبة، ويقال: ناسب الأمر أو الشيء فلاناً، أي: لاءَمَهُ ووافق مزاجه، والتناسبُ التشابهُ، والمقاربةُ، وفلانٌ يناسبُ فلاناً، أي: يقربُ منه ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل^(٢).

وعند الأصوليين: المناسبة في العلة في باب القياس، وهي تعيين العلة بمجرد إبداء المناسبة، مع السلامة عن القوادح، وقيل بأنّها: الملائم لأفعال العقلاء في العادات فإنّه يقال: هذه اللؤلؤة تناسب هذه اللؤلؤة. أي: الجمع بينهما متلائم، وهذه الجبة تناسب هذه العمامة. أي: الجمع بينهما متلائم^(٣). وذكر الزركشي رحمه الله في كتابه البحر المحيط تعريف للمناسبة وهو: «ما لو عُرض على العقول تلقته بالقبول»^(٤).

وعند البلاغيين: فقد عرّفها ابن أبي الإصبع المصري حيث قال: المناسبة على ضربين مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ. وقال: إنّ المناسبة في

(١) تاج العروس: (نسب): ٢٦٥/٤.

(٢) ينظر: القاموس المحيط: مادة (نسب)، باب الباء، فصل النون: ١٧٥/١؛ ومختار الصحاح:

باب النون (٦٥٦)؛ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، باب النون: ٩٥٦/٢.

(٣) ينظر: المحصول: ٢١٧/٢، وإرشاد الفحول: ٦٢٥/٢٥.

(٤) البحر المحيط: ٢٠٦/٥.

المعنى: هي أن يتدئ المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه عبارة عن الإتيان للفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة^(١).

٢- المناسبة اصطلاحاً:

هو علم تُعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها^(٢).

وقد عرفها الإمام أبي بكر بن العربي رحمه الله بقوله: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلاّ عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه»^(٣).

وقد عرفه الشيخ عز الدين بن عبد السلام: المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط في ارتباط أحدهما بالآخر^(٤). ثم قال: «ومن ربط بين ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلاّ برباط ركيك يصاب عنه حسن الحديث فضلاً عن أحسنه فإنّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»^(٥).

(١) ينظر: بديع القرآن: ٣٨ ، واعراب القرآن: سورة القلم: ٣٣.

(٢) نظم الدرر: ٥/١.

(٣) البرهان: ٣٦/١؛ والإتقان: ٩٧٦/٢، نقلاً عن ابن العربي من كتابه (سراج المريدين).

(٤) البرهان: ٣٧.

(٥) مباحث في علوم القرآن: القطان: ٩٧.

وعرّفها الإمام السيوطي حيث قال: ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسّي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه^(١).

وعرّفها الدكتور مصطفى مسلم بقوله: «هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها. وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كلّ آية بما قبلها وما بعدها»^(٢).

ويرى مناع القطان: هي وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة^(٣).

ومن خلال الإطلاع على هذه التعريفات يمكن القول بأنّ علم المناسبات علمٌ يعنى بالبحث في أسرار ترابط الآيات وأجزائها، وترابط السور ببعضها، ووجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني^(٤).

ويتبين لنا أيضاً أنّ هناك توافقاً بين المعنى اللغوي للمناسبة وبين معناها الاصطلاحي فكلّ التعريفين يشيران أنّ هناك ترابطاً بين أمرين وتناسباً بينهما، وبمعنى أنّ الآية الثانية لها ارتباط وثيق وصلة وثيقة بالآية قبلها وبآتي تليها

(١) الإتيان: ١٠٣/٢.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي: ٥٨.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٩٦.

(٤) ينظر: المناسبات: ٢٠؛ ومدخل إلى علم المناسبات: ٣.

وهو أمر يجري على السور أيضاً، وتدخل فيه كلمات الآية الواحدة نفسها، والله أعلم^(١).

٣- موضوعة:

بالنسبة لموضوع علم المناسبات عموماً هو كما عرفه البقاعي بأنه: «أجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب»^(٢).

أمّا بالنسبة لعلم مناسبات القرآن الكريم فموضوعه السور والآيات القرآنية.

٤- ثمرته:

قال البقاعي: «الإطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق، الذي هو كلحمة النسب»^(٣) وبه يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب»^(٤).

ولهذا العلم ثمرات عظيمة نذكر منها ما يلي:

١- يساعد علم المناسبات على حسن التأويل ودقة الفهم وإدراك اتساق المعنى بين الآيات^(٥).

٢- يساعد علم المناسبات على إدراك مقاصد القرآن الكريم وتذوق نظمه والترجيح بين الآراء.

٣- التعرف على وجه الإعجاز في الآيات الكريمات وإعجاز اختيار مفردات بعينها.

(١) ينظر: المناسبات القرآنية: ١١.

(٢) نظم الدرر: ٥/١.

(٣) المصدر نفسه: ٥/١.

(٤) المصدر نفسه: ١٠/١.

(٥) المناسبات بين الآيات: ١٣.

٤- أن فيه عصمة من الخطأ في التفسير وبه تحرز العقول من الزلل في فهم المعاني.

٥- فيه إعانة على حفظ كتاب الله تعالى وتدبره حق التدبير^(١).

المطلب الثاني: نشأة علم المناسبة

لم تكن المناسبة القرآنية خافية على العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأعرف الناس بالآيات التي جاء بها الرسول الكريم، ولقد أدرك فصحاء العرب بلاغة القرآن الكريم، وتناسب سوره وآياته منذ فترة نزوله حيث أدركوا في هذه الآيات التناسب وعرفوا أنها أبعد ما تكون عن الشعر والكهانة. وأنهم زعموا وكذبوا بالقرآن وقالوا بأنه سحر أو شعر، مع إنهم يقرون في أنفسهم أنه من عند الله تعالى، كما قال ﷺ: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٢).

ومما يدل على ذلك موقف الوليد بن المغيرة بعد سماعه القرآن من الرسول الكريم ﷺ فقد وصف القرآن بقوله: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيده مني، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم فاتحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحرٌ يؤثر، يآثره عن غيره، فترلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

(١) علم المناسبات: ٤٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

وَحِيدًا ﴿١﴾.

إنَّ اعتراف الوليد بن المغيرة ليدل دلالة على تأثير القرآن على النفس البشرية وإن كانت كافرة، وهذا التأثير وإن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على روعة القرآن وسلاسته وترابطه، وقوة إعجازه البلاغي.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «بُذِنِي هَاتين -وأشار بيده إلى أذنيه-: «يُخْرِجُ اللَّهُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ»، فقال له رجل: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾» (٢) فقال جابر بن عبد الله: إنكم تجعلون الخاص عامًا، هذه للكفار، اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣) هذه الكفار (٤).

وإنَّ أول من أظهر علم المناسبات كما ذكر الزركشي هو أبو بكر النيسابوري وكان يُزري على علماء بغداد لجهلهم وجوه المناسبات بين الآيات، وكان يقول: إذا قرئت عليه الآية أو السورة: «لَمْ جُعِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ

(١) أخرج هذه الرواية الحاكم في مستدركه عن ابن عباس وقال: (هذا حديث حسن صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه)، وقال الذهبي: (على شرط البخاري)، تعليق: الإمام الذهبي، كتاب التفسير، تفسير سورة المدثر: ٢/٥٥٠، رقم (٣٨٧٢).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب صفة النار وأهلها: ١٦/٥٢٦، رقم (٧٤٨٣)، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟»^(١).
ونلاحظ أنّ أول من وضع مصطلح (المناسبة) لهذا الفن ليس معلوماً، إلاّ
أنه يمكن القول: إنّ أول من استخدم هذا المصطلح هو الرازي عند تفسيره
لآخر سورة المائدة، وكلامه عن مناسبة آخر السورة لافتتاحيتها.

وقال الرازي في تفسيره أواخر سورة المائدة: «فمفتتح السورة من الشريعة،
ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته، وقدرته، وعُلُوّه، وذلك هو الوصول
إلى مقام الحقيقة، فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح، وهذا المختتم»^(٢).

ولهذا يتبين لنا أنّ نشأة علم المناسبات وتطبيقها على القرآن الكريم أثناء
بيان مراده مرتبطة بالزمن الذي بدأ فيه تترل القرآن، منذ كان الرسول الكريم
ﷺ في مكة قبل الهجرة، وقصة الوليد بن المغيرة تدل دلالة واضحة، كما
نلاحظ تناول الصحابة ﷺ لهذا العلم الشريف، من خلال تفسيرهم لبعض
الآيات، وربطها بما قبلها، وإن لم يشيروا إلى مصطلح (المناسبة) بالاسم.

المطلب الثالث: موقف العلماء من علم المناسبات

انقسم العلماء حول علم المناسبات بين الآيات والسور إلى فريقين فمنهم
القائل بوجود علم المناسبات والموافق له ومنهم المعارضون المانعون له، وسوف
نعرض آراء الفريقين، وذكر أدلتهم، وبيان الراجح منها بإذن الله تعالى.

١- أقوال العلماء القائلون بوجود التناسب بين الآيات والسور:

تعد مناسبة الآيات والسور، وارتباط مبانيها، من وجوه إعجاز القرآن
الكريم. قال الشيخ أبو الحسن الشهرستاني: أول من أظهر علم المناسبة ببغداد

(١) البرهان: ٣٦/١.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٣٩/١٢.

ولم نكن نسمعه من غيره هو الشيخ الإمام النيسابوري (ت ٣٢٤هـ) وكان أول من دعا إلى هذا العلم، وكان متفقهاً في الشريعة والأدب، وقد نقدم أنه كان يقول: «لَمْ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة ملاصقة للأخرى؟ وكان يلقي باللائمة على علماء بغداد لإهمالهم علم المناسبات»^(١).

١- قال القاضي ابن العربي (ت ٥٤٣هـ): «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه بسورة البقرة، ثم فتح الله عَلَيْكَ لنا فيه فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق فيه بأوصاف البطلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»^(٢).

٢- الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره مفاتيح الغيب.

٣- الإمام علي بن أحمد الحرالي أبو الحسن (ت ٦٣٧هـ) في كتابه (مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المثل) ونقل البقاعي رحمه الله انتفاعه من هذا الكتاب وإطلاعه عليه^(٣).

٤- أبو عبد الله محمد بن سليمان المقدسي الحنفي المعروف (أبي النقيب) (ت ٦٩٨هـ) في تفسيره^(٤).

٥- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت ٧٠٨هـ).

(١) البرهان: ٣٧/١، وينظر: البيان القرآني في تفسير نظم الدرر: ٢٣.

(٢) البرهان: ٣٦/١ نقل هذا القول الزركشي.

(٣) ينظر: نظم الدرر: ٧/١؛ وعلم المناسبات، ٢٧-٢٨.

(٤) ينظر: نظم الدرر: ٧/١.

- ٦- الشيخ ولي الله الملوي (ت ٧٧٤هـ).
- ٧- برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).
- ٨- وأول كتاب يصلنا في التأليف في علم المناسبات مفرداً هو (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن) لأحمد بن إبراهيم بن الزبير أبو جعفر الغرناطي (ت ٧٠٨هـ). والسيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) ، والشيخ محمد عبده في تفسير المنار وأتمه رشيد رضا. ومن المعاصرين:
- سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) و(التصوير الفني في القرآن).
- والشيخ مصطفى المراغي في تفسيره.
- والشيخ عبد الله بن الصديق الغماري في كتابه (جواهر القرآن في تناسب سور القرآن).
- والشيخ ظاهر الجزائري في كتابه (التيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن).
- والفراهي في تفسيره (الفرقان)^(١).
- ويقول ابن عاشور: «وقد اجتمعت في تفسيري هذا بيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو مترعٌ جليلٌ، وقد عني به فخر الدين الرازي، وألّف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، إلاّ أنّهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم

(١) ينظر: البيان في إعجاز وتناسب القرآن: ٢٩٨.

تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع»^(١).

وأيضاً يرى الشيخ سعيد حوى في مقدمة تفسيره: «إنَّ علماءنا دندنوا حول ضرورة البحث عن الصلة والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة، وعن الصلة والمناسبة بين سور القرآن عامة، ثم يقول: ولكن وإن عرج بعض المفسرين على هذا الموضوع، فإنَّ أحداً لم يستوعب القرآن كلّهُ بذكر الربط والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة، وبين سور القرآن بعضها مع بعض على ضوء نظرية شاملة»^(٢).

وقد وصفه الرازي بقوله: «إنَّ أكثر لطائف القرآن مودعة فيه»^(٣). ويتبيّن لنا من خلال ما سبق أنَّ عدد من العلماء المتقدمين والمتأخرين يقولون بوجود التناسب بين الآيات والسور، مع العلم أنَّ علماء آخرين غير الذين ذُكروا قالوا بهذا القول.

٢- العلماء القائلون بعدم وجود التناسب بين الآيات والسور:

لقد خالف بعض العلماء في قبول المناسبات بين الآيات والسور وخالفوا وأنكروا هذا الفن وقالوا عنه إنَّه تكلفٌ محض قال به (ولي الدين الملوحي) ذكره السيوطي في (معترك الأقران). حيث يرى الباحثون أنَّ لهذا العلم معارضيهِ الرافضين الخوض فيه ومنهم:

١- سلطان العلماء العز بن عبد السلام عز الدين أبو محمد السلمي الدمشقي

(١) التحرير والتنوير: ٨/١.

(٢) الأساس في التفسير: ٢٨-٢١/١.

(٣) البرهان، الزركشي: ٦٢/١.

الشافعي (ت ٦٦٠هـ) فقد قال رحمه الله^(١): «واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض وتشبث بعضه ببعض لئلا يكون مقطوعاً متبرأً، وهذا بشرط أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف، لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل على الرسول ﷺ في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضه ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب»^(٢).

فالعز بن عبد السلام لم يعارض وجود المناسبة والترابط بين الكلام، لكنه اشترط أن يقع الكلام في أمر متحد، وماعدا ذلك فهو يراه أمر متكلفاً.

٢- الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) يرى أن البحث في هذا العلم ضرب من التكلف وأنه لا فائدة منه، وأنه من التكلم بمحض الرأي المنهي عنه، وينعى على البقاعي وغيره عنايتهم بهذا العلم فقد أنحى الشوكاني باللوم، بل بالتقريع على أئمة التفسير القائلين بالتناسب في القرآن الكريم، وأطال في الاستدلال لرأيه، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ

إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣). حيث قال

(١) الإشارة إلى الإيجاز: ٢٢١.

(٢) المرجع السابق: ٢٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

في مقدمة نظيره^(١): «اعلم أنّ كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلّفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتزهد عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته»^(٢).

إنّ رأي الإمام الشوكاني يستلزم الوقوف عنده؛ كونه يمثل الاتجاه المقابل للقائلين بالتناسب بين الآيات. وإنّ ما ذمه الشوكاني من التكلف في هذا العلم لاشك أنه ذمٌّ في محله، إذ التكلف غير مقبول عموماً^(٣).

ونرد عليه بأنّ للمناسبة فائدة وأي فائدة، إذ إنّها تساعد في ترجيح رأي على آخر إذا تساوى في القوة، وكان أحدهما أليق بارتباط أجزاء الآية، أو الآيات، فإنّ العقل يتوجه بداهة لترجيح ما هو الأولى بنظم الكلام.

أمّا قوله بأنّ فن المناسبة (كلام بمحض الرأي المنهي عنه) فغير مقبول، لأنّ الرأي المنهي عنه هو الرأي الناشئ عن الهوى، أو غير الملتزم بضوابط

(١) المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير: ٢٨.

(٢) موقف الشوكاني من المناسبات: ٣٧، وينظر: المناسبات وأثرها في تفسير التحرير

والتنوير: ٢٩.

(٣) فتح القدير: ٧٢/١-٧٣.

التفسير^(١).

ومن المعارضين الإمام الشاطبي: «اعمال الرأي في القرآن جاء ذمة وجاء أيضاً ما يقتضي أعماله فما كان موافقاً لكلام العرب والكتاب والسنة فهذا لا يمكن إهمال مثله لعالم بهما، أمّا الرأي غير الجاري على موافقة العربية، أو غير الجاري على الأدلة الشرعية فهذا هو الرأي المذموم المنهي عنه»^(٢).

كما أنّ ذكر المناسبة بين الآيات والسور: ليس تكلماً بمحض الرأي، بل هو يبرز الوحدة المعنوية بين آيات وسور الكتاب العزيز، ويرسخ الاعتقاد بإعجاز القرآن الكريم، لما يبيده هذا العلم من لطائف القرآن وأسراره، كما أنه يعزز رأي العلماء الذين يرون أنّ ترتيب السور توقيفي، لا اجتهاد فيه: أمّا قوله: «فقد جاءوا بتكلفات وتعسفات... الخ»: ففيه حيف على المفسرين فما أكثر المناسبات الذكية التي يقبلها العقل، ويطرب لها الذوق، وإذا قمنا برفض أي علم لأخطاء وقعت فيه، لما بقي لنا علم، وموضوعة، يوردها دون أن ينبه عليها^(٣).

وتابعهما في هذا الرأي (من المحدثين) الدكتور: صبحي الصالح، حيث قال: «فإن وقع -أي التناسب- في أمور متحدة، مرتبطة أوائلها بآخرها، فهذا تناسب معقول مقبول، وإن وقع على أسباب مختلفة، وأمور متنافرة، فما هذا من التناسب في شيء»^(٤).

(١) مدخل إلى علم المناسبات: ١٢.

(٢) الموافقات: ٢٧٦/٤.

(٣) ينظر: التفسير والمفسرون: ٢٨٨/٢-٢٨٩.

(٤) مباحث في علوم القرآن: ١٥٢.

وقد خالف جمهور الأمة أصحاب هذا الرأي، ووهموا قائلية، وأكدوا وجود التناسب بين الآيات والسور^(١).

ومن خلال استعراض رأي الفريقين يتبين أن القول الأول، وهو القول بالتناسب بين الآيات والسور هو القول الراجح، كون التناسب بين الآيات عند بعض الصحابة عند تفسيرهم للقرآن الكريم، مثل الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله واعتنى كثير من المفسرين بهذا العلم وأقره جمع كبير من العلماء؛ لأنه يبرز وجهاً مهماً من وجوه إعجاز القرآن الكريم^(٢).

إن إمعان النظر في كلام كل من الإمامين، العزّ بن عبد السلام، والشوكاني؛ يُظهر فرق بينهما، فالعزّ بن عبد السلام يقرّ بالمناسبات إلا أنه يمنع التكلف في طلبها، والإمام الشوكاني يردّها جملةً وتفصيلاً، ويعتبر طلبها تعدياً على القرآن الكريم. وبين القولين فرقٌ شاسع^(٣).

مناقشة الفريق المانع:

بعد ذكر المانعين، وذكر آرائهم، وما احتجوا به على المنع يحسن إيراد الردود على أقوالهم.

١- الرد على القول بأنّ هذا العلم لم يكن بدعاً من العلوم بل إنّ له أصلاً قديماً عمل به بعض الصحابة رضي الله عنهم فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأذني هاتين وأشار بيده إلى أذنيه: «يخرج الله قوماً من النار فيدخلهم الجنة» فقال له رجل: إنّ الله يقول:

(١) ينظر: المناسبات: ٢٥.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم المناسبات: ١٣.

(٣) ينظر: المناسبات: ٢٩-٣٠.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾^(١)، فقال جابر ابن عبد الله: إنكم تجعلون الخاص عاماً، هذه للكفار، اقرؤوا ما قبلها، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا... أَلِيْمٌ﴾^(٢)، هذه للكفار^(٣).

٢- الرد على القول بأن القول بالتناسب بين الآيات والسور هو تكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة في كتاب الله تعالى. فنرد عليه: بأنه كيف يكون قولاً بمحض الرأي المنهي عنه، وقد قال به بعض الصحابة رضي الله عنهم، ألا يعلمون أن القول على كلام الله بمحض الرأي لا يجوز شرعاً، أم إنهم أخذوا وعملوا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٤) وأخذوا بالأحاديث التي ورد فيها الحث على التدبر في القرآن كما ثبت عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سأله أبو جحيفة رضي الله عنه، فقال: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله قال: «لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»^(٥).

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب صفة النار وأهلها: ٥٢٦/١٦، رقم (٧٤٨٣)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٥) رواه البخاري في الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، كتاب: الجهاد والسير، باب: فكك الأسير: ٣٢٤/٢، برقم (٣٠٤٧).

٣- ثم إنّ الإمام الشوكاني رحمه الله نفسه قد خالف ما تبنّاه من عدم قبول التناسب بين الآيات، فهذا هو رحمه الله يذكر بعض المناسبات بين الآيات في أكثر من موضع^(١) فيُحمل ما منعه الشوكاني رحمه الله على ما كان من تكلف ومبالغة في حمل الآيات على ما لا تحتل من غير دليل من الكتاب والسنة -والله أعلم-.

وبهذا يتضح أنّ القول الراجح في هذه المسألة هو القول بقبول المناسبات بين الآيات والسور، بشرط أن يكون قد وافق الكتاب والسنة ولم يخالف أصول الدين المتفق عليها، -والله أعلم-^(٢).

المطلب الرابع: أهمية علم المناسبات، فائدته، أشهر المؤلفات فيه

تساعد معرفة المناسبة بين الآيات على حسن التأويل، ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات، وترابط أفكارها، فالقرآن الكريم فيه كثير من فنون العقائد، والأحكام، والقصص، والوعظ، وغيرها من المقاصد التي جعلها الله تعالى هداية للبشر، والتي تهدف جميعها إلى الدعوة إلى الله، والقرآن يبيّن هذا المعنى من خلال المقاصد الموزعة على جميع الآيات والسور، فلو جمع كلّ نوع على حدة، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة^(٣).

وتكمن أهمية علم المناسبات في كونه يغوص في أعماق المعاني والآيات، وترتيبها، وعلل مواقعها، وفي الكشف عن الدرر والكنوز المتعلقة في الربط والترابط بين الآيات والسور. ودعا الله إلى تدبر القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) ينظر: المناسبة، رقم ٣- ٥- ٢٠ من تفسيره.

(٢) ينظر: المناسبات وأثرها في توضيح المعنى: ٢٨-٢٩.

(٣) ينظر: المناسبات: ١٣.

الْقُرْآنَ ﴿١﴾.

إنَّ معرفة المناسبة بين السور والآيات، يساعد على إدراك مقاصد القرآن، وتذوق نظم، وفهمه، والترجيح بين الآراء.

إنَّ معرفة علم المناسبة جانب مهم من جوانب فهم النظم القرآني يثبت به الإعجاز بنظم القرآن من خلال تناسب آياته وسوره، وتكمن أهميته في الحث على النظر في القرآن على أنَّه جملة واحدة، وأنَّ عدم الاهتمام بالمناسبات قد يوقع في فهم خاطئ^(٢).

وتبرز أهمية علم المناسبات من حيث كونه يمثل نوعاً فريداً من أنواع الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم، ويظهر فيه الامتثال لأمر الله تعالى لتدبر كتابه العزيز حيث قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٣)، وكذلك يُعدَّ علم المناسبات من أهم قواعد التفسير التي اعتمد عليها المفسرون في اختياراتهم^(٤) وتظهر أهمية علم المناسبات في دحض شبه المفسرين على كتاب الله تعالى بالادعاءات الكاذبة المشككة في تمام القرآن، وإثبات أنَّ القرآن الكريم لا نقص فيه ولا تحريف، وذلك من خلال ترابط آياته من دون أي خلل^(٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) ينظر: المناسبة: ٦.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٤) ينظر: قواعد الترجيح: ١٢٥/١؛ والمناسبات: ١٢-١٣.

(٥) ينظر: مدخل إلى علم المناسبات: ١٥، والمناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير: ٣٠.

وقد ذكر كثير من العلماء أهمية هذا العلم وفوائده:

١- قال الإمام الزركشي رحمه الله: «واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحرز بها العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»^(١).

٢- وقال الزمخشري: «وهذا الاحتياج، وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، مناد على نفسه بلسان ذلق، إنّّه ليس من كلام البشر، لمن عرف، وأنصف من نفسه»^(٢).

٣- وقال الإمام أبو بكر ابن العربي: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»^(٣).

٤- وقال الباقلاني: «فأمّا نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإنّ العقول تنبّه في جهته، وتحار في بحره، وتضل دون وصفه»^(٤).

٥- وقال أبو بكر النيسابوري: «إنّ إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلّا إلى هذه المناسبات الخفية، والقوية بين آياته وسوره، حتى كأنّ القرآن كلّّه كالكلمة الواحدة، ترتيباً وتماسكاً»^(٥).

٦- وقال صالح بن كيسان - مستدلاً على صحة قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٦): - «إنّما يراد بها الكافر، اقرأ ما

(١) البرهان: ٣٥/١.

(٢) الكشف: ٤٩٧/١.

(٣) إعجاز القرآن: ١٩٧، والبيان القرآني في تفسير نظم الدرر: ١٥.

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢١، وينظر: الفصل والوصل: ٣٩.

(٥) الإتقان: ٣٢٠.

(٦) سورة ق، الآية: ٢١.

بعدها يدلّك على ذلك»^(١).

٧- وقال فخر الدين الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنه معجز بحسب ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً يسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنّ معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»^(٢).

٨- قال مسلم بن يسار: «إذا حدّثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده»^(٣).

٩- وقال الشيخ مناع القطان: «كما أنّ معرفة سبب التزول لها أثرها في فهم المعنى وتفسير الآية فإنّ معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل ودقة الفهم... والمعرفة المناسبة فائدة في إدراك اتساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي وإحكام بيانه، وروعة أسلوبه»^(٤).

١٠- قال محمد رشيد رضا: «وقد خطر لي وجه، وهو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص، في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض، من عقائد، وحكم، ومواعظ، وأحكام تعبدية ومدنية، وغيرها، وهو نفى السّامة عن القارئ والسامع من طول النوع الواحد منها، وتحديد نشاطها ومنهجها»^(٥).

(١) جامع البيان: ١٦٢/٢٦.

(٢) الإتيان: ٣٢٣/٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١٣/١.

(٤) مباحث في علوم القرآن: ٩٦.

(٥) تفسير المنار: ٤٤٥/٢.

١١- وقال د. محمد دراز: «لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته معجزات، وفي كلّ ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري أنه في ترتيب آية على هذا الوجه هو معجزة المعجزات»^(١).

وكلّ ما سبق من هؤلاء العلماء يؤكّدون على أهمية هذا العلم ومكانته، ولذلك جعله كثير من السلف معيماً لهم على فهم معاني الكثير من الآيات التي أشكل عليهم معناها.

ومن أهم الفوائد التي ذكرها العلماء لعلم المناسبة يتضح بما يلي:

١- المساعدة على فهم كتاب الله تعالى، وبيان المراد من الآية، وعدم الوقوع في اللبس أو الخطأ.

٢- مثلاً: قوله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢ وَهَذَا الْبَلَدِ

الْأَمِينِ ﴿٣﴾ فَإِنَّ مِنْ رَجَّحَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ التِّينَ وَالزَّيْتُونَ مِنَ الْمَوَاضِعِ لَا مِنَ الْمَأْكُولِ اسْتَدْلَ بِالسِّيَاقِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَرْنَ التِّينِ وَالزَّيْتُونَ بِطُورِ سِينِينَ وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ؛ فَدَلَّ النِّظْمُ عَلَى كَوْنِهِمَا اسْمَيْنِ لِمَوْضِعَيْنِ^(٣).

٣- إبراز وجه مهم من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبلاغته.

٤- دحض شبهة المفترين على كتاب الله تعالى بالادعاءات الكاذبة المشككة في تمام القرآن.

(١) النبأ العظيم: ٢١١.

(٢) سورة التين، الآيات: ١-٣.

(٣) تأملات في القرآن: ١٠٤.

- ٥- توجيه الإنسان إلى التدبّر والتفكّر في كتاب الله ﷻ.
- ٦- تكميل المقصود من كلّ سورة وفهم المراد من القرآن:
- أكد الزركشي أنّ فائدة التناسب «جعل أجزاء الكلام آخذاً بعضها بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»^(١).
- ٧- بيان وتوضيح ما يُظن أنه تكرار في القرآن: يقول البقاعي:
- يقول البقاعي: «وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات، وأنّ كلّ سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادّعى في تلك السورة استدلال عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سبقت له»^(٢).
- ٨- النظام يكشف عن قدر الأمور وأهميتها:
- يقول الفراهي: «وقد عظم بيان الجمعة عندي حين علمت كيف مهّد الله قلبها من ذكر تسييح ما في السماوات والأرض، وصفاته الحسنى وفضله على الأمة، وخسران اليهود على استخفافهم بحكم الله، فقد رغب، ثم رغب، ثم رهّب، ثم ذكر أحكام الجمعة»^(٣).
- ٩- ملاحظة اقتباسات النبي ﷺ وأصحابه من نظم القرآن الكريم.
- ١٠- إنّ الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة وأنّ هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان، حيث إنّ مثل هذه الدراسات^(٤) «تروي

(١) البرهان: ٦٢/١.

(٢) نظم الدرر: ٨/١.

(٣) إمعان النظر: ١٦٧.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦٨.

ظماً طلاب المعرفة، والباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن»^(١).

١١- إنَّ علم المناسبة يحث المفسّر على تدبّر نظم الآيات والصور وإدراك الصلة فيما بين الآية والآية والسورة فالسورة من أجل الوقوف على مقاصدهما^(٢)، وفي ذلك زيادة علم وتفكّر في آيات الله التي قال عنها تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾^(٣).

أشهر المؤلفات والكتب والبحوث التي تناولت المناسبات القرآنية:

عني عدد من العلماء المتقدمين والمتأخرين وألفوا كتباً لها قيمتها العلمية الكبيرة؛ اهتمت بعلم المناسبات القرآنية فمنهم من أفردته بالتأليف ومنهم من تناوله في كتب علوم القرآن، ومنهم من أشار إليه إشارات لطيفة في بعض المواضع. ولا بد من عرض أهم تلك المؤلفات، وذلك على سبيل المثال لا الحصر^(٤).

أولاً: المؤلفات من كتب التفسير، ومن أشهرها:

- ١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
- ٢- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو كتاب أكثر مؤلفه من ذكر المناسبات فيه.
- ٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي.
- ٤- نظم الدرر في تناسب الآي والصور، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي.

(١) الأساس في التفسير: ٢٥/١.

(٢) ينظر: البيان القرآني في تفسير نظم الدرر: ١٩.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٤) ينظر: المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير سورة: ٣٢.

- ٥- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور.
 - ٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين أبو بكر النيسابوري.
 - ٧- تفسير اللباب في علم الكتاب، لابن عادل عمر بن علي الحنبلي.
 - ٨- الأساس في التفسير، سعيد حوى.
 - ٩- تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار، محمد رشيد رضا.
 - ١٠- البحر المحيط، محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي.
 - ١١- أنوار الترتيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر البيضاوي.
 - ١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمد الحسيني الآلوسي.
 - ١٣- التفسير المنير، وهبة الزحيلي.
 - ١٤- لطائف الإشارات، للإمام عبد الكريم القشيري.
 - ١٥- في ظلال القرآن، لسيد قطب.
 - ١٦- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني.
 - ١٧- التفسير القيم، للإمام ابن القيم.
 - ١٨- حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي^(١).
- كثانيًا: المؤلفات والبحوث من غير كتب التفسير، أشهرها:**
- ١- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي.

(١) ينظر: مدخل إلى علم المناسبات: ١٩-٢٠.

- ٢- البرهان في ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي الغرناطي.
- ٣- الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي.
- ٤- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، للإمام بديع الزمان سعيد النورسي.
- ٥- تناسق الدرر في تناسب السور، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
- ٦- أسرار التتيل أو قطف الأزهار في كشف الأسرار، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.
- ٧- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني.
- ٨- أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية، لعبد الحكيم الأنيس، بحث منشور في مجلة الأحمدية.
- ٩- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره، للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم^(١).
- ١٠- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز.
- ١١- علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بازمول.
- ١٢- إمعان النظر في نظام الآي والسور، لمحمد عناية الله محمد هداية الله.
- ١٣- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي.
- ١٤- فواتح السور وخواتيمها، عبد العزيز الخضير، رسالة دكتوراه.
- ١٥- التناسب البياني في القرآن، لأحمد أبو زيد، رسالة دكتوراه.

(١) ينظر: مدخل إلى علم المناسبات: ١٧؛ والمناسبات: ٣٢.

- ١٦- مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، لجلال الدين السيوطي.
- ١٧- المناسبات في القرآن الكريم، دراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة من تفسير الفخر الرازي، عبد الله بن مقبل القرني، رسالة ماجستير^(١).
- ١٨- المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث، أ. د. عقيد خالد حمودي العزاوي.
- ١٩- النظم القرآني في تفسير الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أ. د. عقيد خالد حمودي العزاوي.

المطلب الخامس: أنواع المناسبات

المتدبر لسور القرآن الكريم يجد روعة معنى الألفاظ من حيث سهولتها، وقرب مأخذها ، ومجيئها على قدر المعنى الذي صيغت له، والمتأمل لألفاظ القرآن يجدها وضعت في موضعها من النظم الكريم، ومجيء اللفظ في موضعه متناسب مع اللفظ والمعنى بحيث لو رفعت اللفظ من الآية، أو استبدلته بآخر، لاختل نظامها، وضاع المراد منها^(٢).

يقول ابن عطية: «وكتاب الله لو نزعته منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب -يومئذ- في سلامة الذوق، وجودة القرينة»^(٣).

(١) ينظر: المناسبات: ٣٢-٣٣؛ ومدخل إلى علم المناسبات: ١٧-١٨.

(٢) ينظر: المدخل إلى علوم القرآن: ١٦٣.

(٣) المناسبات: ١٣.

وقد وردت عدّة تقسيمات لأنواع المناسبات، واختلفت تلك التقسيمات من حيث عددها ومسمياتها. ولهذا نجد إنّ المناسبات تنقسم إلى قسمين رئيسيين، ولكل قسم سور تندرج تحته على النحو الآتي:

﴿ القسم الأول: التناسب بين الآيات في السورة الواحدة، وله خمسة صور:

١- تناسب كلمات الآية الواحدة.

٢- تناسب ترتيب الآيات.

٣- تناسب مطلع السورة مع مقاصدها.

٤- تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها.

٥- تناسب مطلع السورة مع خاتمته.

٦- تناسب مطلع السورة مع خاتمته^(١).

﴿ القسم الثاني: التناسب بين السور، وله ثلاث صور:

١- تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها.

٢- تناسب خاتمة السورة مع فاتحة ما بعدها.

٣- تناسب مقاصد السورة مع السورة التي قبلها.

﴿ القسم الأول: التناسب بين الآيات في السورة الواحدة:

يتضمن تعريف (الآية) لغةً واصطلاحاً:

الآية لغةً: العلامة، والإمارة، والعبرة، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾^(٢) وتأتي

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤-٣٥، ومدخل إلى علم المناسبات: ٢١، والمناسبة في سورة الكهف: ٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٢.

بمعنى المعجزة^(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾^(٢).

اصطلاحاً: لقد عرّفه السيوطي في كتابه الإتقان فقال: «حد الآية: قرآن مركب من جمل ولو تقديرًا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة، وأصلها العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾^(٣)؛ لأنها علامة للفضل والصدق، والجماعة؛ لأنها جماعة كلمة»^(٤) وقيل: هي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها، وقيل: هي الواحدة من المعدودات في السور، وسميت به؛ لأنها علامة على صدق من أتى بها وعلى عجز المتحدّى بها^(٥).

قال القرطبي: «قال ابن عطية: وجه التحدي في القرآن إنّما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظ، ووجه إعجازه: أنّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّ علماً، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة النظر يبطل قول من قال: «إنّ العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، فلما جاء محمد ﷺ صرفوا من ذلك وعجزوا عنه»^(٦).

(١) ينظر: القاموس المحيط: ٤/٤٣٦؛ ومختار الصحاح: ٣٧؛ والمعجم الوسيط: ١/٥٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٤) الإتقان: ١/١٣٣.

(٥) ينظر: البرهان: ١/٢٦٤؛ والإتقان: ١/٢٠٨.

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/١٢٠، ونقل هذا القول عن ابن عطية السيوطي في الإتقان: ٢/١٠٠٧. ولم أقف عليه في تفسير ابن عطية.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطُّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في إنَّ الفصحح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تُعطى لآخر بعده، فيأخذها بقريحة جامحة، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله تعالى لو نُزعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد.

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «ولما كان يقين الآيات التي أمر النبي بوضعها في أماكنها في موضع معين غير مروي إلا في عدد قليل، كان حقاً على المفسر أن يتطلب مناسبات لواقع الآيات، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وإلا فليعرض عنه، ولا يكن من المتكلفين»^(١).

ولهذا نجد إنَّ المناسبة قائمة في الأسلوب القرآني، ومتمثلة في اتصال كلماته وتماسكها، والكلمة القرآنية في تلاحمها وتماسكها. هي المقياس للفكر والمعرفة، ولا تقاس بها معارف الناس وأفكارهم فالناس مختلفون في المعارف، متفاوتون في الأفكار، ومن هنا كانت الكلمة القرآنية في ثباتها ورسوخها، وحسن موقعها، والمناسبة المعقودة بينها، محوراً تدور الأفكار حوله، تلتمس الحق، حين تصل إلى تلك المناسبة وتذكرها^(٢).

وقال السيوطي: «إنَّ مرجع المناسبة في الآيات إلى معنى رابط بينها: عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي.. أو غير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول والنظيرين، والضدين..

(١) التحرير والتنوير: ٨٠/١.

(٢) في الدراسات القرآنية: ٩٥.

ونحو ذلك. والارتباط بين الآيتين إمّا أن يكون ظاهراً؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى، أو لكون الثانية واقعة من الأولى موقع التأكيد أو التفسير، أو الاعتراض أو البديل. وإمّا أن يكون غير ظاهر؛ لكون كلّ جملة مستقلة عن الأخرى. والقسم الأول لا كلام منه لظهوره. والثاني: إمّا أن تكون الجملة الثانية فيه معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم، أو غير معطوفة»^(١).

ففي سورة النحل قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

بعد أن سخر كفار مكة من النبي ﷺ واتخذوا آيات الله هزواً واستعجلوا العذاب على جهة التكذيب بوقوعه ساق القرآن الكريم لهم ما يذكرهم بحجته عليهم في توحيده، بعلوه عن شركهم ودعواهم إلهاً دونه، فارتفع عن أن يكون له مثل أو شريك أو ظهير، لأنه لا يكون إلهاً إلا من يخلق وينشئ بقدرته مثل السماوات والأرض ويتدع الأجسام فيحدثها من غير شيء، وليس ذلك في قدرة أحد سوى الله الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح الإلهوية لشيء سواه^(٣). بعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٤). وقد نزلت هذه الآية في أبي بن

(١) الإتيان: ٩٨٢/٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢-٣.

(٣) ينظر: جامع البيان: ١٧/١٦٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤.

خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم بال إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ، نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(١) إلى آخر السورة نازلة في هذه القصة^(٢) فجاءت هذه الآية ضمن سوق القرآن الكريم مزيداً من الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله وإلهيته، كيف أحدث من ماء مهين خلقاً عجيباً، قلبه تارات خلقاً بعد خلق في ظلمات ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تمّ خلقه ونفخ فيه الروح، فغذاه ورزقه القوت ونمّاه، حتى إذا استوى على سوقه كفر بنعمة ربه، وجحد مدبره، وعبد من لا يضر ولا ينفع^(٣)، فقال:... ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ونسي الذي خلقه فسوّاه خلقاً سوياً من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعني بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع^(٤).

صور التناسب بين الآيات في السورة الواحدة:

الصورة الأولى: تناسب كلمات الآية الواحدة:

ويقصد به الترابط بين أجزاء الآية الواحدة مع بعضها، من حيث ترابط خاتماتها، ومطالعها، وتناسب ألفاظها ومدلولها ومقصودها وغرضها. ووجه التحدي في القرآن إنّما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة

(١) سورة يس، الآية: ٧٧.

(٢) ينظر: أسباب النزول: ١٨٨/١.

(٣) ينظر: المناسبة: ص ٦-٧.

(٤) ينظر: جامع البيان: ١٦٧/١٧.

ألفاظه ووجه إعجازه.

والتناسب بين أجزاء الآية، يكون من حيث اللفظ أو المعنى: أمّا من حيث اللفظ -وهو مناسبة اللفظ لبقية ألفاظ الآية- مثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّهْ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾^(١) فقد جاءت الألفاظ بحيث يلاءم بعضها بعضاً، وذلك بأنه أتى في الآية بألفاظ متناسبة في الغرابة.

فالتاء: أغرب ألفاظ القسم، وذلك لأنها أقل استعمالاً من الواو والباء وأتى بـ(تفتؤا)، وفتئ: أغرب صيغ الأفعال التي تفيد الاستمرار من أخوات (كان). وأتى بلفظ (حرضاً): وهو أغرب ألفاظ الهلاك، فاقترضى حسن الوضع في النظم، أن تُجاورَ كلّ لفظة بلفظة من جنسها توخياً في حسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعنى بالألفاظ، ولتعادل الألفاظ في الوضع، وتناسب في النظم، وجاءت هذه الألفاظ غريبة لتتوافق مع حال يعقوب عليه السلام التي وصل إليها، وإشفاق أبنائه على حاله، وخشيتهم عليه من الهلاك^(٢).

وأما تناسب اللفظ من حيث المعنى فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٣) فإنه سبحانه لما نهى عن الركوب إلى الظالمين، وهو الميل إليهم والاعتماد عليهم، وكان دون ذلك مشاركتهم في الظلم، أخبر أن العقاب

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

(٢) ينظر: الإتيقان: ٩١١/٢.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٣.

على ذلك دون العقاب على الظلم؛ وهو مسُّ النار الذي هو دون الإحراق والاضطرام؛ وإن كان المس قد يُطلق ويراد به الإشعار بالعذاب^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٢) أتى بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها^(٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥).

ولاشك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم مع الآيات فيهما، ذلك السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي ختمت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم، في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته، فختم الآية بصفة الإنسان، وإن الآية الثانية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى، فذكر صفاته^(٦).

وقوله تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُنُ﴾^(٧) فإنه أبلغ من كبُّوا للإشارة إلى أنهم مكبون كبّاً عنيفاً فظيعاً^(٨).

(١) البرهان: ٤٣٣/٣؛ والإتقان: ٩١٢/٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) الإتقان: ١٧٢/٢.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٦) ينظر: التعبير القرآني: ١٩٧.

(٧) سورة الشعراء، الآية: ٩٤.

(٨) الإتقان: ١٧٢/٢.

يقول ابن عاشور في تفسير سورة إبراهيم الآية (٣٤): «وصيغتنا المبالغة في (لظلم كفار) اقتضاها كثرة النعم المفاد من قوله: ﴿وَلِإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾. إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئاً، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره»^(١).

ومن خلال ذلك يتضح أن التناسب والتلاؤم قائم بين أجزاء الآية الواحدة، وأن ألفاظها ناسبت الغرض الذي سيقى له، فأعطت للآية معنى رائعاً، وبلاغة لا توصف^(٢).

الصورة الثانية: تناسب ترتيب الآيات:

ويقصد منه ترابط الآيات بعضها مع بعض بحيث تكون كلحمة واحدة، غير منفصلة، لوجود رابط أو أكثر يربطها ببعضها، وقد يحصل التناسب بين عدد من الآيات المتتابعات وبين ما بعدها، ولا ينبغي التكلف والمبالغة في الوصول إلى المناسبة^(٣)؛ لأن ذلك يؤدي إلى تحميل القرآن ما لا يحتمل، فالمناسبة قد تظهر وقد لا تظهر.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٤) مع قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ

(١) التحرير والتنوير: ٤٣٨/٧.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم المناسبات: ٢٦.

(٣) ينظر: المناسبات وأثرها: ٣٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥.

صَدَقْتِهِنَّ نِجْلَةً فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيكًا ﴿١﴾.

قال ابن عاشور: عطفٌ على قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ﴾ لدفع توهم إيجاب أن يؤتى كل مال لملكه من أجل تقدّم الأمر بإتيان الأموال مالكيها مرتين في قوله: ﴿وَأَتُوا أَلْيَنَ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ﴾ أو عطف على قوله: ﴿وَأَتُوا أَلْيَنَ﴾ وما بينهما اعتراض. والمقصود بيان الحال التي يمنع فيها السفه من ماله، والحال التي يؤتى فيها ماله، وقد يقال: كان مقتضى الظاهر على هذا الوجه أن يقدم هنالك حكم منع تسليم مال اليتامى؛ لأنه أسبق في الحصول، فيتجه لمخالفة هذا المقتضى أن نقول قدّم حكم التسليم، لأنّ الناس أحرص على ضده، فلو ابتدأ بالنهي عن تسليم الأموال للسفهاء لاتّخذها الظالمون حجة لهم، وتظاهروا بأنهم إنّما يمنعون الأيتام أموالهم خشية من استمرار السفه فيهم، كما يفعله الآن كثير من الأوصياء والمقدمين غير الأتقياء^(٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿الْمَ ۝١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى ...
الْمُفْلِحُونَ ﴿٣﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

لما أردف البيان لأوصاف المؤمنين التعريف بأحوال الكافرين، وكانوا قد

(١) سورة النساء، الآية: ٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٣٣/٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١-٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦.

انقسموا على مصارحين ومنافقين، وكان المنافقون قسمين: جهّالاً من مشركي العرب، وعلماء من كفار بني إسرائيل؛ كان الأنسب - ليفرغ من قسم بترأسه على عجل - البداءة أولاً بالمصارحين، فذكر ما أراد من أمرهم في آيتين؛ لأنّ أمرهم أهون، وشأنهم أيسر، لقصدتهم بما يوهنهم بالكلام أو بالسيف، على إن ذكرهم على وجه يعم جميع الأقسام، فقال مخاطباً لأعظم المنعم عليهم على وجه التسلية والإعجاز في معرض الجواب لسؤال من كآته قال: «هذا حال الكتاب للمؤمنين فما حاله للكافرين؟»^(١).

﴿الصورة الثالثة: تناسب مطلع السورة مع مقاصدها:﴾

في هذه الصورة إشارات بلاغية عظيمة، ودلالات على تلاحم القرآن بعضه ببعض.

ومن أمثلة هذه الصورة تناسب مطلع سورة المائدة مع مقاصدها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصِّدِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢) حيث افتتحت هذه السورة بأمر المؤمنين بالوفاء، ثم كان فيها أحكام تشريعية، وآداب، وأمر، ونهي، وهذا كله مما يجب الوفاء به. وكما كان مدار هذه السورة على الزجر والإحجام عن أشياء اشتد إلفهم لها، والتفاهم إليها، من الميئات وما معها، والأزلام، والذبح على النصب، والسرقة، والخمر، والبحائر، إلى غير ذلك؛ ذكر في أولها بالعهود التي عقدوها على أنفسهم ليلة العقبة، حين توثقوا على الإسلام من السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر،

(١) نظم الدرر: ٣٧/١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

فيما أحبُّوا وكرهوا^(١).

وذكر ابن الزملي أني رحمه الله: بأن سورة سبحان لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي ﷺ وتكذيبه تكذيباً لله ﷻ أتى بـ(سبحان) لتزويه الله تعالى عما تُنسب إلى نبيه من الكذب، وسورة الكهف: لما أنزلت بعد سؤال المشركين على قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي، نزلت مبيّنة أن الله لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة^(٢).

الصورة الرابعة: تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها:

يقصد بهذه الصورة: الترابط الحاصل بين خاتمة السورة وأهم مقاصدها، وقد ورد هذا النوع في بعض السور.

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره البقاعي رحمه الله في ختام سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

حيث قال رحمه الله: «ولما كثر في هذه الآيات الأمر بمقاساة الشدائد وتجرع مرارات الأذى واقتحام الحروب واستهانة عظام الكروب، والحث على المعارف الإلهية والآداب الشرعية من الأصول والفروع انخلاعاً من المألوفات إلى ما يأمر به سبحانه من الطاعات، وختم بتجرع فرقة من أهل الكتاب لتلك المرارات كانت نتيجة ذلك لا محالة قوله تعالى منبهاً على عظمة

(١) نظم الدرر: ٣٨٧/٢.

(٢) الإتيقان: ٢٢٢/٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

ما يدعو إليه لأنه شامل لجميع الآداب: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بكل ما ذكرنا في هذه السورة»^(١).

الصورة الخامسة: تناسب مطلع السورة مع خاتمتها:

إنَّ خاتمة الكلام لا بد أن يكون بارع المقطع، تهتز له النفس وتستوعبه؛ لأنَّ ختام الكلام آخر ما يقرع الأسماع، فيجب أن يكون هذا القرع مؤثراً، ولأجل أن يكون مؤثراً يجب أن يحوي معاني بلاغية تُفهم السامع أنَّ الكلام انتهى؛ حتى لا تتشوّق النفس إلى سماع شيء بعده ويسمى براءة المقطع^(٢).

ومن أمثلة تناسب مطلع السورة مع ختامها ما ذكره الزمخشري رحمه الله في آخر تفسير سورة المؤمنون حيث قال: جعل فاتحة سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣). وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»^(٥).

وهنا التناسب هو التضاد، فعندما ذكر فوز أهل الإيمان، ذكر بعده خسارة أهل الكفر والعصيان.

وقال السيوطي رحمه الله: «وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدأت بأحوال القيامة وختمت بقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾»^(٦).

(١) نظم الدرر: ٢٠٣/٢.

(٢) نهاية الأرب: ١٣٥/٧؛ ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٣٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٧٧.

(٥) الكشف: ٢٠١/٣.

(٦) الإتيان: ٢١٠/٢.

القسم الثاني: التناسب بين السور:

السورة لغة: مأخوذة من السور، وهو حائط المدينة، ويأتي بمعنى المتزلة، وجمعها سور، وهي من البناء ما طال وحسن^(١). وجمعه أسوار وسيران. والسور أيضاً جمع سورة، وهي كلّ متزلة من البناء، ومنه سورة القرآن؛ لأنها متزلة بعد متزلة مقطوعة عن الأخرى، والجمع سور بفتح الواو، ويجوز أن تجمع على سورات بسكون الواو وفتحها^(٢).

واصطلاحاً: هي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع. وقالوا: وهي مأخوذة من سور المدينة، وذلك إمّا لما فيها من وضع كلمة وآية بجانب آية، كالسور توضع كلّ لبنة^(٣) فيه بجانب لبنة، ويقال: ككل صف منه على صف^(٤). وهي قرآن يشتمل على أي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات^(٥).

إنّ التآلف والترابط والتناسب كما هو حاصل بين آيات القرآن الكريم في السورة الواحدة، حاصل بين سور القرآن، فمن قرأ سورة من سور القرآن بإمعان وتدبر؛ وجد بينهما وبين سابقتها مناسبة ورابطة، تظهر سرّ الإعجاز

(١) مختار الصحاح: مادة: سور، باب: السين: ٢٨٧.

(٢) ينظر: القاموس المحيط، مادة (سور)، باب الراء، فصل السين: ١١٨/٢؛ ومختار

الصحاح، باب السين: ٣٢٠؛ والمعجم الوسيط، باب السين: ٤٨١/١.

(٣) مادة: لبن، باب: اللام، اللبن: المضروب من الطين يُبنى به دون أن يُطبخ (المعجم الوسيط: ٨١٤).

(٤) مناهل العرفان: ٣٤٣/١.

(٥) ينظر: البرهان: ٢٦٤/١؛ والإتقان: ١٦٦/١.

في ترتيب سورة^(١).

وتعرف السورة أيضاً: بأنها قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسمّاة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثره في غرض تام ترتكز عليه معانيها.

وما من سورة إلاّ ولها من المعالم ما يختص بها، سواء في ذلك السور القصار والطوال، وكلمات قصرت السور كبرت هذه الخاصة، ويتضح ذلك من إنّ الله تعالى لم يجعل السور القصار سورة واحدة مستقلة إلاّ لحكمة عظيمة، وهي استقلال كلّ واحدة منها بما يميزها عن سواها^(٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله: إنّ الشأن في سور القرآن من هذه الوجهة أي: وجهة استقلال كلّ منها بشخصية هكذا - مميزة - كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة. كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العفوي والوظيفي الإنساني... ولكنهم - بعد ذلك - نماذج متنوعة أشد التنوع، نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، ومنها الأغيار التي لا تجمعها إلاّ الخصائص الإنسانية العامة. هكذا عُدت أتصور سور القرآن، وهكذا عُدت أحسها، وأتعامل معها.. بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وفق طباعه، واتجاهاته، وسماته «وأنا أجد في سور القرآن - تبعاً لهذا - وفرة بسبب تنوع النماذج، وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات... ومصاحبة السورة من أولها إلى

(١) أشير هنا إلى أنّ الطاهر بن عاشور لا يرى هذا القسم من المناسبات، ومستندة في ذلك أنّ ترتيب سور القرآن اجتهادي وليس توفيقياً.

(٢) دلائل النظام: ٨٢.

آخرها رحلة... رحلة في عوالم ومشاهد ورؤى وحقائق، وتقديرات، وموصيات، وغوص في أعمال النفوس، واستجلاء مشاهد الوجود... ولكنها مع ذلك رحلة متميزة المعالم.. في كل سورة، ومع كل سورة^(١)»^(٢).

صور التناسب بين السور:

◀ الصورة الأولى: تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها:

ويقصد به: الترابط والتلاحم بين فاتحتي سورتين متتاليتين.

ومن أمثلتها: ما ذكره البقاعي رحمه الله عند بداية تفسيره لسورة الحج ومناسبة افتتاحها مع ما افتتحت به السورة التي قبلها وهي سورة الأنبياء حيث قال: «قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾^(٣)» أي: الذين تقدّم أول تلك أنه اقترب لهم حاسبهم ﴿أَتَقُوا رَبَّكُمْ﴾^(٤) أي: احذروا عقاب المحسن إليكم بأنواع الإحسان بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية الطاعات^(٥).

ومثاله: افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح، وسورة الكهف بالتحميد. والتناسب بين الفاتحتين أنّ التسبيح - حيث جاء - مقدّم على التحميد، يقول: سبحان الله والحمد لله^(٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،

(١) في ظلال القرآن: ١٢٤٣/٣.

(٢) ينظر: الرازي ودوره في علم المناسبات: ١١.

(٣) سورة الحج، الآية: ١.

(٤) سورة الحج، الآية: ١.

(٥) ينظر: نظم الدرر: ١٢٩/٥.

(٦) ينظر: البرهان: ٣٩/١؛ والإتقان: ٩٩٣/٢.

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

وأيضاً تناسب بين فاتحتي سورة الرحمن وسورة القمر، وفي بيان ذلك يقول الإمام الرازي رحمه الله: «اعلم أولاً أنّ مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين، أحدهما: أنّ الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت، وهو انشقاق القمر، فإنّ من يقدر على شق القمر يقدر على هدّ الجبال وقدّ الرجال، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت، وهو القرآن الكريم، فإنّه شفاء القلوب بالصفاء من الذنوب»^(٢).

﴿الصورة الثانية: تناسب فاتحة السورة مع خاتمة ما قبلها:﴾

يقصد به التلاحم والتلاؤم بين مطلع السورة وخاتمة السورة التي قبلها. يقول الزركشي: «إذا اعتبرت افتتاح كلّ سورة؛ وجدته في غاية المناسبة لما خُتمت به السورة قبله، ثم هو يخفي تارة ويظهر أخرى»^(٣).

ومن أمثلتها ما ذكره البقاعي رحمه الله في تفسيره لمطلع صورة الضحى أنّ هناك ترابطاً بين مقدمتها مع خاتمة سورة الليل فقال: «ولما حَكَمَ في آخر الليل بإسعاد الأتقياء، وكان النبي ﷺ أتقى الخلق مطلقاً، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً ابتلاءً لمن شاء من عباده، وكان به ﷺ صلاح الدين والدنيا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]: ٢٣٦٤/٤، رقم (٧٥٦٣).

(٢) مفاتيح الغيب: ٨٢/٢٩.

(٣) البرهان: ٣٨/١.

والآخرة، وكان الملوأ^(١) سبب صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم، أقسم سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق دنيا وأخرى، فقال مقدماً ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر الصديق ؓ قصداً أولياً من النور الذي يملأ الأقطار، ويمحو كل ظلام يرد عليه ويصل إليه، مفهماً بما ذكر من وقت الضياء الناصع حالة أول النهار وآخر الليل التي هي ظلمة ملتف بساقها ساق النهار عند الإسفار: (والضحى) فذكر ما هو أشرف النهار وألطفه وهو زهرته، وأضوأه وهو صورة، وذلك وقت ارتفاع الشمس؛ لأنّ المقسم لأجله أشرف الخلائق، وذلك يدل على أن يبلغ من الشرف ما لا يبلغ أحد من الخلق»^(٢).

وأيضاً ما ذكره البقاعي في حديثه عن تناسب فاتحة سورة الكهف لخاتمة سورة الإسراء، حيث قال: «لما خُتِمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التره عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك؛ بُدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص»^(٣).

وكذلك تناسب فاتحة سورة الطور مع خاتمة سورة الذاريات، فلما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾^(٤) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^(٥)، افتتحت سورة الطور بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد

(١) مادة، ملا، باب: الميم. القلسوان: الليل والنهار، الواحد ملاً مقصور (مختار

الصاح: ص ٥٤٧).

(٢) نظم الدرر: ٤٥٢/٨.

(٣) المصدر نفسه: ٤٤١/٤.

(٤) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٩-٦٠.

وقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿١﴾.

وقد لا تظهر هذه الصورة بين سورتين، ومثال ذلك عدم ظهورها بين فاتحة سورة التين وخاتمة سورة الانشراح، فسورة التين افتتحت بالقسم بالتين، والزيتون... الخ، وسورة الانشراح خُتِمت بأمر النبي ﷺ بالاجتهاد في العبادة. وهذا يدل على إته لا يلزم وجود هذه الصورة بين جميع سور القرآن الكريم.

وقال الزركشي رحمه الله: «وافتاح سورة الحديد بالتسبيح ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾ فإنه مناسب لختام سورة الواقعة ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣﴾، من الأمر به» ﴿٤﴾.

الصورة الثالثة: تناسب مقاصد السورة مع مقاصد السورة التي قبلها:
هذا النوع يشبه الحلقة التي تربط بين أجزاء الشيء حتى تجعله عقداً واحداً، وقد أشار كثير من المفسرين إلى مناسبة السورة مع مقاصد السورة التي قبلها، لاسيما عند القائلين بأن ترتيب سور القرآن توقيفي وليس اجتهادي.
وقد قال السيوطي رحمه الله: ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة التي قبلها، لأن السابقة وصف الله فيها المنافق بأربعة أمور: البخل

(١) سورة الطور، الآيتان: ١-٨، والمناسبة ذكرها البقاعي في تفسيره نظم الدرر: ٢٩١/٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٩٦.

(٤) ينظر: البرهان بتصرف: ٦٤/١.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾^(١)،
وترك الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٢)، والرياء فيها ﴿الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ﴾^(٣) ومنع الزكاة ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(٤) فذكر فيها في مقابلة
البخل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، وفي مقابلة ترك الصلاة
﴿فَصَلِّ﴾ أي: دُم عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: لرضاه لا للناس،
وفي مقابلة منع الماعون ﴿وَأَنْحَرْ﴾ وأراد به التصرف بلحم الأضاحي^(٥).

وأيضاً التناسب الحاصل بين مقاصد سور آل حم^(٦) فجميعها تدور
مقاصدها حول قضية الوحي، وقضية الحق والباطل، وقضية العقيدة، وعرض
آيات الله في الأنفس والآفاق، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة.

وقال البقاعي رحمه الله في مناسبة مقاصد سورة البقرة لمقاصد سورة
الفاحة، حيث قال: «وأما مناسبة ما بعد ذلك للفاحة، فهو أنه لما أخبر
سبحانه وتعالى أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة وهداية الصراط المستقيم
-الذي هو غير طريق الهالكين-؛ أرشدهم في أول التي تليها إلى أن الهدى
المسؤول إنما هو في هذا الكتاب، وبيّن لهم صفات الفريقين الممنوحين

(١) سورة الماعون، الآيتان: ٢-٣.

(٢) سورة الماعون، الآية: ٥.

(٣) سورة الماعون، الآية: ٦.

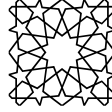
(٤) سورة الماعون، الآية: ٧.

(٥) ينظر: الإتقان: ٢/٢١٨.

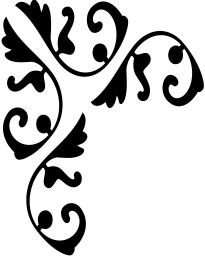
(٦) يراد بها سورة (غافر، فصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجن، والحاقة،
والأحقاف).

بالهداية حتّى على التخلّق بها، والممنوعين منها زجراً عن قربها، فكان ذلك من
أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة»^(١).

ولا يلزم وجود هذه الصورة بين جميع سور القرآن الكريم.



(١) نظم الدرر: ٣٢/١.



الفصل الأول

المناسبات بين المعاني اللغوية وسياقاتها اللفظية

- ❖ المبحث الأول: المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي.
- ❖ المبحث الثاني: المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي.
- ✓ المطلب الأول: صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن.
- ✓ المطلب الثاني: صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة.



الفصل الأول

المناسبات بين المعاني اللغوية وسياقاتها اللفظية

البحث الأول

المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي

إنَّ المعاني الوظيفية للأسماء إمَّا أن تكون صرفية تتصل ببنية اللفظ، وإمَّا نحوية تتصل بالموقع الذي يقع فيه. ثم يمكن تناول المعاني الوظيفية للأسماء ومناسبة هذه المعاني للسياق اللغوي من خلال ما تدل عليه مبانى الأسماء ثم ما تدل عليه مواقعها الوظيفية.

أولاً: المعنى الوظيفي لبنية الاسم [المعنى الصرفي]

تتعدد هذه المعاني وتختلف بحسب اختلاف الأسماء وأنواعها، فمنها ما يتصل بصيغة اللفظ من حيث تعريفه وتنكيره، ومنها ما يتصل بصيغته من حيث نوعه تذكيراً وتأنيثاً، ومنها ما يتصل به من حيث عدده إفراداً وتثنية وجمعاً، ومنها ما يتعلق به من حيث اشتقاقه، كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة، ومنها ما يتعلق بالأسماء التي لا اشتقاق لها، كالموصلات وأسماء الإشارة والضمائر والظروف^(١).

وسنعرض هذه الأمور كما يأتي:

١ - الأسماء ذات الصيغ المحددة، وتشمل:

أ - النكرة والمعرفة:

«النكرة كلّ ما علق في أول أحواله على الشياخ في مدلوله، والمعرفة

(١) المناسبة في القرآن: ١٦٧.

كلّ ما علق في أول أحواله على أن يخص مسماه»^(١).

يعرّف ابن عصفور النكرة والمعرفة بقوله: «يقول العلوي: «اعلم أنّ المعرفة، ما دلّت على شيء بعينه، والنكرة، ما دلّت على شيء لا بعينه»^(٢) فالتنكير يعطي الاسم دلالة على الشيوع والعموم، والتعريف يعطيه دلالة على التخصيص والتحديد. إذا اقتضى السياق التحديد أو التخصيص، فإنّه يؤتى باللفظ معرّفاً ليدل على هذا المعنى منها لفظ (الحق) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾^(٣) فالسياق هنا يتحدث عن الذين كفروا ممن يجادلون في آيات الله، ويكذبون بالكتاب وما أرسل به الرسل؛ إذ يلقون في النار يوم القيامة، فيقال لهم: أين هؤلاء الذين كنتم تشركون بالله؟ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيَنْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾^(٤) من دون الله قالوا ضلوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضلّ الله الكافرين»^(٥)، فـ«لو قال بغير حق لم يكن في ذلك إشارة إلى الكفر ونكران الدين بل إنّ الذي يفهم في هذه الحالة هو (ضد الباطل) وليس (ضد الإيمان) أمّا تعريف الحق فقد صرف المعنى إلى الاحتمال الثاني»^(٥) فناسب التعريف هنا ليحدد المعنى المراد من اللفظ^(٦).

(١) شرح جمل الزجاجي: ١٣٤/٢.

(٢) الطراز: ٢٠٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧٥.

(٤) سورة غافر، الآتين: ٧٣-٧٤.

(٥) البيان في روائع القرآن: ٢٧١.

(٦) ينظر: المناسبة في القرآن: ١٦٨.

ويأتي استعمال الأسماء المنكرة والمعرفة في القرآن الكريم إذا منحها السياق دلالة أخرى تضاف إلى معناها الأصلي. فإذا اقتضى السياق الشيعي والتعميم وما يتولد عن هذا إبهام أو تهويل أو تعظيم، بحسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي جاء اللفظ منكرًا، منها مجيء لفظ (رجل) في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(١) «فليس المراد هنا تعيين الرجل، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل»^(٢) وذلك كي ينجو بنفسه من هؤلاء القوم في أسرع وقت.

ومن هنا كان تنكير هذا اللفظ؛ إذ ليس التركيز في هذا السياق على الرجل الذي أوصل الخبر، بل التركيز على وصول الخبر نفسه، فناسب أن يأتي اللفظ منكرًا.

وقد ورد التنكير متفقاً مع سياق الحال كتتكير لفظ (أودية) كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾^(٣) وذلك؛ لأن الغيث عند نزوله من السحاب لا يصيب جميع الأودية في وقت واحد، بل يصيب بعضها فحسب ولو قيل: فسالت الأودية، بالتعريف، لدل على أن الغيث عند نزوله يصيبها جميعاً في وقت واحد، وهو ما لا يتفق مع واقع الحال ومن ثم جاء التنكير؛ ليتفق اللفظ مع المقام، وهو ما يعبر عنه الزمخشري قائلًا: «فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع،

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) من بلاغة القرآن: ١٢٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض»^(١).

وقد يأتي التنكير فيفيد التحقير كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^(٢) فالتنكير في لفظ (نطفة) أفاد التحقير لهذا الإنسان الكفور الطاغوي الذي نسي أن خلقه كان من نطفة ضئيلة، ولولا قدرة الله القادر ما كان لها شأن يذكر، يقول د. أحمد بدوي: «وقد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس، كما في قوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^(٤) لكن ابن عاشور رفض أن يكون ذكر النكرة في هذا المقام للتحقير، فقال: «وليس في ذكر النطفة هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان؛ لأن قصد ذلك محل نظر، على إن المقام هنا للدلالة على خلق عظيم، وليس مقام زجر المتكبر»^(٥).

وقد تأتي النكرة للتكثير أو التعظيم كلفظ (رسل) في قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٦) فالمقام هنا مقام مواساة للرسول؛ للتخفيف عنه مما يلقي من تكذيب قومه له وإعراضهم عنه، فجاء التنكير ليوحي بكثرة الرسل الذين كذبهم قومهم، وليس هو الوحيد.

(١) الكشف: ٥٢٣/٢.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١٧-١٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٣.

(٤) من بلاغة القرآن: ١٣٠.

(٥) التحرير والتنوير: ١٢٣/٣٠.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٤.

يقول ابن يعقوب المغربي: «فنكير (رسل) هنا يناسب التكثير، أي: ذوو عدد كثير، فأفاد كثرة عدد الرسل ويناسب التعظيم أيضاً، أي: وذوو آيات عظام، فإنَّ عظم آية الرسالة ممَّا يدل على عظمة شأن الرسول في رسالته، فالأول ينظر إلى التكثير، والثاني ينظر إلى التعظيم، والغرض تسليية النبي ﷺ في عدم إيمان الكفرة وأمره بالتأسي عن قبله في عدم المبالاة بهم والأسف عليهم؛ لأنَّ المراد هذا الذي فعل معك من الإنكار وعدم التصديق شأن الكفرة مع الأنبياء، فتأس بهم بالعبد، حتى يأتي الفتح»^(١).

وقد استعمل التعبير القرآني اللفظ الواحد منكرًا في سياق ومعرفًا في سياق آخر مشابه للأول بحسب مقتضيات المقام وما يتطلبه من دلالات تنشأ عن تعريف اللفظ أو تنكيهه، ومن ذلك لفظ (النار) الذي نراه يأتي بصيغة التعريف في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢) ثم يأتي منكرًا في قوله تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٣).

ويرى ابن حيان اختلاف اللفظ في الآيتين راجع إلى أن آية التحريم نزلت بمكة قبل آية البقرة التي نزلت في المدينة، واللفظ إذا تكرر اكتسب التعريف^(٤)، وهو تعليل يغفل جانب السياق الذي ورد فيه كلا اللفظين، وإذا رجعنا إلى سياق الآية الأولى، وجدنا أن الخطاب فيها موجه للكافرين الذين

(١) مواهب الفتاح: ٣٥٢/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) البحر المحيط: ٢٤٩/١.

يشككون في القرآن ويجعلون لله شركاء، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾.

وهؤلاء الكافرون توعدهم الله بعذاب شديد يوم القيامة ونار يصلونها، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ﴾ (٢) فمعرفتهم للنار يومئذ ليست مجرد معرفة سماع أو رؤية، بل معرفة عن تجربة، عندما يلقون فيها، ومن هنا كان من المناسب تعريف النار في هذا المقام. وأمّا الآية الثانية فالخطاب فيها موجّه للمؤمنين الذين وعدهم الله بالجنة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَّآبٍ﴾ (٣).

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (٤) فمعرفتهم للنار لا تتعدى أن تكون معرفة سماع في الدنيا أو رؤية في الآخرة، فإن عصوا ربهم فعقابهم على ذلك العصيان لا يكون بقدر ما يعاقب به الكافرون، إذ لا يستوي من آمن وإن عصى ومن كفر، ومن هنا كان من المناسبة تنكير النار في ذلك الموضع لإبهامها وتقليلها (٥).

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٧.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٣٢.

ب- المذكر والمؤنث:

قد يحتمل السياق القرآني أن تستعمل فيه بعض الألفاظ على وجهين مختلفين من حيث التذكير والتأنيث، فيؤثر التعبير القرآني أحد الوجهين على الآخر؛ لاتفاقه مع دلالة السياق أو بنيته، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زَوْجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ﴾^(٢). فقال في الآية الأولى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ بضمير المؤنث. وقال في الآية الثانية: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ بضمير المذكر.

ولعل الاختلاف في الآيتين بين التذكير والتأنيث يرجع إلى أن القصد في الآية الأولى إبراز جعل مريم وابنها -عليهما السلام- آية للعالمين، فناسب أن يرجع الضمير إلى مريم بوصفها آية من آيات الله، وأمّا السياق في الآية الثانية فهو سياق يضرب فيه المثل بمريم التي آمنت برّبها محصنة فرجها ومصدّقة بكلمات ربّها وكتبه، فالقصد فيه ضرب المثل بإيمان مريم، فناسب ذلك أن يرجع الضمير إلى إحصان فرجها بوصفه صورة من صور الإيمان.

ونرى لفظ (القانتين) في الآية الكريمة يتحدث عنه الزمخشري قائلاً: «فإن قلت: لِمَ قيل: (من القانتين) على التذكير؟ قلت: لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه»^(٣).

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١٢.

(٣) الكشف: ٥٧٣/٤.

فهو بهذا التعليل يشير إلى جانب سياق الحال، كما يشير إلى جانب الاستعمال اللغوي.

أمّا ابن عاشور فيقول: «وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جرياً على طريقة التغليب، وهو من تخريج الكلام على مقتضى الظاهر، وهذه الآية مثال في علم المعاني، ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأنّ شأن ذلك أن يكون للرجال؛ لأنّ نساء بني إسرائيل كنّ معفيات من عبادات كثيرة»^(١).

ويأتي تذكير الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾^(٢) ثم يأتي الاسم مؤنثاً في مقام مشابه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾^(٣) قال ابن حيان بارزاً العلاقة بين كلا اللفظين وسياق الحال، إذ يقول بادئاً بآية سبأ: «وقيل هنا: ﴿الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ وفي السجدة ﴿الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ كلّ منهما، أي: من العذاب ومن النار؛ لأنّهم هنا لم يكونوا ملتبسين بالعذاب، بل ذلك أول ما رأوا النار، وأمّا الذي في السجدة، فهو ملابس والعذاب مترددون فيه؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فوصف لهم العذاب الذي هم مباشره، وهو

(١) التحرير والتنوير: ٣٧٩/٢٨.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٢.

العذاب المؤبد الذي أنكروه»^(١).

وقد يؤثر النظم القرآني في بعض الأحيان أن يغلب المذكر على المؤنث، في موضع تعين للثاني، لعل دلالية، يقتضيها المقام، في قوله تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَفْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢) فقال: مع الراكعين، وهي من الراكعات، فغلب المذكر على المؤنث، قال البقاعي: «ولم يقل: مع الراكعات، لأن الاقتداء بالرجال أفضل وأشرف وأكمل»^(٣).

وقال الزمخشري: «﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. بمعنى: ولتكن صلاتك مع المصلين أي: في الجماعة أو انظمي نفسك في جملة المصلين، وكوني معهم في عدادهم، ولا تكوني في عداد غيرهم»^(٤).

ج- المفرد والمثنى والجمع:

قد يتصل أفراد اللفظ أو جمعه في القرآن الكريم بدلالة السياق أو بنيته، فيأتي باللفظ الواحد على أكثر من شكل من حيث عدده في مواضع مختلفة تبعاً لما يقتضيه السياق ومثال ذلك: جمع لفظ (خطيئة) جمع تكسير في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥).

(١) البحر المحيط: ٢٧٤/٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٣.

(٣) نظم الدرر: ٨٠/٢.

(٤) الكشاف: ٤٣٠/١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

ثم جمع اللفظ نفسه جمع سلامة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِدُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

فقال في الآية الأولى: ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ وهو جمع يدل على الكثرة، وقال في الآية الثانية: ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ وهو جمع يدل على القلة، والدليل أنه إذا صغر جمع التكسير «وإن كان له واحد من لفظة فلا يخلو من أن يكون له جمع قلة أو لا يكون، فإن كان له جمع قلة ردّ إليه وصغر جمع القلة نحو فلوس نقول فيها أفليس؛ وما ليس له جمع قلة ردّ إلى واحده، وصغر الواحد وجمع بالألف والتاء إن كان لما لا يعقل»^(٢)، ومن ذلك لفظ دراهم الذي يصغر على (دُرِهَمَات)، فيرد إلى المفرد ثم يصغر، ويجمع جمع القلة الملائم للتصغير، وكذلك لفظ (خطايا)^(٣).

وقال الخطيب الإسكافي: «استعمل لفظ الكثير في الموضع الذي جعل الإخبار فيه عن نفسه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ وشرط لمن قام بهذه الطاعة ما يشترطه الكريم إذا وعد من مغفرة الخطايا كلها، وقرن إلى الإخبار عن نفسه جلّ ذكره، ما يليق بجوده وكرمه، وأتى باللفظ الموضوع للشمول فيصير كالتوكيد بالعموم، كما لو قال: نغفر لكم خطاياكم كلها أجمع، ولما لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه عزّ اسمه، وإّما قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦١.

(٢) ينظر: المناسبة في القرآن: ٢٠٨، وشرح الجمل: ٢/٢٩١.

(٣) شرح الجمل: ٢/٢٩٢.

لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴿ فَلَـمْ يَسْمَ الْفَاعِلْ، أَتَى بِلَفْظِ الْخَطِئَاتِ، وَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهَا الْكَثْرَةُ كَالْمَرَادِ بِالْخَطَايَا، إِلَّا أَنَّهُ أَتَى فِي الْأَوَّلِ لَمَّا ذَكَرَ الْفَاعِلَ بِمَا هُوَ لَائِقٌ بِضَمَانِهِ مِنَ اللَّفْظِ، وَلَمَّا لَمْ يُسَمَّ الْفَاعِلُ فِي الثَّانِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَضَعُ الْفَلْظِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ لِلْفَرْقِ بَيْنَ مَا يُوْتَى بِهِ عَلَى الْأَصْلِ وَبَيْنَ مَا يَعْدِلُ عَنْهُ إِلَى الْفَرْعِ»^(١).

د- الأسماء المشتقة: كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة:

استعمال التعبير القرآني اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٢) فقال ﴿الْمَغْضُوبِ﴾، ولم يقل: (غضبن)؛ ليتفق مع قوله: ﴿أَنْعَمْتَ﴾، وذلك لأنَّ السياق سياق دعاء من العباد إلى ربهم أن يهديهم صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي أنعم به على مَنْ اهتدى من عباده، فكان من المناسب أن يسند الإنعام إليه؛ لأنَّ المقام مقام دعاء ورجاء، ولم يكن ليناسب أن يُسند الغضب إليه؛ لأنَّ من يطلب الهداية لا يستحق غضب الله عليه بل إنعامه عليه بها.

وقال السمين الحلي: «وَأَتَى بِصَلَةِ أَلِ اسْمًا لِيَشْمَلَ سَائِرَ الْأَزْمَانِ وَجَاءَ بِهِ مَبِينًا لِلْمَعْقُولِ تَحْسِينًا لِلْفَلْظِ؛ لِأَنَّ مَنْ طَلَبَتْ مِنْهُ الْهُدَايَةُ وَنَسَبَ الْإِنْعَامَ إِلَيْهِ لَا يَنَاسِبُهُ نَسَبَةُ الْغَضَبِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَقَامٌ تَلَطَّفَ وَتَرَفَّقَ لَطْفُ الْإِحْسَانِ، فَلَا يَحْسُنُ مُوَاجَهَتُهُ بِصِفَةِ الْإِنْتِقَامِ»^(٣).

(١) درة التزيل: ٦٨.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦-٧.

(٣) الدر المصون: ٧٥/١-٧٦.

وقد استعمل التعبير القرآني صيغ المبالغة على أوجه متعددة، يأتي باللفظ الواحد على أكثر من صيغة في مواضع مختلفة أو يأتي بأكثر من صيغة لمعانٍ مختلفة في موضع واحد، نحو صيغتي (فَعَّال) و(فَعُول)، وتدل الأولى على تكرار حدوث الفعل لما في هذه الصيغة من تضييف.

قال المبرد: «تقول: رجل قَتَلَ، إذا كان يكثر القتل. فأما قاتل فيكون للقليل والكثير؛ لأنه الأصل وعلى هذا نقول: رجل ضَرَّاب وشتَّام»^(١).

وأما الثانية فتدل على حالة ثابتة أو مستقرة تحدث مرة بعد مرة دون انقطاع وهو ما يشير عليه المبرد بقوله: «تقول: هو ضروب زيداً، إذا كان يضربه مرة بعد مرة»^(٢).

وفرق أبو هلال بين الصيغتين قائلاً: «وإذا كان قوياً على الفعل مثل: (فَعُول) مثل (صَبُور) و(شَكُور)؛ وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل: (فَعَّال) مثل (عَلَّام) و(صَبَّار)»^(٣).

ويرى ابن جماعة أنَّ صيغة (فَعُول) تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه. أما صيغة (فَعَّال) لا تشعر بالدوام، كنوَّام وركَّاب وأكَّال^(٤).

وقال ابن يعيش: «إنَّما يعملونه فيما كان صنعة ومعالجة لتكثير الفعل؛ إذ صاحب الصنعة مداوم لصنعتة، فجعل له البناء الدال على التكثير، وهو فعال بتضييف العين؛ لأنَّ التضييف للتكثير، وما كان من هذا ذا شيء وليس

(١) المقتضب: ١١٢/٢.

(٢) المصدر السابق: ١١٣/٢.

(٣) الفروق اللغوية: ٣٦.

(٤) كشف المعاني: ٢٢٠.

بصنعة يعالجها أتوا بها على (فاعل)، وذلك لأنّ فاعلاً هو الأصل، وإنّما يعدل عنه إلى فعال للمبالغة، فإذا لم ترد المبالغة جيء به على الأصل»^(١).

وقد يتصل سياق التعريف بالموصلية بما يتصف به من صفة التقرير بطبيعة الغرض المسوق له الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣).

قال ابن يعقوب المغربي: «فالغرض المسوق له الكلام نزاهة يوسف وبعده عن مظنة الفحشاء، وما ذكر أشد تحقيقاً وتقريراً لتلك النزاهة ممّا لو قيل وراودته امرأة العزيز؛ لأنّه إذا امتنع مع كونه في بينها متمكناً في خلوة منها كان في غاية النزاهة، ونهاية في الطهارة باطناً وظاهراً عن الفحشاء وفيه تقرير المراودة التي هي المسند لما يفيد كونه في بيتها من فرط الألفة والاختلاط في خلوة، فيتمكن منها على أتم وجه، وقد أفاد تقريرها ووجودها بآتم وجه بما ذكر من الموصول وصلته، وفيه أيضاً تقرير المسند إليه ونفى احتمال التشابه والاشتراك اللذين يمكن حصولهما لو قيل مثلاً: امرأة العزيز أو زليخا»^(٣) فناسب بهذا أن يستعمل التعبير القرآني الاسم الموصول في هذا الموضع دون غيره؛ لاتفاقه ومقتضى الحال.

(١) شرح المفصل: ١٣/٦.

(٢) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٣) مواهب الفتاح: ٣٠٥/١.

٢- أسماء الاشتقاق لها:

هناك من الأسماء التي لا تتصف بصفة الاشتقاق ما يستعمله الأسلوب القرآني فمن ذلك ما يلي:

١- الموصولات:

قال ابن يعيش: «معنى الموصول أن لا يتم بنفسه ويفتقر إلى كلام بعده تصله به ليتم اسماً. فإذا تم بها بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة»^(١). وقد تستعمل الأسماء الموصولة للدلالة على ما هو مبهم وغير محدد، إذ هي -على حد قول ابن يعيش- «ضرب من المبهمات وإنما كانت مبهمة لوقوعها على كل شيء من حيوان وجماد وغيرهما كوقوع هذا وهؤلاء ونحوهما من أسماء الإشارة على كل شيء»^(٢).

وقد يتصل سياق التعريف بالموصولية بما يتصف به من صفة التقرير بطبيعة الغرض المسوق له الكلام نحو قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْآبُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٤). ومما ورد في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾^(٥).

(١) شرح المفصل: ١٣٨/٣.

(٢) المصدر السابق: ١٣٩/٣.

(٣) سورة يوسف، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٤) سورة طه، الآية: ٧٨.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَهْوَىٰ ۖ فَغَشَّيْنَاهَا مَا غَشَّى﴾^(١). فأبهم في الآيتين ما غشيهم، ولم يصرح به.

قال العلوي تعقيباً على الآية الثانية: «فهذه أبلغ من الآية التي قبلها؛ لأنَّ إبهامها أكثر، فلهذا كان أبلغ وأوقع، ولهذا قال في الأولى: ﴿فَغَشَّيْنَاهُم مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشَّيْنَاهُمْ﴾ واليَم هو البحر، فصار الذي أصابهم من الألم والتعب إنَّما هو من البحر خاصة لا من غيره، بخلاف الثانية، فإنَّه أبهم فيها الأمر الذي غشيها، ولم يخصه بجهة دون جهة وهذا لا محالة يكون أبلغ؛ لأنَّ الإنسان يرمى به خاطره فيه بكل مرمى، ويذهب به كلَّ مذهب»^(٢).

لقد عرَّفها الأزهرى بأنها: «كلَّ اسم دال على مسمى وإشارة إليه»^(٣) وكلَّ واحد من هذه الأسماء يدل على قرب المسافة أو بعدها^(٤). بحسب بنيته، والمعنى الوظيفي لها هو الدلالة على عموم الخطاب بالإشارة.

ويتنوع الأسلوب القرآني في استعمال هذه الألفاظ، على وفق المقامات المختلفة، فإن كان المقام يدل على قرب المشار إليه، جيء باللفظ الدال على القرب، مذكراً كان أو مؤنثاً، مجموعاً أو مثنى أو مفرداً^(٥).

٢- أسماء الإشارة:

قال ابن يعيش: «لو قلت ذلك، فذا إشارة إلى القريب بتجردها من قرينة تدل على البعد فكانت على بابها من إفادة قرب المشار إليه لأنَّ حقيقة

(١) سورة النجم، الآية: ٥٣-٥٤.

(٢) الطراز: ٢٤١، وينظر: الآيات المبهمة في القرآن دراسة بلاغية: ٢١.

(٣) شرح التصريح: ١٢٦/١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٥٣.

الإشارة الإيعاز إلى حاضر فإذا أرادوا الإشارة إلى متبحر زاءوا كاف الخطاب وجعلوه علامة لتباعا المشار إليه فقالوا ذاك»^(١).

ونرى استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(٢) فقال عَجَّلَ: ﴿تِلْكَ﴾، وهو لفظ يوحى (هذه) الخالي من هذا التعظيم، لأنَّ السياق في هذا الموضوع يتحدث عن الجنة التي يورثها الله من عباده من كان تقياً، والتقوى - كما يذكر أبو حيان - لا تكون إلا في أمر فيه مشقة^(٣). فالجنة لا تنال إلا بالشاق من العمل من صبر على المكروه وإخلاص في العبادة لهذا قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٤) فلم يقل (اصبر) بل قال: (اصطبر) بالمبالغة في اللفظ لما في العبادة من مشقة ومن ثم كان مجيء اسم الإشارة الدال على التعظيم في هذا الموضوع؛ ليتفق في دلالة مع عظم الجنة وأنها بعيدة المنال إلا على من أخذ نفسه بالشدة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(٥) يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ فقال عَجَّلَ: ﴿هَذِهِ﴾ للدلالة على إنها قريبة منهم.

قال ابن كثير: «أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً»^(٦)

(١) شرح المفصل: ١٣٥/٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٣.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٦١/٢.

(٤) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الرحمن، الآيتين: ٤٣-٤٤.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٢٧٥/٤.

وأيضاً قال ﷻ: ﴿هَذِهِ﴾، ولم يقل: (تلك)؛ لأنَّ المشهد يصور هؤلاء المجرمين الذين كذبوا بآيات الله، وهم يساقون إلى جهنم التي كذبوا بها، فهي حينئذٍ، إذ يعرضون عليها، ويرونها تكون أمامهم قريبة منهم، قال البقاعي: «(هذه) أي: الحفرة العظيمة الكريهة المنظر القريبة منكم الملازمة للقرب لكم (جهنم التي يكذب) أي: ماضياً وحالاً ومآلاً»^(١).

فلما كانت قريبة منهم، جاء التعبير القرآني باللفظ الدال على القرب (هذه) ليكون موافقاً لحال هؤلاء القوم من قربهم لجهنم ومشاهدتهم لها بأعينهم، قبل أن يذوقوا بأسها. وقد يخرج الأسلوب القرآني لهذه الألفاظ عن ظاهر معنى القرب إلى الدلالة على تحقير المشار إليه أو الاستهزاء به^(٢) كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٣). قال الزمخشري: «وهذا استصغار و﴿بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء ولو لم يستهزؤوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا»^(٤).

وجاء استعمال اسم الإشارة الدال على البعد، لغرض التعظيم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٥).

(١) نظم الدرر: ٣٩١/٧.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤١.

(٤) الكشف: ٢٨/٣.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٣.

فأشار ﷺ إلى الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله، فلا يرفعونها باسم الإشارة الدال على البعد، بما يحتويه من كان الخطاب (أولئك) ولم يقل (هؤلاء) الخالي من هذه الدلالة؛ ليدل على عظم مكانة هؤلاء القوم عند الله تعالى وعلوّ شأنهم، إذ يتأدّبون بآداب الإسلام، مخاطبتهم لرسول الله، فيعرفون فضله، ويعطونه حقه من التبجيل والاحترام^(١).

قال الزمخشري: «وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لأن المؤكدة، وتصير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً والمبتدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهماً امره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقرؤا رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء»^(٢).

٣- الظروف:

يعرّفه ابن يعيش بأنه: «ما كان وعاءاً لشيء، وتسمى الأواني ظروفًا؛ لأنّها أوعية لما يجعل منها، وقيل للأزمة والأمكنة ظروف؛ لأنّ الأفعال توجد فيها، فصارت كالأوعية لها، والظرف على ضربين ظرف زمان ومكان»^(٣).

ونرى استعمال الظرف الدال على المصاحبة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ ٢٨ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ٢٩ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ٣٠

(١) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٥٥-١٥٦.

(٢) الكشف: ٣٥٦/٤.

(٣) شرح المفصل: ٤١/٢.

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعُنِي مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿١﴾.

فقال تعالى: ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، ولو قال: (من الساجدين)؛ لدل ذلك على إنَّ إبليس من الملائكة؛ إذ الأمر بالسجود موجه إليهم، وهو ليس كذلك قال ابن الزبير: «فأشرت الآية بظاها إلى أن إبليس من الملائكة، وقد نطقت الآية أنَّ الملائكة هم المأمورون بالسجود، فبحسب هذا البادي من الظاهر وردت المعية في قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ فلما لم يكن في أصل الخلقة والمادة منهم، وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وأن كان مراداً أنه معهم، فبحسب هذا قيل له: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، فقيل: (معهم) إذ ليس منهم قال: فقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^{(٢)(٣)}.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤) فاختلف الظرفان في الجملتين، فجاء مع الإضاءة بـ(كلما) ومع الإظلام بـ(إذا) وفي محاولة لإبراز وجه المناسبة بين كلا الطرفين، كل في موضعه وسياق الحال.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل مع الإضاءة: كلما، ومع الإظلام: إذا؟ قلت: لأنهم حراس على وجود ما همهم به معقود من إمكان

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٢-٢٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) ملاك التأويل: ٤٨٨/١-٤٨٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

المشي وتأتيه، فكلّما صادفوا منه فرصة، انتهزوها، وليس كذلك التوقف والتحبس»^(١) واعترض الزركشي على ما ذكره الزمخشري، واصفاً إياه بالتكلف^(٢)، ورأى في سبيل إبرازه لوجه هذه المناسبة «أنّ مراتب الإضاءة مختلفة متنوعة، فذكر (كلّما) تنبيهاً على ظهور التعدد وقوته؛ لوجوده بالصورة والنوعية، والإظلام نوع واحد، فلم يؤت بصيغة التكرار لضعف التعدد فيه، بعدم ظهوره بالنوعية، وإن حصل بالصورة»^(٣).

المعنى الوظيفي لموقع الاسم [المعنى النحوي]:

إنّ لموقع اللفظ داخل التركيب الدور نفسه في تحديد تلك العلاقة، إذ قد يُبرز إبرازاً واضحاً في مواضع عديدة مدى المناسبة والعلاقة الدلالية بين اللفظ والسياق الوارد فيه، وفيما يلي صور لتلك العلاقة.

١ - المسند إليه:

يمثل المسند إليه أحد ركني الإسناد في الجملة، سواء أكانت اسمية أم فعلية، ويمثل المسند الركن الثاني، وتربطهما علاقة هي علاقة الإسناد، ويفتقر كلّ منهما إلى الآخر، إذ يجب وجودهما لتحقيق الفائدة عند الإخبار بجملة ما^(٤).

والمسند إليه هو الركن الأعظم قال ابن يعقوب المغربي: «لأنّه عبارة عن الذات، والمسند كالوصف له، والذات أقوى في الثبوت من الوصف، فالمسند إليه والمسند، ولو افتقر في الإفادة إلى كلّ منهما لكن الدالّ منهما على الذات

(١) الكشف: ٨٦/١.

(٢) البرهان: ٢٠٥/٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٥/٤.

(٤) مفتاح العلوم: ١٧٠.

أشد في الحاجة عند قصد الإفادة من الدال على الوصف»^(١).

قال سيبويه: «وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدءاً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك: وهذا أخوك، ومثل ذلك: يذهب عبد الله، فلا بد للفعل من الاسم ما لم يكن للاسم الأول بدءاً من الآخر في الابتداء»^(٢).

وقد يتقدم المسند إليه على المسند إذا كان فعلاً، فيقع مبتدأه وقد يتأخر فيقع فاعلاً أو نائباً عن الفعل، وتتغير دلالة التركيب بتغير ذلك الموقع. وفيما يلي بيان ذلك:

أ - موقع المسند إليه من حيث التقديم والتأخير:

قد يقدم المسند إليه في الجملة، لأسباب عديدة، منها أن يكون «ذكره أهم إما لأنه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه. وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه»^(٣).

وقال الإمام عبد القاهر الجرجاني: «فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل، أكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: (هما يلبسان المجد)، أبلغ في جعلهما بلسانه من أن يقال: (يلبسان المجد)؟ فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلاّ لحديث قد نوى إسناده إليه. وإذا كان كذلك، فإذا قلت: (عبد الله)، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: (قام) أو قلت:

(١) مواهب الفتاح: ٢٧٤/١.

(٢) الكتاب: ٢٣/١.

(٣) الإيضاح: ٨٤.

(خرج)، أو قلت: (قدم) فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوتها، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق»^(١).

ونلاحظ تقديم المسند إليه تارة ثم تأخيرها تارة أخرى في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٣٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٣٨﴾.

فجاء الأسلوب القرآني بالمسند إليه مؤخراً في الآيتين الأولى والثالثة أي: في موضع الفاعل، وعدل عن ذلك في الثانية، فجاء به مقدماً أو في موضع المبتدأ «إذاً بحثنا عن السبب وجدنا تقديم لفظ الجلالة في مورده الثاني، وإنما كان لوضعه موضع المقارنة مع الذين يتبعون الشهوات، أمّا في المرة الأولى والثالثة فالاهتمام معلق بالإرادة لا بالمقارنة»^(٣).

ب- اختلاف طبيعة المسند إليه أو مدلوله:

يقصد به أنه قد يسند أكثر من فعل في سياق ما لمسند إليه معين، ثم يعدل الأسلوب القرآني في أحد الأفعال، فيسندّه إلى فاعل آخر، أو يأتي فعل ذو دلالة معينة، فيسند إلى أكثر من مسند إليه في سياقات متعددة تبعاً لمقتضيات كل سياق.

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٢٦-٢٨.

(٣) البيان: ٣٧٩.

وقد يأتي إسناد الفعل الدال على التوخي في القرآن؛ مسنداً لأكثر من مسند إليه في سياقات متعددة، وقد يكون لمعناه المعجمي دور في ذلك، إذ يأتي - كما يقول ابن الجوزي - على ثلاثة وجوه:

أحدها: قبض الأرواح بالموت كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿تَوْفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾^(٤).

والثانية: قبض الحس بالنوم كما في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٦).

والثالثة: الرفع إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾^(٧). فإذا تأملنا هذه الأوجه في القرآن الكريم نجد إنه إذا جاء الفعل بمعنى (النوم) أسند إلى الله ﷻ، كما في الأنعام والزمر، ويلحق بهذا المعنى - على خلاف بين العلماء - قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾^(٨) كذلك يسند إلى الله إن كان بمعنى الرفع كما في آية المائدة السابقة.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٨.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٧.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٧) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

أَمَّا إِذَا جَاءَ بِمَعْنَى الْمَوْتِ فَالْإِسْنَادُ فِيهِ عَلَى وَجْهَيْنِ: إِمَّا إِلَى اللَّهِ، وَإِمَّا إِلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ إِلَى اللَّهِ فَيَأْتِي عَلَى صَوْرَتَيْنِ: الْأُولَى أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ مُوجَّهًا مِنْهُ **وَعَلَيْكَ** إِلَى أَحَدِ أَنْبِيَائِهِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾^(١).

وَالصُّورَةُ الثَّانِيَةُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ مُوجَّهًا مِنْ نَبِيٍّ أَوْ مِنْ صَاحِبٍ مِنَ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ **وَعَلَيْكَ** كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَوَقَّأَ مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٢).

وَلَعَلَّ هَذَا الْإِسْنَادَ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْخُطَابَ مُوجَّهٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ أَوْ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ قَوْمٌ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، وَلِقَاءُ اللَّهِ عَنْدهُمْ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَإِسْنَادُ التَّوْفِي إِلَى اللَّهِ لَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ كَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِ غَيْرِهِمْ مِنْ دُونِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى^(٣).

وَعِنْدَمَا يَسْنَدُ الْفِعْلَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَنَرَى الْمُسْنَدَ إِلَيْهِ يَتَعَدَّدُ، فَقَدْ يَسْنَدُ إِلَى الْمَفْعُولِ بَعْدَ حَذْفِ الْفَاعِلِ، وَيَأْتِي ذَلِكَ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي

(١) سورة يونس، الآية: ٤٦؛ والرعد: ٤٠؛ وغافر: ٧٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣؛ والأعراف: ١٢٦؛ ويونس: ١٠٤؛ ويوسف: ١٠١.

(٣) ينظر: المناسبة: ٢٠٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

ولعل العدول هنا من الإسناد من الفاعل إلى المفعول يرجع إلى أن الآيتين الأولتين سبقتا لتشريع العدة لمن يتوفى عنها زوجها وتحديد وقتها، والموجه إليها الحدين هنا قد يكون في حالة من الحزن الشديد لفقد زوجها، فجاء الأسلوب القرآني مراعيًا تلك الحالة، فعدل عن الإسناد عن الفاعل الحقيقي إلى غيره؛ أي: لا يرتبط التوفي عند تلك المرأة وهي في هذه الحالة بالله حتى يتم لها الخروج من هذا الحزن.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٧.

أَمَّا الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ فَسَيِّقَتْ لِلْحَدِيثِ عَنِ الْبَعْثِ، فَكَمَا خَلَقَ النَّاسَ مِنْ عَدَمٍ؛
بَادِئًا خَلَقَهُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ، ثُمَّ يَتَدَرَجُ نُمُوَّهُمْ وَتَطْوِيرُهُمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجُوا
إِلَى الْحَيَاةِ، وَيَبْلُغُوا فِيهَا أَشَدَّهُمْ، فَكَانَ الْحَدِيثُ كُلُّهُ عَنِ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَمَاتِ لَا
عَنِ الْمَوْتِ نَفْسِهِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنَاسِبِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُسْنَدَ التَّوْفِي إِلَى
اللَّهِ، وَمِنْ ثَمَّ عَدَّ الْأَسْلُوبُ الْقُرْآنَ هُنَا إِلَى الْإِسْنَادِ لِغَيْرِ الْفَاعِلِ.

أَمَّا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ فَسَيِّقَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَجَلِهِ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ مِنْ
الْعَدَمِ ثُمَّ تَطَوُّرِ خَلْقِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا أَطْفَالًا ثُمَّ شَبَوْنَهُمْ، فَالْحَدِيثُ هُنَا أَيْضًا عَنِ
الْإِحْيَاءِ لَا عَنِ الْمَوْتِ.

ثُمَّ يَأْتِي وَعَجَلُكَ بِأَحَدِي صِفَاتِهِ وَهِيَ الْحَيُّ دُونَ غَيْرِهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِفَةِ
الْحَيَاةِ الَّتِي وَهَبَهَا لِلْإِنْسَانِ ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١). فَنَاسَبَ مَعَ هَذَا
كُلُّهُ أَنْ يُعَدَلَ الْأَسْلُوبُ الْقُرْآنِيُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَنِ إِسْنَادِ التَّوْفِي إِلَى اللَّهِ؛
لِإِبْرَازِ أَمْرِ الْحَيَاةِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ^(٢).

وَقَدْ سَنَدَ فِعْلَ التَّوْفِي إِلَى الْمَوْتِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ
الْفَنَاحَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(٣).

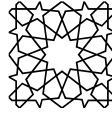
قَالَ الْأَلُوسِيُّ: «وإِسْنَادُهُ إِلَى الْمَوْتِ بِاعْتِبَارِ تَشْبِيهِهِ بِشَخْصٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ،
فَهُنَاكَ اسْتِعَارَةٌ بِالْكُنَايَةِ، وَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، وَالْمَعْنَى حَتَّى يَقْبُضَ
أَرْوَاحَهُنَّ الْمَوْتُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ مِنَ التَّوْفِي مَعْنَاهُ الْمَشْهُورُ، إِذْ يُصِيرُ الْكَلَامَ

(١) سُورَةُ الْغَافِرِ، الْآيَةُ: ٦٥.

(٢) يُنْظَرُ: الْمُنَاسِبَةُ: ٢١٠-٢١١.

(٣) سُورَةُ النِّسَاءِ، الْآيَةُ: ١٥.

بمثلة حتى يميتهن ولا معنى له إلا أن يقدر مضاف يسند إليه الفعل أي: ملائكة الموت، أو يجعل الإسناد مجازاً من إسناد ما للفاعل الحقيقي إلى أثر فعله»^(١).
 وجعل الإسناد بهذه الآية من قبيل الإسناد المجازي أو تقدير مضاف يسند إليه الفعل هو أمر يوضح المفارقة المعجمية بين الفعل وما أسند إليه، ولكنه لا يكشف عن السر وراء هذا الإسناد، وإذا تأملنا السياق النفسي للآية اتضح لنا هذا السر، إذ سبقت الآية لتشريع حد لللاقي يأتين بفاحشة، وهو الحبس في البيوت حتى يقضى أجلهن ويجعل الله لهن مخرجاً، وذلك قبل أن تنسخ هذه الآية بالآية التي تليها، ثم نسخ ذلك بآية سورة النور وحديث الرجم في الثيب»^(٢)، ومن يُقضى عليها بهذا الحكم ويتم تطبيقه، فتظل في بيتها لا تخرج منه فإن الموت يصبح أملها وغايتها المنشودة في هذه الحياة؛ لتسترد به حريتها المسلوبة، ومن ثم كان من المناسب أشد المناسبة أن يسند الفعل إليه لا إلى غيره^(٣).



(١) روح المعاني: ٣٦٦/٤-٣٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣١٤/٣.

(٣) ينظر: المناسبة: ٢١٦-٢١٧.

المبحث الثاني

المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي

تتعلق مناسبة الأفعال بمبانيها أو صيغها فحسب؛ لأنّ الأفعال ليس لها مواقع وظيفية.

وتنقسم الصيغ الخاصة بالأفعال على قسمين: أحدهما يتعلق بصيغة الفعل من حيث دلالتها على الزمن، والثاني يتعلق بصيغته من حيث الوزن، وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول: صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن

يقسم النحاة الأفعال من حيث دلالتها على الزمن إلى ماضٍ ومستقبل وحال^(١). ويقول ابن يعيش: إنّ الفعل هو: «كلّ كلمة تدل على معنى في نفسها مقترنة بزمان»^(٢).

وقال ابن عصفور: «تنقسم بانقسام الزمان إلى ماضي ومستقبل وحال»^(٣). وقال سيبويه: «وأما الفعل فأمثله أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع. فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحُمد. وأما بناء ما لم يقع فإنّه قولك أمراً: اذهب واقتل واضرب، ومخبراً: (يقتل) ويذهب ويضرب ويقتل ويضرب. وكذلك بناء ما لم ينقطع، وهو كائن إذا أخرت، فهذه الأمثلة التي

(١) ينظر: شرح جمل الزجاجي: ١٢٧/١.

(٢) شرح المفصل: ٢/٧.

(٣) شرح الجمل: ١٢٧/١.

أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة»^(١).

ولهذا نجد إنّ الماضي والمستقبل لا خلاف فيهما، كما أنّه لا خلاف في زمنهما، فأما الحال ففيه خلاف بين النحويين، فمنهم من أنكره ومنهم من أثبتّه، أمّا من أنكر زمانه، فحجّته أنّه. إمّا قد وقع، وإمّا لم يقع، فإن كان الأول فهو ماضٍ وإن كان الثاني فهو مستقبل، ولا ثالث لهما، ورد ابن عصفور على ذلك بأنّ زمن الحال لقصره يتعذر الإخبار عنه؛ لأنّه الزمن المتوهم الفاصل بين الماضي والمستقبل^(٢).

وينظر هذا التقسيم إلى بنية الفعل وما تدل عليه من زمن صرفي، قد يختلف عن الزمن النحوي، فبنية الماضي تدل على ما مضى من الزمان، وبنية المضارع تدل على الحال أو المستقبل، ولا يتحدد أحدهما إلّا بقريّة السياق.

قال د. تمام حسان: «ومعنى إتيان الزمن على المستوى الصرفي من شكل الصيغة أنّ للزمن هنا وظيفة الصيغة المفردة، ومعنى أنّ الزمن يأتي على المستوى النحوي من مجرى السياق أنّ الزمن في النحو وظيفة السياق وليس وظيفة صيغة الفعل، لأنّ الفعل الذي على صيغة فعل قد يدل في السياق على المستقبل، والذي على صيغة المضارع قد يدل فيه على الماضي. فقول النحاة: (والزمن جزء منه) قول مقبول على مستوى الصرف فقط»^(٣).

ويرى البلاغيون أنّ هذا الزمن في جميع صورته يدل على التجدد، مع اختلاف معناه باختلاف بنية الفعل. قال بهاء الدين السبكي: «الفعل يدل

(١) الكتاب: ١٢/١.

(٢) شرح الجمل: ١٢٧/١.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ١٠٤.

على التجدد ماضياً كان أم مضارعاً أم أمراً، غير إنّ التجدد الذي يدل عليه الماضي المراد به الحصول، والمضارع يدل على التجدد، بمعنى أنّ من شأنه أنّه يتكرر ويقع مرة بعد مرة أخرى»^(١).

ولما كان المضارع يدل على الاستمرار لهذا قال السبكي: «واعلم أنّه يستثنى من قولنا المضارع دال على الاستمرار ما إذا أريد به زمن الحال خاصة، فإنّ الاستمرار مع إرادة زمن الحال فقط لا يجتمعان إلّا أن يقال: يدل على وقوع الحدث في الحال، وأّنه يستمر في المستقبل»^(٢).

وقال العلوي: «الفعل المستقبل يوضح الحال، ويستحضر تلك الصورة حتى كأنّ الإنسان يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف؛ لأنّه لا يعطى هذا المعنى، ولا يدل عليه»^(٣).

ويوضح ابن يعقوب المغربي صيغة المضارع بقوله: «يدل على الحال المشاهد، فقد يستعمل للإشعار بالحضور الذي هو الأصل، وللتنبية بالعبارة على الشهود، فكأنه يقال عند التعبير به: اشهدوا هذا الأمر الذي نحضره، بالتعبير بما يدل على الحضور وإّتما يفعل ذلك في الأمر الغريب أو الفضيع أو نحو ذلك كاللطيف والعجيب»^(٤).

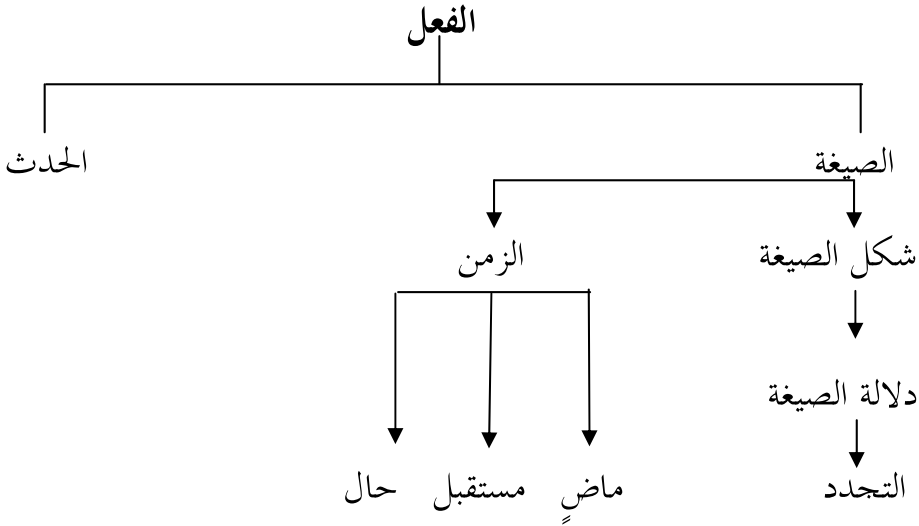
هنا الملحظ الدلالي للفعل يضيف إلى سماته عنصراً جديداً على النحو الآتي:

(١) عروس الأفراح: ٢٨/٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٩/٢.

(٣) الطراز: ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) مواهب الفتاح: ٨٨/٢-٨٩.



وتبعاً لهذا المفهوم يمكن أن ننظر إلى السمات الصرفية لكل من الفعل والاسم في اللغة العربية على النحو الآتي:

الفعل = حدث + زمن + تحدد

الاسم: مسمى + حدث + زمن + تحدد

وعمقتضى هذه الدلالة يمكن أن نتبين علاقة المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي الذي ترد فيه.

ومنها استعمال صيغة المضارع كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)، فجاء التعبير القرآني بلفظ (تكفرون) على صيغة المضارع دون الماضي، فلم يقل: (كيف كفرتم) ليتفق مع سائر الأفعال في الآية^(٢).

وقد يؤثر التعبير القرآني استعمال بعض هذه المباني في مواضع معينة، على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٢٧٥/١.

وفق ما يقتضيه المقام، فيأتي بصيغة الماضي في مواضع، وصيغة المضارع في مواضع أخرى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، فأتى بالمضارع في هذا الموضع، ثم عدل عنه إلى الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣).

ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أن السياق في الآية الأولى يدل على زمن الاستقبال في بعض جوانبه، وهو ما نراه في أسلوب الشرط كما في قوله تعالى: ﴿وإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ثم يدل في جانب آخر على زمن الحال، وهو ما يتكشف عنه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٤).

فناسب هنا الأسلوب القرآني صيغة المضارع الدالة على الحال أو الاستقبال.

قال ابن جماعة: «ولما تقدّم هنا ﴿وإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وتأخر ﴿وإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَايِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾^(٥) ناسب من يضل عن سبيله»^(٦) يقصد هنا أن

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٠.

(٣) سورة القلم، الآية: ٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٩.

(٦) كشف المعاني: ١٦٦.

ما تقدّم على الفعل وما تأخر عنه يدل زمنه على المستقبل والحال^(١). وكذلك قوله تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

فجاءت الجملة الأولى في هذه الآية مصدرة بالفعل الماضي (زين) وجاءت الثانية مُصدّرة بالمضارع (يسخرون) في تنويع بديع بين الصيغ، وعلة ذلك أنّ تزين الدنيا في عين الكافرين، بل في عين أغلب الناس أمر واقع، لا يتغير، فطرت عليه طبائعهم ونفوسهم، كما قال: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ﴾^(٣) فجاءت صيغة الماضي بما توحى به من التحقق موافقة لسياق الحال.

أمّا مجيء المضارع في الثانية فلأنّ السخرية أمر يختلف من وقت لآخر، ليست النفوس مفتورة عليه، يتجدد بتجدد الموقف الذي يقتضيه، وكان الكفرة - كما يذكر الزمخشري -: «يسخرون من المؤمنين الذين لاحظّ لهم من الدنيا كابن مسعود وعمار وصهيب وغيرهم، أي: لا يريدون غيرها. وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها أو ممن يطلب غيرها»^(٤). لذا كانت صيغة المضارع هي المناسبة لهذا المعنى، وهذا ما استشرفه أبو حيان بنظراته البلاغية الواعية، إذ يقول: «وصدرت الأولى بالفعل الماضي؛ لأنّه أمر مفروغ منه،

(١) ينظر: المناسبة: ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

(٤) الكشف: ٢٥٥/١.

وهو تركيب طباعهم على محبة الدنيا فليس أمراً متجدداً، وصدرت الثانية بالمضارع؛ لأنها حالة تتجدد كل وقت»^(١).

وكذلك ترى التنويع بين الصيغ يأتي كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَاطِلُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢) فعبّر عن (الكفر) بصيغة الماضي، وعن (الصد) بصيغة المضارع، يقول الزركشي: «الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضي؛ ليفيد ذلك مع كونه نافياً أنه قد مضى عليه زمان، ولا كذلك الصد عن سبيل الله، فإن حكم إنما يثبت حال حصوله، مع إنَّ في الفعل المستقبل إشعاراً بالتكثير، فيشعر قوله: «ويصدون» أنه في كل وقت بصد ذلك، ولو قال: «وصدوا» لأشعر بانقطاع صدهم»^(٣).

وكذلك ترى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۖ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً ۖ قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكْرَهَ خَاسِرَةٌ ۖ﴾^(٤).

آثر الأسلوب القرآني استعمال بنية المضارع (يقولون) ثم تركه إلى بنية الماضي (قالوا) وتندبر هذا الانتقال بينهما، بما توحى كل منهما من دلالات.

(١) البحر المحيط: ١٣٩/٢.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٣) البرهان: ٣٣٦-٣٣٧/٣.

(٤) سورة النازعات، الآيات: ١٢-٦.

تقول د. عائشة بنت الشاطي: يهدي إلى بيان وجه المقول وتحديد الجو الذي قيلت فيه كلّ منهما، والدلالة على الحالة النفسية للقائلين في كلّ من الموقفين، إذ باغتتهم رجفة القيامة بما تبعها من هذه وخشوع، فهم يقولون في دهشة المأخوذ وحيرة من فوجئ بما لم يكن في حسابه قط: ﴿أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَءَ ذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخْرَةً﴾ ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى أجانبتهم عمّا سألوا عنه، وقد قضى الأمر وصار كلّ هذا الذي كذبوا به واقعاً مشهوداً، فلما عاينوا اليقين ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ في حسرة وندم، وفي كلمة (قالوا) من سبر البيان، أنها تأتي حيث يبدو في ظاهر الأمر إمكان الاستغناء عنها بـ: يقولون: أننا لمردودون في الحافرة؟ أئذا كنا عظاماً نخرة؟ ولهذا فإنّ المضارعة هنا هي الشيء تلاءم حيرة المأخوذ وعجب المستغرب، كما أنّ المضي في قوله: (قالوا) بعد أن أتاها اليقين هو الملائم لحالة اليأس من استرجاع ما فات أو استدراك ما مضى والتيقن من الخسران المحقق والمصير المحتوم^(١).

وكذلك استعمال المضارع دون الاسم المشتق ما نراه في لفظ (ينفقون) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

ولم يقل المتقين في غير موضع من القرآن، وعلة ذلك - قال الزركشي: إنّ «حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد، بخلاف الإيمان فإنّ له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها، وإن غفل عنها، وكذلك التقوى

(١) ينظر: التفسير البياني: ١/١٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

والإسلام، والصبر والشكر، والهدى والضلال، فمعناها، أو معنى وصف الجارحة، كلّ هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر، وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين، إلا أنّ لكلّ محل ما يليق به، فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال، وحيث يراد ثبوت الاتصاف بها فالأسماء»^(١).

المطلب الثاني: صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة

إنّ كلّ لفظ يختلف معناه باختلاف ما يطرأ عليه من زيادة، فزيادة المبني لا بد أن يصحبها زيادة في المعنى، وكذلك يختلف ورود الأفعال في القرآن الكريم باختلاف صيغها من حيث التجرد والزيادة تبعاً لمقتضيات السياق. ويختلف أيضاً مدلول بنية الفعل باختلاف ما يطرأ عليها من مورفيمات زائدة، فصيغة (فعل) مثلاً تختلف عن صيغة (أفعل) في معناها، وهما يختلفان وصيغة (فعل) لها دلالة تختلف عن (أفعل) أو (فعل) أو (فاعِل). كما أنّ المعنى نفسه يختلف باختلاف الحرف الزائدة؛ إذ كلّ حرف له دلالة الخاصة به، وإن اتفقت الصيغ في الأصل، فكلّ صيغة تختلف معناها بقدر ما يضاف إلى البنية من زيادة أو ما يطرأ عليها من تغير. ونجد إنّ النظم القرآني الحكيم بأسلوبه المتفرد يختار لكلّ بنية من هذه المباني المختلفة في المقام الذي يليق بها، ويقتضي معناها الدقيق، فعندما يأتي بصيغة مثل (فعل) المجردة في موضع، ثم يأتي بصيغة (أفعل) الدالة على المعنى نفسه في موضع آخر، لاشك أن يكون لعلّة ما^(٢).

ومن تلك الأوزان المزيّدة التي يكثر ورودها في القرآن وزناً (فعل) و(أفعل)، إذ يأتي عليها في مواضع متشابهة بعض الأفعال ذات الأصل الواحد

(١) البرهان: ٦٧/٤.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ١٧٠؛ المناسبة في القرآن: ٢٤٩.

أو المعنى المشترك، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(١)، فقال هنا: ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾، ثم عدل الأسلوب القرآني عنه إلى الثاني عند الحديث عن الموقف نفسه في موضع آخر، فقال ﴿وَنَجَّيْنَاكُمْ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٢) ويرجع ذلك إلى أنَّ التضعيف في صيغة (فعل) يدل في الغالب على الكثرة.

قال الرضي: «الأغلب في فعل أن يكون لتكثير فاعله أصل الفعل، لما أن الأكثر في أفعال النقل، تقول: ذبّحتُ الشاة، ولا تقول ذبّحتها، وأغلقت الباب مرة، ولا تقول: غلّقت، لعدم تصور معنى التكثير في مثله. بل نقول: ذبّحت الغنم، وغلّقت الأبواب، وقولك: جرّحته: إني أكثرت جراحاته»^(٣).

قال ابن الزبير: «فذكر نجاتهم من آل فرعون وفرق البحر بهم ونجّاهم وهلاك عدوهم بالغرق، ثم ذكر عفوهم عنهم في عبادة العمل وتوبته عليهم، وبعثهم من موتهم عند طلبهم الرؤية، وتظليلهم بالغمام، إلى ما ذكر تعالى بعد هذا، فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لإثباته بالكثرة، ولو قيل هنا وإذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٦.

(٣) شرح شافية ابن الحاجب: ٩٢/١.

ولا ناسب المقصود ممّا ذكر»^(١).

ونجد السياق في الآية الثانية لم يكن الخطاب فيه من الله مثلما كان في الآية الأولى، بل كان من موسى، وتعداده لنعم الله ليس كتعداد الله نفسه، إذ قد يخفى عليه بعضها، كذلك فإنّ السياق هنا لم يكن فيه من النعم ما عدده الله في سورة البقرة، بل كان فيه ذكر للنعم بجانب النعم، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في أمره لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ﴾^(٢)، وأيامه هنا - كما يفسرها أبو حيان نقلاً عن ابن عباس - نعمه ونقمه^(٣) لذلك كان من المناسب أن يأتي الأسلوب القرآني هنا بالصيغة التي تخلو من التضعيف حتى تتفق مع خلو السياق من كثرة النعم، فكان العدول إلى (أنجاكم) الذي زيدت فيه الهمزة للدلالة على مجرد النقل والتعدية، وهما من المعاني التي تزداد للدلالة عليها كما يذكر المالقي^(٤).

ونرى التعبير القرآني يسخر الزيادة في بنية أخرى، لتوليد دلالات تتفق وسيقاق الحال، وهي صيغة (افتعل) يقول الرضي فيها: إنّها تدل في بعض معانيها على: «الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل، فمعنى (كَسَبَ) أصاب، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاول أسبابها»^(٥).

ويأتي لفظ (اصطبر) فيها بصيغة الأمر كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ

(١) ملاك التأويل: ١٩٩/١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(٣) البحر المحيط: ٣٩٥/٥.

(٤) رصف المباني: ٥٠.

(٥) شرح شافية ابن الحاجب: ١١٠/١.

وَأَصْطَبِرْ لِعِدَّتَيْهِ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ﴿٢﴾.

فآثر النظم أن يأتي بهذه الصيغة الدالة على الافتعال في هذين الموضعين دون الصيغة المجردة (اصبر) ؛ وذلك لأنَّ المقام فيهما مقام حثٍّ على العبادة والمداومة عليها، دون إخلال بها أو تقصير، وفي ذلك ما فيه من المشقة على النفس، بهذا فإنَّ صيغة (افتعل) أنسب لهذا المقام، وهو ما قاله الآلوسي في سورة طه: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: وداوم عليها، فالصبر مجاز مرسل على المداومة، لأنَّها لازم معناه، وفيه إشارة إلى أنَّ العبادة في رعايتها حق الرعاية مشقة على النفس» ﴿٣﴾.

وكذلك ما نراه في صيغة (انفعل) التي تدل على المطاوعة، قال الرضى: «هذا الباب موضوع للمطاوعة، وهي قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون، كالكسر والقطع والجذب أولى وأوفق، فلا يقال: علمته فاعلم ولا فهمته فانفهم» ﴿٤﴾.

وتستعمل بكثرة في موقف البعث والقيامة، إبرازاً لما يدل على هذا الموقف من طوعية كل شيء لخالقه. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿٥﴾ وقوله: ﴿وَأُنْشِقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ﴿٦﴾ وقوله:

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) روح المعاني: ٤١٦/١٦.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب: ١٠٨/١.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

(٦) سورة الحاقة، الآية: ١٦.

﴿إِذَا السَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(١) وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾^(٢) وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشقت﴾^(٣). فجميع الصيغ (انشقت، انفطرت، انكدرت) تشعرنا بهذا التسخير والطوعية الشديدة للأشياء «التي يتم بها الحدث تلقائياً أو على وجه التسخير، وكأنه ليس به حاجة إلى فاعل»^(٤).

وقد يستعمل التعبير القرآني بعض الأفعال ذات الأصل المشترك مترددة بين التجرد والزيادة مثل الفعل المزيد بالهمزة والتاء (اتقوا) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٥)، ثم عدل عنه إلى أصله المجرد (قوا) في موضع آخر قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٦).

وهذه الزيادة في الموضع الأول والتجرد في الموضع الثاني ترجع إلى أن السياق في الآية الأولى موجه إلى الناس عامة ممن كفر بالله وأشرك به وارتاب فيما نزل على رسوله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٧)، وهؤلاء الذين يرتابون في القرآن ينبغي لهم أن يذروا تلك

(١) سورة التكوير، الآية: ٢-١.

(٢) سورة الانفطار، الآية: ٢-١.

(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٢-١.

(٤) الإعجاز البياني: ٢٤٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٦) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٧) سورة البقرة، الآيتين: ٢٢-٢٣.

الريية، ويؤمنوا بالله، وهو أمرٌ يحتاج إلى اجتهاد كبير منهم كي يصلوا إليه؛ لذلك أثر الأسلوب القرآني أن يأتي بالفعل (اتقوا) في هذا الموضع؛ لأنّ هذه الصيغة تدل في بعض معانيها كما يذكر الرضي على: «الاجتهاد والاضطراب في تحصيل أصل الفعل، فمعنى (كَسَبَ) أصاب، ومعنى (اكتسب) اجتهد في تحصيل الإصابة بأن زاول أسبابها؛ لهذا قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: اجتهدت في الخير أولاً فإنّه لا يضيع ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: لا تؤاخذ إلاّ بما اجتهدت في تحصيله وبالغت فيه من المعاصي»^(١). وأمّا السياق في الموضع الثاني فلم يحتاج إلى ذلك الاجتهاد؛ لأنّه موجه للمؤمنين فهؤلاء لا حاجة لهم إلى ذلك الجهد الذي يتطلبه الفريق الأول؛ لترك الريية والنفاق، فناسب أن يأتي بالفعل المجرد؛ ليتفق في دلالته على عدم التكلف مع عدم احتياج هؤلاء المؤمنين لهذا الجهد الكبير للنجاة من النار^(٢).

ونجد التنويع بين صيغتي (أفعل) و(فعل) بتضعيف العين التي تدل على التكرير كما نراه في لفظي (أنزل) و(نزل) كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٣)، فجاء باللفظ المضاعف الدال على التكرير مع الكتاب، واللفظ المزيد بالهمزة مع التوراة والإنجيل، قال الزمخشري معللاً ذلك: «فإن قلت: لم قيل: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ و﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾؟ قلت: لأنّ القرآن نزل منجماً، ونزل الكتابات

(١) شرح الشافية: ١١٠/١.

(٢) ينظر: المناسبة: ٢٥١-٢٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣.

جملة»^(١).

وقال الرازي: «في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢)، إنما قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التزيل دون الإنزال؛ لأنَّ المراد التزول على سبيل التدرّج، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان؛ لأنَّهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله ومخالفاً لما يكون من عند الناس لم يترل هكذا بنحوماً سورة بعد سورة على حسب النوازل ووقوع الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر، من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً، بحسب ما يظهر من الأحوال المتجددة والحاجات المختلفة، فإنَّ الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة والمرسل لا يظهر ديوان رسائله وخطبه دفعة، فلو أنزله الله تعالى لتزله على خلاف هذه العادة جملة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾^(٣)»^(٤).

وعلق الراغب الأصفهاني على قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٦)

(١) الكشف: ٣٣٦/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

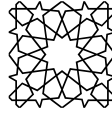
(٤) مفاتيح الغيب: ١٠٧/٢-١٠٨.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

فقال: «وإنما خص لفظ الإنزال دون الترتيل، لما روى أن القرآن نزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزل نجماً منجماً»^(١).

وهكذا نرى ما لبنية اللفظ في النظم القرآني من أثر فعال في المعنى وصلة وثيقة بالسياق حيث يحرص على توظيف الطاقات الإيحائية لمدلول تلك البنية في المقام المناسب لها، مراعيًا ما يتطلبه المقام مما تدل عليه بدقة بالغة^(٢).



(١) مفردات ألفاظ القرآن (نزل): ٥٤٤.

(٢) ينظر: من الأعجاز اللغوي: ١٧٦-١٧٧.



الفصل الثاني

المناسبة بين عدول اللفظ

عن الأصل التركيبي وسياق الحال

- ❖ المبحث الأول: المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي.
- ❖ المبحث الثاني: المناسبة بين حذف اللفظ والسياق اللغوي.
- ❖ المبحث الثالث: المناسبة بين الوصل والفصل.
- ❖ المبحث الرابع: المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي.
- ❖ المبحث الخامس: المناسبة بين التعريف والتنكير وسياقها اللغوي.



الفصل الثاني

المناسبة بين عدول اللفظ

عن الأصل التركيبي وسياق الحال

يرى النحاة أنّ للجملة في اللغة العربية أصل تتحقق به الإفادة، وهذا الأصل في الجملة الفعلية فعل متقدم يتلوه فاعل أو نائب فاعل، وفي الجملة الاسمية مبتدأ أو خبره، فإن لم يراعَ هذا الأصل الذي تأتي عليه الجمل ارتبك الكلام، وصار من دون فائدة. ويمكن للعدول عن أصل وضع الجملة أن يكون بالعدول عن أي واحد من هذه الأصول، عن طريق الحذف أو التقديم والتأخير أو زيادة ألفاظ على النمط الأصلي للجملة.

ولهذه العناصر داخل التركيب نظام معين تأتي عليه، من حيث الترتيب والذكر وعدم إضافة عناصر أخرى زائدة على الأصل وورود ألفاظ معينة في بعض المواقع وغير ذلك من الأصول، وقد يعدل عن هذه الأصول أحياناً، كأنّ يقدم اللفظ عن موضعه الأصلي إلى موضع آخر، أو يحذف من هذا الموضع، أو يقحم على التركيب عنصر أو أكثر يمكن الاستغناء عنه، أو يوضع لفظ في موضع غيره في أحد المواقع الوظيفية التي تتطلب نوعاً معيناً من الألفاظ، والعدول إمّا أن يكون مطرداً أو غير مطرد. فإذا كان غير مطرد فالنحاة يسمونه شاذّاً أو ضرورة أو قليلاً أو نادراً أو خطأ^(١). أمّا إذا كان هذا العدول مطرداً فإنّه يخضع لما يأتي^(٢):

(١) ينظر: الأصول: ١٤٨.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ١٤٨-١٤٩.

١- الفائدة أو أمن اللبس، فلا بد أن تتحقق الفائدة على الرغم من العدول، ويتضح خضوع العدول لأمن اللبس في وجوب أن يكون هناك دليل على المحذوف وضرورة التفسير عند الإضمار، وما يفرض من شروط على الفصل بين المتلازمين وعلى التقديم والتأخير... الخ.

٢- الخضوع لقواعد معينة يتم هذا العدول في ضوئها ويترد في ضوئها، نحو القواعد التي تحكم تقديم الخبر وجوباً أو جوازاً وكذلك قواعد تقديم المفعول به أو الحال أو الشروط التي يجب أن تتوافر بحذف آخر عناصر الجملة... الخ.

٣- الإطار العام لصناعة النحو، كما يتضح من الأصول والقواعد التي وضعها النحاة. وهذه القواعد هي التي تشكل الإطار العام للصناعة النحوية المختلفة سواء ما كان منها أصلياً أو فرعياً.

وقد يكون ما يحدث في التركيب من عدول لأسباب نحوية، كأن يقدم المفعول على الفاعل إذا ما اتصل بالثاني ضمير يعود على الأول، فعندئذٍ يجب تقديم المفعول، حتى يعود الضمير على متقدم.

وقد يكون لأسباب دلالية أو بلاغية، فيكتسب الكلام به دلالات جديدة، وحينئذٍ يكون العدول جائزاً لا واجباً، وهو مدار الحديث في هذا الفصل. وقال حازم القرطاجني: «والتكلف يقع إمّا بتوعر الملائف أو ضعف تطالب الكلم أو بزيادة ما لا يحتاج إليه أو نقص ما يحتاج، وإمّا بتقديم وتأخير، وإمّا بقلب، وإمّا بعدل صيغة عن صيغة هي أحق بالموضع منها، وإمّا بإبدال كلمة مكان كلمة هي أحسن موقعاً في الكلام منها»^(١).

(١) منهاج البلغاء: ٢٢٣.

البحث الأول

المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي

التقديم من (قدّم) أي: وضعه أمام غيره، والتأخير نقيض ذلك^(١).

يعد أسلوب التقديم والتأخير من أبرز وأهم الظواهر اللغوية والبلاغية في لغة العرب، إذ إنّ من سنن العرب «تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخراً وتأخيره وهو في المعنى مقدّم»^(٢). إنّ ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة نحوية تناولها النحويون القدماء فكان سيبويه (ت ١٨٠هـ) أول من اعتنى بالتقديم والتأخير وأشار إلى دلالات بلاغية كتقديم الفاعل والمفعول للعناية والاهتمام^(٣).

وتابع النحاة واللغويون سيبويه في آرائه كالمبرد (ت ٢٨٥هـ) وابن جني (ت ٢٩٣هـ) الذي تفرّد في مناقشته لهذه الظاهرة بينما تميز الفراء (ت ٢٠٧هـ) والأخفش (ت ٢١٥هـ) في نصهما على مواضع التقديم والتأخير من نوع تقديم اللفظ والتأخير في المعنى إلى أن وصل البحث إلى الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي درس الظاهرة -مفيداً من سيبويه- دراسة دقيقة مفصّلة، وقدّم دراسته على وفق منهج علمي دقيق فقال فيه: «باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء،

(١) لسان العرب: مادة (قدم) و(أخر).

(٢) المزهر: ٣٣٨/١.

(٣) ينظر: الكتاب: ١٢٧/٢-١٢٨.

وحول اللفظ من مكان إلى مكان»^(١).

ولا يكون التقديم والتأخير في اللغة العربية من دون نظام يحكمه، بل يخضع لضوابط وقيود، فقد يكون تقديم اللفظ أو تأخيره إجبارياً لعلّة نحوية، فلا يجوز الرجوع عنه إلى الأصل، وحينئذ يخرج من مباحث البلاغة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلَٰهَهُمْ رَبُّهُ﴾^(٢)، فقدّم المفعول تقديمًا إجباريًا لاتصال ضمير بالفاعل يعود عليه.

وقد يكون اختياريًا، فيخضع -ولاسيما في الكلام البليغ- لدواعٍ دلالية أو بلاغية، وأشار إلى ذلك أبو هلال بقوله: «ينبغي أن ترتّب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فنقدم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره. ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق»^(٣).

ويقول التنوخي: «ومن البيان تقديم ما من شأنه أن يؤخر، وتأخير ما من شأنه أن يقدّم، ومعظم هذا من أبواب النحو، ومن ذلك ما يلزم وما يجوز، فأما ما يلزم فلا مدخل له في البيان، إذ لا يمكن غيره، وما يجوز فلا يقدم عليه دون غيره إلاّ لغرض من أغراض البيان، وإن جاء شيء منه لغير غرض جاء قبيحاً، ولا يقع إلاّ شاذاً»^(٤).

وتتعدد الأسباب التي يقدم اللفظ من أجلها أو يؤخر عند العلماء،

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) الصناعتين: ١٦٩.

(٤) الأقصى القريب في علم البيان: ٥٣.

فأرجع سيبويه الأمر إلى الاهتمام أو العناية^(١)، أي: اهتمام المتكلم وعنايته باللفظ المتقدم، وأرجعه الزمخشري إلى الاختصاص^(٢).

وقال السيوطي: «فإنَّ الابتداء بالشيء يدل على الاهتمام به، وأنَّه هو الأرجح في غرض المتكلم، فإذا قلت: زيدا ضربت، علم أنَّ خصوص الضرب على زيد هو المقصود، ولا شك أنَّ كلَّ مركب من خاص وعام له جهتان، فقد يقصد من جهة عمومته، وقد يقصد من جهة خصوصه والثاني هو الاختصاص، وأنَّه هو الأهم عند المتكلم، وهو الذي قصد إفادته السامع من غير تعرُّض، ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي، ففي الحصر معنى زائد عليه، وهو نفي ماعدا المذكور، وإنَّما جاء هذا في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(٣) للعلم بأنَّ قائله لا يعبدون غير الله تعالى؛ ولذا لم يطرد في بقية الآيات»^(٤).

ونجد إنَّ -رشيد الخطيب- لم يتوسع بالقول في هذا الأسلوب وإنَّما اكتفى ببعض الإشارات في أثناء تفسيره للآيات القرآنية الكريمة. فنجد رشيد الخطيب يقول شارحاً قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: «فالتقديم لغرض التخصيص»^(٥) ونجد أبو السعود يقول أيضاً: «وتقديم المفعول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص»^(٦) وقال ابن عطية: «وقدم المفعول على الفعل

(١) ينظر: الكتاب: ٣٤/١.

(٢) ينظر: الكشف: ٣/١.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٤) الإتيقان: ١٥٨/٣.

(٥) أولى ما قيل: ٤٦/١، وينظر: البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل: ٦١.

(٦) إرشاد العقل السليم: ٩/١.

اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾^(٢) قال الرشيد الخطيب: «التقديم لإظهار شدة الشناعة فيما فعلوا؛ إذ بالباطل آمنوا وبدين الله كفروا»^(٣).

وقال البيضاوي في معنى الاهتمام أو الاختصاص: «وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة»^(٤) وتبعه الآلوسي^(٥).

وقال الشوكاني: إنَّ غرض التقديم هو الاختصاص: «وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص»^(٦) وهذا ما ذهب إليه أغلب العلماء^(٧). ولهذا التقديم أشكال مختلفة في القرآن الكريم، منها ما يلي:

أولاً: تقديم المفعول به:

في النظم القرآني تتعدد صور تقديم المفعول به، فقد يتقدّم على الفاعل، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٨). يقول عبد القاهر:

(١) المحرر الوجيز: ٦٤/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

(٣) ينظر: أولى ما قيل: ٤٨/٧.

(٤) أنوار التنزيل: ٣٢٤/٤.

(٥) ينظر: روح المعاني: ١٤/٢١؛ والبحر المديد: ٤٩٥/٥.

(٦) فتح القدير: ١١٦/١.

(٧) ينظر: البحر المحيط: ٣٣١/١؛ والتحرير والتنوير: ٤٤٢/١؛ وغرائب القرآن ورغائب

الفرقان: ٢٧٢/١.

(٨) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

«تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم. ولو أخر ذكر اسم الله وقدم (العلماء) فقليل: (إنما يخشى العلماء الله) لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشّي من هو، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كأن يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى، وهذا المعنى وإن كان قد جاء في الترتيل في غير هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾^(١). فليس هو الغرض في الآية، ولا اللفظ. بمحتمل له البتة. ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم، وسوى بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وبين أن يقال: (إنما يخشى العلماء الله)، وإذا سوى بينهما، لزمه أن يسوي بين، قولنا: (ما ضرب زيداً إلا عمرو) وبين: (ما ضرب عمرو إلا زيداً)، وذلك ما لا شبهة في امتناعه»^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾^(٣). قال ابن عطية: «وقدم يعقوب على جهة تقديم الأهم»^(٤).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

(٤) المحرر الوجيز: ٢١٤/١.

وقال أبو حيان: «وقدم المفعول هنا على الفاعل؛ للاعتناء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ﴾^(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، كَذَلِكَ ۚ ﴿^(٢)﴾ قال الزمخشري: «فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال: (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ۚ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك، ومن على صفتك: فمن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه»^(٣).

والمقصود بالعلماء في الآية الكريمة يوضحها أبو حيان: «هم الذين علموه بصفاته، وتوحيده، وما يجوز عليه وما يجب له، وما يستحيل عليه، فعظموه، وقدروه حق قدره، وخشوه حق خشيته، ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمناً»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثْمِينَ﴾^(٥)، فتقدم المفعول ﴿ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ على الفاعل ﴿الصَّيْحَةَ﴾ ففصل بينه وبين الفعل (أخذ) إشعاراً بهذه المهلة الزمنية التي أمهل فيها قوم

(١) البحر الحيط: ٥٧٣/١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٧-٢٨.

(٣) الكشف: ٦١١/٣.

(٤) البحر الحيط: ٢٩٧/٧-٢٩٨.

(٥) سورة هود، الآية: ٦٧.

صالح، قبل أن تأخذهم الصيحة، بكفرهم، فقد تركوا - كما يذكر صاحب الكشاف - ثلاثة أيام، إذ عقروا الناقة التي هي آية الله لهم يوم الأربعاء، وأهلكوا يوم السبت^(١).

وذكر ابن عطية روي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين عقروها: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمّر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما كان كذلك تكفّنوا في الأنطاع، واستعدوا للهلاك، وأخذتهم صيحة، فيها من كلّ صوت مهول، صدعت قلوبهم، وأصابت كلّ من كان منهم في شرق الأرض وغربها إلا رجلاً كان في الحرم، فمنعه الحرم من ذلك ثم هلك بعدها^(٢).

ونلاحظ أيضاً قد يكون تقديم المفعول على الفعل والفاعل معاً، فإنّه يدل على التخصيص عند ابن الأثير فيقول: «فإن في قولك: (زيداً ضربت) تخصيصاً به بالضرب دون غيره، وبخلاف ذلك قولك: (ضربت زيداً) لأنك إذا قدّمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت، بأن تقول: ضربت خالداً، أو بكرّاً، أو غيرهما، وإذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾^(٤). قال

السمين الحلبي: «قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ في (ما) قولان:

أحدهما: - وهو الظاهر - أنها مفعول مقدّم للنسخ وهي شرطية جازمة

له، والتقدير: أي شيء ننسخ، مثل قوله: ﴿أَيَّ مَا تَدْعُوا﴾^(٥).

(١) الكشاف: ٤٠٨/٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١٨٦/٣.

(٣) المثل السائر: ٣٥/٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

والثاني: أنها شرطية أيضاً جازمة للنسخ، ولكنها واقعة موقع المصدر و«من آية» هو المفعول به والتقدير: أي: نسخ ننسخ آية قاله أبو البقاء وغيره»^(١)، فالسمين الحلبي رجّح الرأي الأول وهو تقديم المفعول به على فعله.

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِبةً ۚ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٢). يقول عبد القاهر: «جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإنّ تقديم (الشركاء) يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن، وإذا أخر فقيل: (جعلوا الجن شركاء لله) لم يفد ذلك، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير (الشركاء) دليل عليه»^(٣).

وقد وجدنا أساليب بلاغية للتقديم والتأخير في تفسير الدر المصون للسمين الحلبي الذي كان تفسيراً زاحراً به. وهذه الأساليب هي:

(١) الدر المصون: ٣٣٤/١؛ وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١٠٢/١؛ والبحر المحيط: ٥١٣/١.

(٢) سورة الأنعام: ١٠١-١٠٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٨٦-٢٨٧.

١ - التقديم للاهتمام:

ذكر هذا النوع في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(١) فقال السمين الحلبي: «﴿وَيَا آخِرَةَ﴾ متعلق بيوقنون و﴿يُوقِنُونَ﴾ خبر عن ﴿هُمْ﴾ وقدم المجرور للاهتمام»^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٣). قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة، و﴿وَفِي النَّارِ﴾ متعلق بالخبر، وقدم للاهتمام به، ولأجل الفاصلة. وقال أبو البقاء: أي: وهم خالدون في النار»^(٤).

وهذا ما ذكره أبو السعود والآلوسي^(٥) وذكر الرازي غرض الحصر في هذا التقديم قائلاً: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يفيد الحصر أي: هم فيها خالدون لا غيرهم»^(٦). وتبعه النيسابوري والشريني^(٧). وذكر الشوكاني غرض التأكيد^(٨).

(١) سورة البقرة، الآية: ٤.

(٢) الدر المصون: ١٠٠/١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٧.

(٤) الدر المصون: ٤٥٣/٣؛ وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٦٣٩/٢.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥٠/٤؛ وروح المعاني: ٩٥/١٠.

(٦) التفسير الكبير: ٨/١٦.

(٧) ينظر: غرائب القرآن: ٤٤٢/٣؛ وتفسير السراج المنير: ٤٦٩/١.

(٨) ينظر: فتح القدير: ٤٩٩/٢.

٢- التقديم للاختصاص:

أشار إلى هذا النوع عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(١). قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿عَلَيْنَا﴾.. وقال الزمخشري: التقديم للاختصاص أي: لا يتيسر ذلك إلا على الله وحده»^(٢).
قال أبو حيان: «تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني لا يتيسر مثل ذلك اليوم العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن»^(٣).
٣- التقديم للعناية:

جاء هذا النوع في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾^(٤). قال السمين الحلبي: «والخبر جار ومجرور بحرف (على) الدال على الاستعلاء المجازي في الوجوب وقُدِّم الخبر اعتناءً به»^(٥).
٤- التقديم لرعاية الفواصل:

قال السمين الحلبي: إنَّ التقديم يأتي لرعاية الفواصل ورؤوس الآي كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(٦). وقال السمين الحلبي: «والباء في (بها) متعلقة بخبر (ليس) وقُدِّم على عاملها للفواصل»^(٧).

(١) سورة ق، الآية: ٤٤.

(٢) الدر المصون: ١٨٢/٦؛ وينظر: الكشاف: ٣٩٦/٤.

(٣) البحر المحيط: ١٢٩/٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٥) الدر المصون: ٥٧٣/١.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

(٧) الدر المصون: ١١٧/٣٠.

و لم يذكر الزمخشري التقديم وإنما اكتفى بتفسير الآية^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾^(٢).

قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متعلق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: من أجلهم، وقدم لأجل الفواصل^(٣). وهذا ما ذكره ابن عادل^(٤).

ثانياً: تقديم المجرور:

في النظم الحكيم يوجد للمجرور صور عديدة لتقديمه منها:

١- تقديم المجرور على الفاعل فاصلاً بينه وبين الفعل:

نحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ أَنْبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥).

فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي بالفاعل على أصله من التقديم جاء الأسلوب القرآني على الأصل دون عدول، نحو قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يُمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٦). ولعل تلك المغايرة بين المحييء بالأصل في الآية الثانية والعدول عنه في الأولى ترجع إلى أن الرجل في آية القصص على قول ابن جماعة: «قصد نصيح موسى عليه السلام وحده لما وجدته والرجل في يس: قصد من أقصى القرية نصيح الرسل ونصح قومه،

(١) ينظر: الكشف: ٤٨٣/٣.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٩.

(٣) الدر المصون: ٤٩٥/٦.

(٤) ينظر: الباب في علوم الكتاب: ٢٢٣/٢٠.

(٥) سورة يس، الآية: ٢٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ٢٠.

فكان أشد وأسرع داعية، فلذلك قدم قاصداً ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾؛ لأنه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصى المدينة»^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾^(٢)، فإن أصل الكلام (فأوجس موسى خيفةً في نفسه) فتقدم الجار والمجرور والمفعول، وتأخر الفاعل عن موقعه، وأرجع الزركشي سبب التأخير هذا إلى رعاية الفاصلة^(٣). ويبدو أنه لم يقتنع بهذا التعليل، فعاد وأرجعه إلى سبب نفسي، وهو «أن النفس تتشوق لفاعل (أوجس) فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع»^(٤).

٢- تقديم المجرور على المفعول به:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) فإذا ما اقتضى السياق أن يأتي الكلام على أصله قدم المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(٦).

يقول ابن الزبير: «إنما قدم المجرور في قوله: (من قبلك رسلاً إلى قومهم) في سورة الروم لكان ضميره ﷺ. أمّا آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها

(١) كشف المعاني: ٢٨٤-٢٨٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٧.

(٣) ينظر: البرهان: ٦٢/١.

(٤) المصدر السابق: ٦٢/١.

(٥) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾^(١) فتأخّر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلّٰهِ كُنَّبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَٰكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) فجاء المجرور وهو الضمير في (عليه) متقدماً على المفعول (الرحمة) والأصل تأخيرها. ولعل هذا التقديم يرجع في حقيقة الأمر إلى أنّ المقام الذي سبقت فيه الآية مقام تعجب من هؤلاء الكافرين، ومع ذلك إن سئلوا عن ملك السماوات والأرض، فلن يجيبوا إلا بإقرار الملك لله، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(٤)، فهم يعرفون هذه الحقيقة، ثم ينكرونها، فالتعجب كل التعجب من موقفهم هذا الذي يستحقون عليه أن يحيق بهم غضب الله وانتقامه، وعلى الرغم من ذلك فإنه تعالى لا يبادرهم بغضبه، بل برحمته، ونعمه^(٥).

٣- تقديم المجرور على الخبر:

نحو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ائْشَرُوا فَائْشَرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٢.

(٢) ملاك التأويل: ٧١٠/٢-٧١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٥) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ٢٧٩.

أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾، فهنا تقديم معمول الخبر المحرور عليه، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ءَاشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾. ولعل هذه المغايرة ترجع إلى أن الآية الأولى تتحدث عن أمور ظاهرة لا خفاء فيها، وهي التوسع في المجلس، والمراد مجلس الرسول ﷺ والمعنى يقول الزمخشري: توسعوا في جلوسكم، ولا تتضايقوا فيه، وقيل: هو المجلس من محالس القتال ﴿٣﴾. ثم يأمر ﷺ أن ينهضوا للتوسعة على المقبلين، أو ينهضوا عن مجلس رسول الله إذا أصروا بالنهوض عنه ﴿٤﴾.

أما الآية الثانية فكان الأمر فيها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله، وهذه أشياء منها ما يكون متعلّقاً بالقلب والنية من إخلاص في العبادة والطاعة، وهذا الإخلاص وما يتعلق به من أمور القلب لا يعلمه إلا الله؛ لذلك كان تسليط الدلالة في هذه الآية على لفظ (خبير) الذي يدل - كما يذكر الأصفهاني - على المعرفة ببواطن الأمور ﴿٥﴾. فهنا جاء الكلام على أصله، فجاء الخير في موضعه مقدّماً على معموله لتقع عليه الدلالة المرادة في هذه الآية ﴿٦﴾.

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٣) الكشف: ٤/٤٩٢.

(٤) المصدر السابق: ٤/٤٩٢.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن (خبر).

(٦) ينظر: المناسبة: ٢٩٢-٢٩٣.

٤- تقديم الجرور على المبتدأ:

نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) فتقدم الجرور في ﴿بِيَدِكَ﴾ على المبتدأ (الخير) قال أبو حيان: «وتقدم بيدك يدل على الحصر، فدلّ على إنّ الأخير إلّا بيده»^(٢). فجاء التقديم هنا؛ إشعاراً بدلالة الحصر، كما أشار إليها أبو حيان، إذ المقام مقام إبراز لقدرة الله وتعظيم هذه القدرة على كلّ شيء، فهو سبحانه الذي يؤتي الملك، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهذه القدرة التي يظهرها المقام هي التي يرد بها الله على من تعجّبوا من وعد رسوله للمسلمين أنّ الله سيفتح عليهم البلاد^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾^(٤٥) بَيَضَاءً لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^(٤٦)، فجاء لجرور في ﴿فِيهَا﴾ مقدماً على المبتدأ ﴿غَوْلٌ﴾، وهو بخلاف ما جاء في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٥). يقول الزمخشري: «القصد في إيلاء الريب حرف النفي، نفي الريب عنه، وإثبات أنّه حق وصدق لا باطل وكذب، كما كان المشركون يدعون، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد، وهو أنّ كتاباً آخر فيه الريب لا فيه، كما قصد في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضل

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) البحر الحيط: ٤٣٨/٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٤٥-٤٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢.

خمر الجنة على خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة»^(١).

ويقول ابن الأثير أيضاً: «يقتضي النفي أصلاً من غير تفضيل، وتقديمه يقتضي تفضيل المنفي عنه، وهو خمر الجنة، على غيرها من خمر الدنيا: أي: ليس فيها ما في غيرها من الغول، وهذا مثل قولنا: لا عيب في الدار، وقولنا: لا فيها عيب، فالأول نفي للعيب عن الدار فقط، والثاني تفضيل لها عن غيرها: أي: ليس فيها ما في غيرها من العيب»^(٢).

٥- تقديم المجرور على الصفة:

فيفصل بينها وبين موصوفها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٣)، وهذا بخلاف ما ورد من ترتيب الكلام على أصله قبل هذه الآية، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(٤).

يلحق ابن الزبير على الآية الثانية فيقول: «لم يرد هناك غير صفة واحدة جعلت مع موصوفها كشيء واحد، وإن كان الوصف بموصول، والموصول يطول بصلته، إلا أن طوله بصلته لا يزيله عن تقديره باسم واحد، فمن حيث جعلت الصفة مع موصوفها كشيء واحد للحاجة إليها، وكونها مفردة،

(١) الكشف: ٣٤-٣٥.

(٢) المثل السائر: ٤٠/٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.

قُرنت بموصوفها وتأخر المجرور، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾، صفتين فما زاد مع موصوفها كشيء واحد، قدم المجرور، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَنَّهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾، فوقع المجرور في كلٍّ من الآيتين على ما يجب، وعطفت الصفات بعضها على بعض لورودها غير صفة^(١).

ثالثاً: تقديم الظرف:

قد تتعدد أشكال تقديم الظرف في النظم الحكيم إلى أشكال عديدة نذكر منها ما يلي:

١- تقديم الظرف أو تأخيره، على اللفظ الواقع تمييزاً أو حالاً:

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾^(٢)، فجاء الظرف مؤخراً عن لفظ ﴿شَهِيداً﴾ الذي يمكن أن يحمل - كما يذكر الزجاج^(٣) والزمخشري^(٤) - على التمييز أو الحال، ثم نراه يأتي مقدماً على اللفظ نفسه في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥).

(١) ملاك التأويل: ٨٧٦/٢-٨٧٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٦.

(٣) معاني القرآن: ٢٦١/٣.

(٤) الكشف: ٦٩٥/٢.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٢.

ولعل هذا الاختلاف بين الآيتين من مجيء الكلام على أصله في الآية الأولى والعدول عنه في الثانية يرجع -على حد قول ابن جماعة- إلى أنه: «لما وصف ﴿شَهِيدًا﴾ بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ ناسب تأخيرَه لتتبع الصفة موصوفها ولا يحول بينهما حائل، وليس هنا ولا في أمثالها صفة لشهيد، فجاء على القياس في غير ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١)»^(٢).

٢- تقديم الظرف على الفعل والفاعل معاً:

كما في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾^(٣) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ^(٤) فِي بَضْعِ سِنِينَ^(٥) لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ^(٦) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٧) فتقدم الظرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾، والناظر في المقام الذي سيقَّت فيه هذه الآيات يدرك علة هذا التقديم، فقد نزلت -كما قال الزمخشري- عندما احتربت الروم وفارس بين أذرعَات وبصرى، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة، فشق على النبي ﷺ والمسلمين؛ لأنَّ الفرس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب، وفرح المشركون وشمّتوا وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فتزلت^(٨).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

(٢) كشف المعاني: ٢٣٦.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢-٥.

(٤) الكشف: ٤٦٦/٣؛ وينظر: المحرر الوجيز: ٣٢٧/٤-٣٢٩.

٣- تقديم الظرف على المبتدأ في الجملة الاسمية:

نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) فقال تعالى: ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ولم يقل: (علم الساعة عنده) ليكون الكلام على أصله، بتقديم المبتدأ وتأخير الظرف.

ولعل هذا التقديم يرجع إلى أن الآية نزلت -فيما يذكره أبو حيان- عندما جاء رجل، وهو الحارث بن عمار المحاربي إلى رسول الله؛ ليسأله، فقال: يا رسول الله أخبرني عن الساعة متى قيامها؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض، وقد أبطأت عني السماء متى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد اشتملت على ما في بطنها أذكر أم أنثى؟ وعلمت ما عملت أمس فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته، فأين أموت؟ فترلت الآية»^(٢).

رابعاً: تقديم الخبر:

هذا الشكل من التقديم ليس له إلا صورة واحدة، وهي تقديم الخبر على المبتدأ، فحينئذ يدل على الاختصاص، أي: اختصاص الخبر بالمبتدأ دون غيره، وقد يقدم الخبر على المبتدأ في القرآن تحقيقاً لدلالة معينة، قال ابن الأثير: «فقولك: (قائم زيد) قد أثبت له القيام دون غيره، وقولك: (زيد قائم) أنت بالخيار في إثبات القيام له ونفيه عنه، بأن نقول: ضارب أو جالس، أو غير ذلك»^(٣). وفي النظم القرآني نجد قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) البحر الحيط: ١٨٩/٧.

(٣) المثل السائر: ٣٥/٢.

يَتَّبِرْهِيمُ لَيْنَ لَمْ نَتَّهِ لَارْجُمَنَّكَ وَهَجَرْنِي مَلِيًّا ﴿١﴾ قال الزمخشري: «وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهِتِ يَتَّبِرْهِيمُ﴾ لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد»^(٢).

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٣)، فآثر التعبير القرآني تقديم الخبر ﴿شَاخِصَةٌ﴾ على المبتدأ ﴿أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يأت الكلام على أصله (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) وقد أرجع ابن الأثير هذا التقديم إلى أمرين^(٤)، وتبعه العلوي في ذلك^(٥):

أحدهما: تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها، فلو قال: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة لجاز أن يضع موضع (شاخصة) غيره، فيقول: حائرة، أو مطموسة، أو غير ذلك، فلما قدم الضمير اختص الشخوص بالأبصار دون غيرها. وأما الثاني: فإنه لما أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم دلّ عليه بتقديم الضمير أولاً ثم بصاحبه ثانياً، كآته قال: فإذا هم شاخصون دون غيرهم^(٦).

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٢) الكشف: ٢٠/٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٤) ينظر: المثل السائر: ٣٨/٢.

(٥) ينظر: الطراز: ٢٣٥.

(٦) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ٢٩٢؛ والمناسبة في القرآن: ٢٩٨-٢٩٩.

المبحث الثاني

المناسبة بين حذف اللفظ والسياق اللغوي

للجملة في اللغة العربية أنماطاً تركيبية، وعناصر أساسية أو ما يطلق عليها النحاة عمد الكلام، وعناصرها الفرعية غير الأساسية أو ما يطلقون عليه الفضلات أو المكملات، فالكلام ينقسم إلى عمدة، لا يسوغ حذفها إلاّ بدليل، وإلى فضلة يسوغ حذفها لغير دليل، ولهذا يعد الحذف ظاهرة لغوية تشترك فيها اللغات الإنسانية، وتبدوا مظاهرها واضحة في بعض اللغات أكثر من غيرها. ولعل «ثبات هذه الظاهرة في العربية ووضوحها يفوق غيرها من اللغات؛ لما جبلت عليه العربية في خصائصها الأصلية من ميل إلى الإيجاز»^(١). وقد يغري الحذف أحد عناصر الجملة في اللغة العربية، سواء العناصر الرئيسة أو غير الرئيسة، ولا يكون ذلك إلاّ بأحد الشروط التي يحددها النحاة^(٢) وذكرها السيوطي وهي عشرة منها: الإيجاز والاختصار والتفخيم والإعظام وشهرة المحذوف... إلخ، ويعد الحذف أبلغ من الذكر، لاسيما إن كان راجع إلى سبب دلالي. قال ابن وهب: «وأما الحذف: فإنّ العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول، إذا كان المخاطب عاملاً بمرادها فيه»^(٣)، وأنّ أي لفظ علم من الكلام لدلالة باقية عليه فالأصل حذفه أي: لفظ استغني عنه بما ذكر فالأصل حذفه؛ لأنّ الكلام عبارة عن ثروة لدى الإنسان فلا ينبغي أن يبذرها. وينبغي أن يقتصر على قدر الحاجة من كلامه. والحذف

(١) ظاهرة الحذف: ٩.

(٢) ينظر: الإتيان: ١٧٤/٣ وما بعدها.

(٣) البرهان في وجوه البيان: ١٢١.

يكون إمّا إجباري، وإمّا اختياري يحتمل معه ذكر اللفظ وحذفه. قال الرماني: «والحذف أبلغ من الذكر؛ لأنّ الذكر يقتصر على وجه، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كلّ وجه من وجوه التعظيم لما تضمنه من التفخيم»^(١).

ويقول الجرجاني: «فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبَيّن»^(٢).

وهنا سؤال يطرح نفسه هل الحذف يمكن أن يصح في كلّ موقع من المواقع؟ أو أنّه لا بد من تقييد بمجموعة من الضوابط؟ الحقيقة أنّ الحذف هنا لا بد أن يتنبه إلى أنّه لا يلجأ إليه إلاّ بتحقيق شرطين:

الأول: وجود قرينة تدل على المحذوف.

الثاني: وجود غرض بلاغي يحققه هذا الحذف.

ولذلك الحذف هو لون من قدرة المتكلم على صياغة الكلام صياغة منسجمة مع خلو هذا الكلام من بعض أجزائه وقدرة اختبار المتلقي على فهمه لهذا النص مع وجود شيء محذوف منه، لذلك سماه بعض علماء العربية هذا اللون أعني الحذف شجاعة العربية، بمعنى اللغة لغة شجاعة يحذف بعض أجزائها وتدل معنى فالرجل الشجاع الذي يمكن أن يتغلب على خصمه مع أنّه يخلو من بعض ما يعني لدى خصمه من عتاد، وهذه الشجاعة جاءت من وفاء الكلام بالمعنى المراد مع نقصه في ألفاظه.

ويقول المؤلفون هنا: إذا أريد إفادة السامع حكماً فأبي لفظ يدل على معنى

(١) النكت: ١٠٦.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٤٦.

فيه فالأصل ذكره، أنت تريد أن تعبر عن معنى فلا بد أن تذكر هذا بلفظ يشير إليه، والمعنى الذي لا تذكر لفظه ربما لا يتحقق لك فهم السامع لهذا المعنى، لأنّ اللفظ المعبر ليس، وجوداً فإذا أمنت فهم السامع لهذا فيمكنك أن تحذف، ولذلك يقولون أي لفظ علم من الكلام لدلالة باقية عليه فالأصل حذفه^(١).

فإذا قلت: من جاء؟

تقول: محمد.

لا داعي لأنّ تقول: جاء محمد.

أو الذي جاء محمد.

هنا محمد هذه هي جواب اقتران بصيغة السؤال: (من جاء؟). فليس هناك داعي، لأنّ تذكر (جاء محمد)؛ لأنّها مذكورة في صيغة السؤال والسؤال والجواب مقترنان، ولذلك هنا يصبح الحذف وإذا ذكرت فذكرك هنا يكون مخالفاً للأصل؛ لأنّ الحذف في مثل هذا متعين لماذا؟ لدلالة الكلام الذي سيق عليه^(٢).

وإذا تأملنا القرآن الحكيم نجد أنّه في كثير من الأحيان يؤثر حذف اللفظ على ذكره، خاصة إذا اقتضى المقام ذلك. وفيما يلي صور لحذف الألفاظ في القرآن وعلاقة هذا الحذف بالسياق اللغوي.

١- الحذف في الجملة الفعلية:

قد يحذف أحد عناصر الجملة الفعلية لتحقيق فائدة معينة يتطلبها السياق. قال الإمام العز: «والعرب ينظرون إلى مقصود الإفادة في هذا الباب

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٤٦٥.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٤٦٥-٤٦٦.

ونحوه، فإن كان المقصود نسبة الفعل إلى الفاعل اقتصروا عليه، فقالوا: فلان يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، والله يحيي ويميت؛ لأنه ليس الغرض ذكر المعطي والممنوع والموصول والمقطوع والحيا والممات، ولكن الغرض وصف الفاعل بهذه الأفعال، وإن كان الغرض ذكر المفعول لا غير لم يتعرضوا للفاعل، كقوله: ﴿فَقُلْ الْخَرَصُونَ﴾^(١)، وقوله: ﴿كُنُوتًا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٢)، ليس الغرض هنا ذكر الكابت ولا القاتل، إنما الغرض في نسبة القتل والكبت إلى المذكورين، وإن تعرض الغرض بالفاعل والمفعول أتوا بهما، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٣)، وقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾^(٤) «^(٥)».

أ - حذف الفعل:

في النظم القرآني قد يقتضي المقام أو سياق الحال حذف الفعل من الجملة، ومن ذلك الحذف في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٦) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٧) وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ

(١) سورة الذاريات، الآية: ١٠.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٥) الإشارة إلى الإيجاز: ١٧-١٨.

(٦) سورة الأحقاف، الآية: ٣٤.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿١﴾.

والتقدير في هذه الآيات على حذف فعل القول^(٢)، أي: يقال لهم أليس هذا بالحق، أكفرتم بعد إيمانكم، ذوقوا مس سقر، على الترتيب، فحذف الفعل؛ لأنها جميعاً سيقت تصويراً لأحوال الكافرين في هذه اليوم، إذ يعرضون على النار، فيرون أهوالها، ويسمعون زفيرها، ويدوقون ويلها. قال البقاعي في تفسير آية الأحقاف: «فيسمعوا من تغيظها وزفيرها ويروا من لهيبها واضطرامها وسعيرها ما لو قدر أن أحداً يموت من ذلك لماتوا من معانيته وهائل رؤيته»^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ^(٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ^(٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ^(٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٨٥) الخطاب فيها موجه في ادعوا أنه سبحانه اتخذ ولداً وهم اليهود والنصارى فجاء الخطاب مذكراً عليهم ذلك؛ لأنه سبحانه منزّه عن ذلك فليس له ولد أو شريك في الملك، فهو الإله الواحد في السماء والأرض، فكان من المناسب أن تسلط الدلالة على تلك الصفة دون غيرها من القدرة على الخلق، فجاء لفظ الجلالة منفرداً دون الفعل إشارة إلى انفراده

(١) سورة القمر، الآية: ٤٨.

(٢) ينظر: الإشارة إلى الإيجاز: ١٢؛ والبحر المحيط: ٢٦/٣، ٦٨-٦٣/٨.

(٣) نظم الدرر: ١٤٥/٧.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١-٨٥.

واستحقاقه للإلهوية وحده^(١).

قال البقاعي: «ولم يصدقوا في جواب مثله بقولهم: (إذا سألتهم): (ليقولون الله) الذي له جميع صفات الكمال هو الذي خلق الكل ليس لمن يدعوه منه شيء، ولذلك سبب عنه قوله: فأنى أي: كيف ومن أي جهة بعد أن أثبتوا له الخلق والأمر يؤفكون أي: يقلبون عن وجوه الأمور إلى إقتنائها من قالب ما كائناً من كان، فيدعون أن له شريكاً تارة بالولدية، وتارة بغيرها، مع ما ركز في فطرهم مما ثبت به أنه لا شريك له لأن له الخلق والأمر كله»^(٢).

ب- حذف الفاعل:

تكثر في النظم القرآني ظاهرة حذف الفاعل وبناء الفعل لغيره؛ استغناء عنه، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾^(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا^(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا^(٢٠).

قال البقاعي في هذه الآية: «فقال بانياً للمفعول؛ لأنّ المفزع مطلق التفتيح، ولأنّ ذلك أدل على قدرة الفاعل وهو أنّ الأمور عليه»^(٤). وكذلك قال البقاعي في تفسير قوله تعالى في آية التكوير: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ^(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ^(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ^(٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ^(٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ^(٥) قال: «ولما كان المهول مطلق تكويرها

(١) ينظر: المناسبة: ٣٠٤.

(٢) نظم الدرر: ٥٩/٧.

(٣) سورة النبأ، الآية: ١٨-٢٠.

(٤) نظم الدرر: ٣٠٠/٨.

(٥) سورة التكوير، الآية: ١-٦.

الدال على عظمة مكورها، بني للمفعول على طريقة كلام القادرين قوله: ﴿كُورَتْ﴾ أي: لفت بأيسر أمره غير كلفة ما أصلاً^(١). فكان الحذف في هذه المواضع أدل على المعنى ومناسباً لمقتضى الحال.

وتقول د. عائشة عبد الرحمن: «اطراد هذه الظاهرة في موقف البعث، والقيامة ينه إلى أسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية، فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث، بصرف النظر عن محدثه»^(٢).

ج- حذف المفعول:

قد يحذف المفعول من الجملة في الأسلوب القرآني إذا لم يتعلق غرض الكلام به، أو كان ذكره يصرف الدلالة إلى غرض آخر لا يهدف إليه السياق. قال الجرجاني: «كلّ موضع كان القصد فيه أن تثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء، وأن تخبر بأنّ من شأنه أن يكون منه، أو لا يكون إلاّ منه، أو لا يكون منه، فإنّ الفعل لا يعدى هناك؛ لأنّ تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى»^(٣) وقال أيضاً: «وهو أن يكون له مفعول مقصود قصده معلوم، إلاّ أنّه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه»^(٤).

ويقول الرازي: «والضابط: أنّه متى كانت العناية متوفرة على مجرد إثبات الفعل لا على أن يعلم المفعول، فالأولى أن يحذف المفعول»^(٥).

(١) نظم الدرر: ٣٣٦/٨.

(٢) الإعجاز البياني: ٢٤٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٥٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) نهاية الإيجاز: ٢٤٠.

ومما جاء في حذف المفعول ما نراه في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(١) فحذف في هذه الآية مفعولان، أولهما مفعول الفعل (بلغ) والتقدير (ومن بلغه القرآن) كذا ذكر أبو حيان^(٢) والثاني مفعول الفعل (اشهد) والمعنى على حد قول الزمخشري قل لا أشهد شهادتكم^(٣). والحذف في الآية إنما حدث؛ اتفاقاً وحال القرآن، إذ لم يأت من ذراً لقوم بأعينهم، بل جاء من ذراً للعالمين في كل مكان وزمان، منذ بعثه الرسول إلى قيام الساعة، وهو ما يصرح به القرآن نفسه ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

قال البقاعي: «وقد أمر نبيه ﷺ أن يقول هذا الكلام، وأن ينذر بالقرآن كل ما بلغه، ولم يخص إنساً ولا جنّاً من أهل التكليف»^(٥) فغاب المفعول عن موضعه في الكلام؛ ليدل على التعميم وإطلاق الإبلاغ الذي يتفق وما جاء به القرآن.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ﴾^(٦) فآثر التعبير القرآني حذف ضمير الخطاب من (قل)، والأصل (قلاك).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) البحر المحيط: ٩٦/٤.

(٣) الكشف: ١١/٢.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.

(٥) نظم الدرر: ٦٠٠/٢.

(٦) سورة الضحى، الآية: ٣-١.

ذهب الفراء إلى أنه جاء اكتفاءً بالكاف الأولى محافظة على رؤوس الآيات^(١)، وذهب ابن الأنباري إلى أنه للتخفيف^(٢) ويرجح عند الزمخشري إلى أنه اختصار لفظي لظهور المحذوف^(٣)، وكذلك أرجعه أبو حيان إلى الاختصار إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول الكريم^(٤).

وقد يرد إثبات المفعول وحذفه في مقام واحد يأتي قوله تعالى: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَهُمْ فَلَوْ يُبْصِرُونَ ۖ أَفَعِزَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۖ﴾ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِجِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَ فَلَوْ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴿٥﴾ فقال وَعَلَىٰ: ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ مثبتاً المفعول به (ضمير الغائبين) ثم حذفه عند تكرار الفعل نفسه بعدها، فقال: (وأبصر). والسبب وراء هذا الحذف بعد الإثبات يرجع إلى أن المقصود بالحين الأول يوم بدر، قاله السدي، ورجّحه الطبري^(٦) وابن عطية^(٧) وفي ذلك الوقت كان للكافرين من قريش قوة تواجه المسلمين؛ بل كانت تفوق قوتهم؛ لذا أثبت ضميرهم هنا؛ ليقدر لهم الرسول قدرهم، ويعمل لك جهده على هزيمتهم. قال البقاعي: «وهذا الحين واضح في يوم بدر وما كان من أمثاله قبل الفتح، فإنهم كان لهم في تلك الأوقات نوع من

(١) معاني القرآن: ٢٧٤/٣.

(٢) البيان في غريب: ٥٢٠/٢.

(٣) الكشف: ٧٦٦/٤.

(٤) البحر المحيط: ٤٨١/٨.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٧٤-١٧٩.

(٦) جامع البيان: ٧٣/٢٣.

(٧) المحرر الوجيز: ٤٩٠/٤.

القوة؛ فلذلك أثبتهم نوع إثبات في (أبصرهم)^(١).

ويرى البقاعي أيضاً فيقول: «إنَّ الأولى اقتضت نزول العذاب بهم يوم بدر، فلما تضمنت التشفي قيل (أبصرهم) وأمَّا الثانية فالمراد بها يوم الفتح، واقترن بها مع الظهور عليهم تأمينهم والدعاء إلى إيمانهم، فلم يكن وقتاً للتشفي به للبروز، ف قيل له: (أبصر) والمعنى: فسيبصرون منك عليهم»^(٢).

٢- الحذف في الجملة الاسمية:

أ - حذف المبتدأ:

يحذف المبتدأ من الجملة، مع بقاء الخبر؛ اكتفاء بدلالة السياق عليه، ويكثر هذا في النظم الحكيم، وقد يعمد الأسلوب القرآني إلى حذف المبتدأ من الجملة الاسمية تحقيقاً لدلالة معينة يتطلبها السياق، من ذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٣)، قال السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿مَتَّعْ﴾: خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه الكلام تقديره: تقلّبهم أو تصرفهم متاع قليل»^(٤).

وقال أبو السعود: «خبر المبتدأ محذوف أي: هو متاع قليل لا قدر له في جنب ما ذكر من ثواب الله تعالى»^(٥) وذكر هذا الرأي أكثر المفسرين^(٦).

(١) نظم الدرر: ٣٥٢/٦.

(٢) البرهان: ١٦٧/٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٧.

(٤) الدر المصون: ٢٩١/٢.

(٥) إرشاد العقل السليم: ١٣٥/٢.

(٦) ينظر: الكشف: ٤٨٧/١؛ والبيان في إعراب القرآن: ٢٣٢/١، وغيرهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ يُعْقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١). والتقدير: هم صمُّ بكم عمى، فحذف الضمير الواقع موقع المبتدأ؛ لأنَّ المقام يصور حال هؤلاء الكافرين؛ إذ يعرضون عن الهدى والحق، مشبهاً إياهم بتلك البهائم التي «لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها، ولا نفقه شيئاً آخر ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون»^(٢) فكان حالهم كحال البهائم لا يعون شيئاً ممَّا يقال لهم صامتين عنه بعقولهم، قال ابن عطية: «فمعنى الآية أنَّ هؤلاء الكفرة يمر الدعاء على آذانهم صفحاً يسمعون ولا يفقهونه؛ إذ لا ينتفعون بفقهه»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾^(٤)، قال السمين الحلبي: «وقوله: (ولله) خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أو ذلك لله»^(٥)، وهذا ما ذكره العكبري والنسفي وابن جزري وأبو حيان^(٦). وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ^(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ^(٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ^(٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ^(٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٢) الكشف: ٢١٤/١.

(٣) المحرر الوجيز: ٢٣٨/١.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٥) الدر المصون: ١٧/٣.

(٦) ينظر: البيان في إعراب القرآن: ٤٨٣/١؛ ومدارك الترتيل: ٣١٥/١؛ والتسهيل:

٣٤٩/١؛ والبحر المحيط: ٨٦/٤.

تَعْقُلُونَ»^(١)، قال السيوطي: «حذف فيها المبتدأ في ثلاثة مواضع: قبل ذكر الرب، أي: (هو رب)، (الله ربكم)، (الله رب المشرقين)، لأن موسى استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال، فأضمر اسم الله تعظيماً وتفخيماً»^(٢).

ويعلق الزمخشري على الآية قائلاً: «وهذا السؤال لا يخلو: إمّا أن يريد به أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة، ليعرفه أنّه ليس لشيء ممّا شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنّه شيء مخالف لجميع الأشياء»^(٣) لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٤) وأما أن يريد به: أي شيء هو على الإطلاق، فتفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي، فأجابه بأنّ الذي إليه سبيل وهو الكافي في معرفته معرفة ثباته بصفاته، استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذلك، وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التي هي فوق فطر العقول، فتفتيش عمّا لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنّت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام: أن يكون سؤاله هذا إنكاراً؛ لأنّ يكون للعالمين رب سواه؛ لادعائه الإلهية»^(٥).

ونلاحظ أنّ حذف المبتدأ في القرآن يكثر في جواب الاستفهام، كما في قوله **وَعَلَىٰ**: ﴿فَأَمُّهُ هَكَوِيَّةٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ نَارُ حَامِيَةٍ﴾^(٦)، فحذف المبتدأ في مثل هذا الموضع وترك موضعه، دون عنصر آخر يشغله

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٣-٢٨.

(٢) الإتقان: ١٧٢/٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) الكشف: ٣٠٧/٣.

(٥) سورة القارعة، الآيات: ٩-١١.

يخلف من ورائه فراغاً يوحي بتلك الهوة التي يسقط فيها الكافرون في قاع جهنم، يقول الزمخشري: «وقيل: (هاوية) من أسماء النار، وكأنها النار العميقة لهوي أهل النار فيها مهوىً بعيداً، كما روى (يهوى فيها سبعين خريفاً) أي: فمأواه النار. وقيل للمأوى: أم، على التشبيه؛ لأن الأم مأوى الولد ومفرعة. وعن قتادة: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، أي: فأم رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوساً»^(١).

ب- حذف الخبر:

قد يعتمد الأسلوب القرآني إلى حذف الخبر والإبقاء على المبتدأ، وهذا الشكل من أشكال الحذف لا يكون إلا في مواضع قليلة، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(٢)، والتقدير كما يذهب المفسرون ظلها دائم البقاء، والراحة لا ينسخ كما ينسخ بالشمس، ولا يميل ليبرد، كما في الدنيا، كذا قال الزمخشري^(٣) وأبو حيان^(٤) وهذا التقدير على أساس الخبر المذكور لـ (أكلها) ولكن يحتمل أن يكون الخبر لفظاً آخر يمكن فهمه من السياق، ذلك أن لفظة (ظل) تستدعي من السياق المحيط بالآية عدة ألفاظ، يصلح كل منها للتوارد معها، مثل: دائم، ممتد، وارف... الخ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) الكشف: ٧٩٠/٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٣) الكشف: ٥٣٣/٢.

(٤) البحر المحيط: ٣٨٦/٥.

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ وفي تفسير هذه الآية ما يوضح لنا ذلك النعيم الذي لا تستطيع أن تصوره الألفاظ. فكان هذا الحذف للخبر بما يحدثه من ترك الخيال للعقل يتصور من النعيم ما يتصوره مناسباً أشد المناسبة لذلك المقام، الذي يضرب فيه المثل للجنة، إذ يعطي من التصوير البليغ والخيال الممتد ما لا تُعطيه الألفاظ المذكورة بإيجائها المحدودة القاصرة من تصوير الجنة تصويراً يتفق وواقع حالها^(٢).

٣- حذف عناصر مشتركة:

أ - حذف الصفة:

قد يعتمد الأسلوب القرآني إلى حذف اللفظ الواقع صفة في بعض الأحيان، كما أشار السمين الحلبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾^(٣) قال: «إِنَّ (ظَنًّا) له صفة محذوفة تقديره: إِلَّا ظَنًّا بَيْنًا فهو مختص لا مؤكداً»^(٤).

وقال أبو حيان: «فأما الآية، فتأول على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصاً لا مؤكداً، وتقديره: إِلَّا ظَنًّا ضعيفاً...»^(٥).

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٦)، والأصل فئة مؤمنة تقاتل

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) ينظر: من الإعجاز اللغوي: ٣٠٣-٣٠٤.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٣٢.

(٤) الدر المصون: ١١٣/٦.

(٥) البحر المحيط: ٥١/٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

في سبيل الله، فحذفت الصفة لذكر لازمها، وهو القتال في سبيل الله ولدلالة لفظ (كافرة) عليها دلالة لزوم.

يقول أبو حيان: «أي: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحذف من الأولى ما أثبت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أثبت نظيره في الأولى، فذكر في الأولى لازم الإيمان وهو القتال في سبيل الله، وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان وهو الكفر»^(١). فلما دلّ السياق دلالة لزوم على المحذوف من الألفاظ كان ذكره من قبيل الزيادة التي يستغني عنها، فحسن الحذف.

قال ابن الأثير: «ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنّه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن»^(٢). ولاشك أنّ ذكر ما حذف من هذه الآية لا يعطيها ما هي عليه من الحسن بعد الحذف.

ب- حذف الموصوف:

قد يحذف الموصوف ويُبقى على صفته الدالة عليه، لإثراء الدلالة وترك العقل والخيال يقدران من الموصوفات التي تنطبق عليها الصفة، ولقد وضع العلماء شروط في جواز حذف الموصوف فقد ذكر الزركشي أنّه يشترط فيه أمران:

١- كون الصفة خاصة بالموصوف، فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف.

٢- أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث تعلقها بغرض السياق^(٣).

(١) البحر المحيط: ٤١١/٢.

(٢) المثل السائر: ٧٧/٢.

(٣) ينظر: البرهان: ٧١٨؛ وبدائع الفوائد: ٢٧/٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(١) فقوله ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بذكر الصفة دون موصوفها. وقد اختلف العلماء في تقدير هذا الموصوف، فذهب الضحاك والكلبي إلى أن المقصود شهادة التوحيد^(٢)، وكذا ذهب الفراء^(٣) وذهب الزجاج إلى أن المقصود: للحالة التي أقوم، وهي توحيد الله أي، شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسله والعمل بطاعته^(٤). وقال مقاتل: للأوامر والنواهي^(٥). وقال الزمخشري: للحالة التي هي أقوم وأسدها أو للملة أو للطريقة^(٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٧)، قال السمين الحلبي: «حذف الموصوف بالكوثر؛ لأن في حذفه من فرط الشيع والإيهام ما ليس في إثباته»^(٨). وكذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾^(٩).

قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ أي: سفينة: قال

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) البحر المحيط: ١١/٦.

(٣) معاني القرآن: ١١٧/٢.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ٢٢٩/٣.

(٥) البحر المحيط: ١١/٦.

(٦) الكشف: ٦٥١/٢.

(٧) سورة الكوثر، الآية: ١.

(٨) الدر المصون: ٥٧٨/٦؛ وينظر: الباب في علوم الكتاب: ٥٢٥/٢٠؛ والسراج

المنير: ٤٣٧/٤.

(٩) سورة القمر، الآية: ١٣.

الزخشي: وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب مناهجها،
وتؤدي مؤدها بحيث لا يفصل بينها وبينها»^(١).

ج- حذف المضاف:

لقد أوصل ابن جني - كما يذكر السيوطي - هذا الشكل من الحذف إلى ما
يقرب من ألف موضع^(٢) من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(٣). قال
السمين الحلبي: «و(كصيب) معطوف على (كمثل) فهو في محل رفع، ولا بد من
حذف مضافين، ليصبح المعنى، والتقدير: أو كمثل ذوي صيب»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾^(٥). قال الإمام العز: «دلّ
العقل فيه على الحذف؛ لأنّ اللوم على الأعيان لا يصح، وإنّما يلام الإنسان
على كسبه وفعله، فيحتمل أن يكون المقدر لمتني في حبه، لقولهن: (قد شغفها
حبًا) ويحتمل أن يكون لمتني في مراودته، لقولهن: تراود فتاها عن نفسه
ويحتمل أن يكون لمتني في شأنه وأمره، فيدخل فيه المراودة والحب»^(٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٧). قال السمين الحلبي:
«قال أبو البقاء: وفي الكلام حذف مضاف تقديره: طواف الصفا أو سعي

(١) الدر المصون: ٢٢٧/٦؛ وينظر: الكشاف: ٤/٣٥٠.

(٢) الإتيان: ٣/١٨٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩.

(٤) الدر المصون، الآية: ١/١٣٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

(٦) الإشارة إلى الإعجاز: ٥.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

الصفحة»^(١).

وما نراه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْكُمُ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾^(٢).

لقد ذهب المفسرون مذاهب عديدة، تربط جميعها بين هذا الحذف وسياق الحال، فرأى الزجاج أنه لم يذكر البرد هنا «لأن ما وقى من الحر وقى من البرد»^(٣). وذهب الزمخشري إلى أنه اكتفى بالمذكور «لأن الوقاية من الحر أهم عندهم، وقلما يهتمهم البرد لكونه يسيراً محتملاً»^(٤).

وقال ابن عطية: «ذكر وقاية الحر؛ إذ هو أمس في تلك البلاد، والبرد فيها معدوم في الأكثر، وإذا جاء في الشتاء فإثماً يتوقى بما هو أكثر من السربال المتقدم الذكر، فتبقى السراويل لتوقى الحر فقط»^(٥).

د- حذف المضاف إليه:

هذا الحذف وهو حذف المضاف إليه يكون له مواضع محددة وقليلة في القرآن الكريم^(٦). ويذكر السيوطي أنه يكثر هذا الحذف في ياء المتكلم، نحو قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾^(٧)، وفي الغايات، نحو قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ

(١) الدر المصون: ٤١٤/١؛ وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١٣٠/١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٣) معاني القرآن: ٢١٥/٣.

(٤) الكشف: ٦٢٥/٢-٦٢٦.

(٥) المحرر الوجيز: ٤١٢/٣.

(٦) الدر المصون: ١٣٥/١.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥١.

قَبْلَ وَمِنْ بَعْدُ ﴿١﴾ أي: قبل الغلب ومن بعده، وكذلك يحذف بعد ألفاظ (كلّ وبعض وأي) كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ ^(٢) وفي غيرهن ^(٣).

قال السمين الحلبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ﴾: جمهور القراء على تنوين (كلّ) وتنوينه للعوض من المضاف إليه، والجار خبر مقدم، و(وجهة) مبتدأ مؤخر، واختلف في المضاف إليه كلّ المحذوف فقيل: تقديره: ولكل طائفة من أهل الأديان وقيل: ولكل أهل موضع من المسلمين وجهته إلى جهة الكعبة يميناً وشمالاً، ووراء وقدام ^(٤) وذكره أيضاً الزمخشري وأبو حيان ^(٥).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ^(٦). والأصل وجوهكم، فحذف الضمير (كم) الواقع موقع المضاف إليه.

قال أبو حيان: «ثم ذكر هذا الوعيد البالغ، فحذف المضاف إليه من قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ والمعنى: وجوهكم، ثم عطف عليه قوله: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ فأتى بضمير الغيبة؛ لأنّ الخطاب حين كان الوعيد بطمس

(١) سورة الروم، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

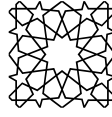
(٣) الإتيان: ١٨٤/٣.

(٤) الدر المصون: ٤٠٥/١؛ وينظر: النشر في القراءات العشر: ٢٥٢/١.

(٥) ينظر: الكشف: ٢٣١/١؛ والبحر المحيط: ٦١٠/١؛ وأنوار الترتيل: ٤٢٥/١.

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٧.

الوجوه باللعنة ليس لهم ليبقي التأنيس والههم، والاستدعاء إلى الإيمان غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذي يوحش السامع ويروع القلب، ويصير أدعى إلى عدم القبول وهذا من جليل المخاطبة وبديع المجاورة»^(١).



(١) البحر المحيط: ٤١١/٢.

البحث الثالث

المناسبة بين الوصل والفصل

الفصل لغةً: القطع أو الحاجز وجاء في اللسان: الفصل: الحاجز بين الشيئين، فصلّ بينهما يفصل فصلاً فانفصل وفصلت الشيء فانفصل: أي: قطعتة فانقطع، والوصل: وصل الشيء بالشيء يصله وصلاً وصلّة وصلّة، واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع^(١).

والوصل اصطلاحاً: عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه^(٢) وإذا ربطنا التعريف اللغوي بالتعريف البلاغي نرى أنّ الارتباط وثيق بين التعريفين، فالفصل قطع الجمل والوصل ربط الجمل.

ويعد الفصل والوصل من المباحث المهمة، فقد احتل منزلة كبيرة في تقدير علماء البلاغة إلى درجة أنّ بعضهم عدّ البلاغة بأنها معرفة الفصل والوصل، وكان فصحاء العرب حريصين كلّ الحرص على مراعاة مواطن الفصل والوصل في كلامهم وخطبهم وينصحون بذلك.

والجاحظ قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: هي معرفة الفصل والوصل^(٣). وعبد القاهر أيضاً يقول: «إنّ الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون منها العطف البتة لشبهه العطف فيها - لو عطف - يعطف الشيء على نفسه. وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون كلاً الاسمين فاعلاً أو مفعولاً أو

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (فصل) و(وصل)؛ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية.

(٢) ينظر: الإيضاح: ١٤٥؛ والتلخيص: ١٧٥؛ وتهذيب السعد: ٥٨/٣، ١١٨/٣.

(٣) ينظر: البيان والتبيين: ٨٨/١.

مضافاً إليه فيكون حقها العطف، وجملة ليست في الشيء من الحاليين... وحتى هذا ترك العطف البتة، فترك العطف يكون إمّا للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحاليين فاعرفه»^(١).

ويمكن القول أيضاً بأنّ أبا هلال العسكري هو أول من اعتنى بمبحث الفصل والوصل فقد أفرد له باباً في كتابه الصناعتين جمع فيه نصوصاً وشواهد كثيرة تحث على مراعاة مواطن الفصل والوصل في الكلام والكتابة، وساق شواهد من الشعر والنثر على أحواله، استشهد لما سماه المأمون في قوله باسم المحلول والمعقود، وأيضاً استشهد لما لم يبين موضع الفصل فيه وللمقطع الحسن في الشعر ولجودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكنها في موضعها.

مواضع الفصل والوصل:

اتفق أكثر أهل اللغة والبلاغة على إنّ الفصل يكون في خمسة مواضع وأنّ الوصل يكون في ثلاثة مواضع^(٢):

أولاً: مواضع الفصل:

وهو أن يكون بين الجملتين (كمال التآلف وتمام الاتحاد)، إذ تنزل الثانية من الأولى المتزلة نفسها وهو (كمال الاتصال) وذلك أن تكون الجملة الثانية تأكيداً للأولى، والمقتضى للتأكيد رفع توهم التجوّز والغلط ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) تجد إنّ

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٨٧.

(٢) ينظر: الإيضاح: ١٤٥؛ والتلخيص: ١٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦.

جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مؤكدة لجملة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، لأن معنى الثانية: يستوي عندهم الإنذار وعدمه، قال الشيخ رشيد: «وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها»^(١).

وقد تنزل الثانية بدلاً من الأولى، والبدل ثلاثة أضرب: المطابق، والبدل جزء من كلّ وبدل الاشتمال. ومن أمثلة بدل الاشتمال قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾^(٢). قال الشيخ رشيد: «وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً لنسيت، على أنه بدل اشتمال من الحوت... ويحتمل أن يكون بدل اشتمال من ضمير أنسانيه ويحتمل الأمرين معاً على طريقة المتنازع ولذلك أخره»^(٣).

وقد تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في إفادة التقرير مع الاختلاف في المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَتٰ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤)، قال السمين الحلبي: «﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد له أو حال منه»^(٥). وقال أبو السعود: «وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد للموصول أو حال منه»^(٦).

(١) أولى ما قيل: ٧٧/١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٣.

(٣) أولى ما قيل: ٢٥/٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

(٥) الدر المصون: ٥١٨/٢.

(٦) إرشاد العقل السليم: ٣٣/٣.

وأيضاً قد تترل الثانية من الأولى مترلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ثَبِّثْ لَنَا إِثْمَكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، قال السمين الحلبي: «(أنت) يجوز فيه التأكيد والابتداء والفصل»^(٢) وهذا رأي أبي حيان أيضاً^(٣).

وقد يكون في الجملة خفاء وإيماء فتأتي بعدها جملة أخرى تكشف هذا الخفاء وتزيل ذلك الإبهام، والمقام يقتضي ذلك، وذلك هو عطف البيان، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٤). قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ في محل جر صفة لكلمة، والمراد بالكلمة هنا عيسى، وسمي كلمة لوجوده بها وهو قوله: (كن فيكون) فهو من باب إطلاق السبب على المسبب. و﴿اسْمُهُ﴾ مبتدأ، و﴿الْمَسِيحُ﴾ خبره، و(عيسى) بدل منه أو عطف بيان»^(٥).

الثاني: أن يكون بين الجملتين (كمال الانقطاع) أي: تباين تام وليس في الفصل إيهام خلاف المقصود، وذلك أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٦) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٢٧.

(٢) الدر المصون: ٣٧٠/١.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ٥٥٩/١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

(٥) الدر المصون: ٩٣/٢.

الْحَشِيعِينَ»^(١). قال الشيخ رشيد: «ويجوز أن يكون في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ انفصال في الكلام والتفات به إلى المؤمنين يثبتهم تجاه هؤلاء المعاندين، ومثل هذا من نهج القرآن وأساليبه»^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، فإنَّ جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ خبرية، وجملة ﴿اتَّقُوا﴾ إنشائية (أمر) لذلك لم تعطف الثانية على الأولى، قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد، وقيل: كرر لتغاير متعلق القولين: فمتعلق الأولى إذاً الفرائض لاقتترانه بالعلم، والثانية: ترك المعاصي لاقتترانه بالتهديد والوعيد»^(٤).

الثالث: أن يكون بين الجملتين رابطة قوية، ويسمى (شبه كمال الاتصال)، وأن تكون الجملة الأولى مورد السؤال الذي قد تضمنته والمقدر فيها، فجاءت الثانية جواباً لها أو جواباً لسؤال قُدِّر في الجملة الأولى وإذ ذاك يجب فصل الثانية عن الأولى لوقوعها جواباً عن السؤال المقدر فيها، ويسمى (شبه كمال الاتصال) أو (الاستئناف)، كقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٥) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ»^(٥)، قال الشيخ رشيد: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويحاسبكم بما تستحقون. ثم استأنف

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤ - من الآية: ٤٥.

(٢) أولى ما قيل: ١٢٤/١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٤) الدر المصون: ٢٩٩/٦؛ وينظر: الكشاف: ٥٠٧/٤.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٤ - من الآية: ٩٥.

الكلام وقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: سيؤكدون إليكم اعتذارهم بالآيمان الكاذبة إذا رجعتم إليهم من سفركم^(١).

الرابع: أن يكون بين الجملة الأولى والثالثة جملة أخرى متوسطة حائلة بينهما فلو عطفت الثالثة على (الأولى المناسبة لها) لتوهم أنها معطوفة على (المتوسطة) فيترك العطف، ويسمى (شبه كمال الانقطاع)، وأن يكون ثمة جملة مسبوقة بجملتين يجوز عطفها على الأولى منهما ولا يجوز عطفها على الثانية فيترك العطف لثلا يُظن أنها معطوفة على الثانية، وتسمى هذه الحالة (شبه كمال الانقطاع)^(٢).

الخامس: أن يكون بين الجملتين تناسب وارتباط لكن يمنع من عطفهما مانع وهو عدم قصد اشتراكهما في الحكم، ويسمى (التوسط بين الكمالين). وأن تكون الجملتان متوسطتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع قيام المانع من الوصول كأن يكون الأولى حكماً يقصد إعطاؤه للثانية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ^(١٤) **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ^(٣) فلو عطف ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ داخلية في كلام المنافقين وهذا بالطبع غير هذا.

ثانياً: مواضع الوصل:

للوصل مواضع ثلاثة هي:

الأول: إذا اتفقت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى

(١) أولى ما قيل: ١٦٢/٤.

(٢) ينظر: النظم القرآني: ٨٨؛ والبيان القرآني: ٦١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤-١٥.

فقط ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما، وكانت بينهما مناسبة تامة. وأن يكون بين الجملتين انقطاع تام فتوصلان دفعا للفهم الخاطئ فقولك لمن سألك عن صحة أبيك المريض: هل تحسنت صحة أبيك؟ فتقول له: (لا وعافاك الله) فإن حرف العطف في جوابك لا بد منه؛ لأن حذفه (لا عافاك الله) يوهم بخلاف المراد، أنت تريد أن تدعوا له وعبارتك توهم بأنها دعاء عليه، والجملتان مختلفتان فالأولى التي تمثلها (لا) معناها (لم تتحسن صحة أبي) فهي خبرية والثانية (عافاك الله) دعائية إنشائية، وكان الفصل بينهما أولى فبينهما (كمال انقطاع) إلا أنه عطف بينهما لثلا يتوهم عكس المراد^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا أَلْزَمْنَهُنَّ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٍ﴾^(٢). قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ عطف الفعل على الاسم؛ لأنه بمعنى أي: وقابضات فالفعل هنا مؤول بالاسم عكس قوله: ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا﴾^(٣)، فإن الاسم هنا مؤول بالفعل»^(٤).

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٦)، أي: إني أشهد الله

(١) البلاغة من منابعها: ١٤٧.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٨.

(٤) الدر المصون: ٣٤٦/٦.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٦) سورة هود، الآية: ٥٤.

وأشهدكم، فتكون الجملة الثانية في هذه الآية إنشائية لفظاً، ولكنها خبرية في المعنى.

الثاني: إذا اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية وكان الفصل يوهم خلاف المقصود كما تقول مجيئاً لشخص بالنفي: (لا وشفاه الله). لمن يسألك هل ترى علي من المرض؟ فترك الواو يوهم السامع الدعاء عليه وهو خلاف المقصود، لأن الغرض الدعاء له، ولهذا وجب أيضاً الوصل وعطف الجملة الثانية على الأولى لدفع الإيهام، وكل من الجملتين لا محل له من الإعراب.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونُ﴾^(١)، قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ هذه جملة أمرية عطف على الأمرية قبلها»^(٢).

الثالث: أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشراك الجملة الثانية لها في الحكم الإعرابي، وهذا كعطف المفرد على المفرد؛ لأن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد. وينبغي هنا أن تكون مناسبة بين الجملتين^(٣) نحو: علي يقول ويفعل. فجملة يقول في محل رفع خبر المبتدأ، وكذلك جملة: ويفعل، معطوفة على جملة يقول وتشاركها بأنها في محل رفع خبر ثان للمبتدأ. وحكم هذه الجملة حكم المفرد المقتضي مشاركة الثاني للأول في إعرابه والأحسن أن تتفق الجملتان في الاسمية والفعلية، والفعليتان في الماضوية والمضارعية، أي ومنها قوله تعالى:

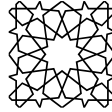
(١) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٢) الدر المصون: ٣٠٣/١.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٥٥٣/٣.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١).

قال الشيخ رشيد: «وأتى بجملة الصلة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ تبصرة للنفوس بأنَّ ما ينفق إنما هو الله وإلى الله...»^(٢).



(١) سورة الأنفال، من الآية: ٢-٣.

(٢) ينظر: أولى ما قيل: ٨١/٤.

المبحث الرابع

المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي

الالتفات فن من فنون البلاغة العربية يكاد يكون غير ملتفت إليه في الدراسات البلاغية الحديثة بل إنّ الحديث عنه غائب حتى في بعض المصنفات القديمة كدلائل الإعجاز. وقد يشار عليه تحت اسم غير الالتفات كالخروج عن مقتضى الظاهر أو العدول، أو الانصراف... وقد تناولته بعض كتب النقد القديمة أيضاً كالعمدة لابن رشيق، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. إنّ للخلفية الدينية دوراً في اهتمام هؤلاء بهذا الفن ذلك أنّه مرتبط بالقرآن ارتباطاً وثيقاً لوروده فيه بكثرة، ولأجل ذلك كان مبحثاً من مباحث علوم القرآن.

مفهوم الالتفات:

الالتفات لغة: قال ابن منظور: لفت وجهه عن القوم: صَرَفَهُ والتفت التفاتاً، والتَّلفَتُ أكثر منه. وتلَفَّت إلى الشيء والتفت إليه: صَرَفَ وجهه إليه ولفته عن الشيء يلفته لفتاً: صرفه، ويقال: لفت فلاناً عن رأيه، أي: صرفته، ومنه الالتفات^(١) قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

واللَّفْتُ: الصَّرَفُ؛ يُقال ما لفتك عن فلان أي ما صرفك عنه. وقال الفيومي: التفت بوجهه يمنة ويسرة ولفته لفتاً لفتاً من باب ضَرَبَ، صَرَفَهُ إلى

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (لفت).

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٨.

ذات اليمين أو الشمال ومنه يقال: لفتّه عن رأيه لفتاً إذا صرفته عنه...^(١).

الالتفات اصطلاحاً: عرف البلاغيون الالتفات واختلفوا في تسميته^(٢). فمنهم من سماه الاعتراض والرجوع والصرف والانصراف والالتفات، وكذلك أطلقوا عليه شجاعة العربية.

ولعل أول من أطلق عليه تسمية الالتفات هو الأصمعي^(٣)، وقد أوضحه ابن الأثير بقوله: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله. فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام؛ لأنّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»^(٤).

وعرّفه ابن المعتز بقوله: «هو انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه معنى آخر»^(٥).

وقد عرّفه العلوي بأنه: «العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول»^(٦)، وعرّفه السبكي: «الالتفات الانتقال من أحد الأساليب

(١) ينظر: المصباح المنير، مادة (لفت).

(٢) ينظر: البديع: ٥٨؛ والصناعتين: ٣٩٢؛ والعمدة: ٤٦/٢؛ والمثل السائر: ٤/٢.

(٣) ينظر: حلية المحاضرة: ١٥٧/١؛ والصناعتين: ٣٩٢؛ والعمدة: ٤٦/٢.

(٤) المثل السائر: ٤/٢.

(٥) البديع: ١٥.

(٦) الطراز: ٢٦٥.

الثلاثة السابقة، وهي التكلم والخطاب والغيبة إلى غيره»^(١). وأمّا الرازي فقد نعت بالعدول وقال: قيل: إنّ العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس.

وتحدث السيوطي عن الالتفات فقال: هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخره أعني من التكلم إلى الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول هذا هو المشهور.

ويتضح أنّ البلاغيين قد اعتمدوا في تعاريفهم للالتفات على التعريف اللغوي، لأنّ المادة اللغوية لفت الدّالة على معنى الانتقال والانصراف والتحويل من حال إلى حال، كنقل الوجه من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، هي نفسها الدّالة على الانتقال من أسلوب إلى أسلوب في التعاريف الاصطلاحية للالتفات^(٢).

وقد وضع السكاكي الالتفات ضمن علم المعاني، فقال فيه: «واعلم أنّ هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثها ينقل كلّ واحد منهما على الآخرة ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب، أدخل في القبول عند السامع وأحسن نظرية لنشاطه، وأمثلاً باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك»^(٣).

شرط الالتفات:

اشترط البلاغيون في الالتفات شرطين هما:

(١) عروس الأفراح: ٤٩٢/١.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٠٧.

(٣) مفتاح العلوم: ١٩٩.

الأول: أن يكون الضمير الملتفت إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه.

والثاني: أن يكون الالتفات في جملتين مستقلتين، وهو الشرط الذي رفضه الإمام الزركشي رحمه الله بقوله: وفي هذا الشرط نظر، فقد وقع في القرآن مواضع، الالتفات فيها وقع في كلام واحد؛ وإن لم يكن بين جزأي الجملة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

صور الالتفات:

يقول الإمام الزركشي: واعلم أن للتكلم والخطاب والغيبة مقامات والمشهور أن الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول. ولأهمية هذا الأسلوب في إعطاء النص إيجابية عالية ودلالة قوية نجده كثيراً ما يتكرر في آيات ونصوص القرآن الكريم مما جعل أكثر المفسرين يهتمون به اهتماماً ملحوظاً، ومنهم السمين الحلبي الذي كان مسلماً لكل آية تحمل التفاتاً فيذكره، وكذلك نجد الشيخ رشيد الخطيب أيضاً قد اهتم بهذا الأسلوب في تفسيره، وكان حريص على ذكر الأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب. ولذا يجب أن نتعرف على أشكال الالتفات المتعلقة بالضمائر في النص القرآني ومناسبتها للسياق اللغوي، إذ لا اختلاف في كونها التفاتاً وتمثل في الأشكال الآتية:

أ - الالتفات من ضمير التكلم إلى الغيبة:

من شواهد هذا النوع من أنواع الالتفات في القرآن الكريم ما نراه في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٣.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١)، قال الشيخ رشيد: «ثم غير الأسلوب من التكلم إلى الغيبة مبالغة في التعظيم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(٣)، قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى الغيبة، إذ لو جاء على نسق الكلام، ل قيل: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ»^(٤).

وقال ابن حبان أيضاً: «وفيه التفات إلى التكلم؛ لزيادة الاعتناء بشأنهم»^(٥). وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٦) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا^(٧) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا^(٨). فنوع الأسلوب بالانتقال من ضمير المتكلم المعظم في ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ إلى ضمير الغائب الدال عليه لفظ الجلالة في ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ والأصل: لنغفر لك. قال الرازي: «و لم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة، وإن كانت عظيمة، لكنها عامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^(٩) ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي ﷺ العصمة،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

(٢) أولى ما قيل: ٩٦/٦.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٤) الدر المصون: ٤٣٨/٤.

(٥) البحر المحيط: ٢٠٦/٤.

(٦) سورة الفتح، الآيات: ٣-١.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فذلك لم يختص بنبينا، بل غيره من الرسل كان معصوماً، وإتمام النعمة كذلك، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وكذلك الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾^(٢) فعمم، وكذلك النصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ^(٤) وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبي ﷺ، فعظمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٦). قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ استثناء مفرغ، لأن ما قبله مفتقر إليه. وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة، إذ لو جرى الكلام على نسقه لقليل: لا تعبدون إلا إيانا، لقوله: ﴿أَخَذْنَا﴾. وفي هذا الالتفات من الدلالة على عظم هذا الاسم. والتفرد به ما ليس في المضمَر»^(٧). وهذا رأي أبي حيان^(٨).

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الصافات، الآيتين: ١٧١-١٧٢.

(٤) مفاتيح الغيب: ٦٩/٢٨.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ٨٣.

(٦) الدر المصون: ٢٧٦/١.

(٧) ينظر: البحر المحيط: ٤٥١/١؛ واللباب في علوم الكتاب: ٢٢٩/٢.

ب- الالتفات من ضمير الغيبة إلى التكلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) جاء الأسلوب القرآني بهذه الآية بفعل القول مسنداً إلى لفظ الرب الذي يدل عليه ضمير الغائب، ثم عدل عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾^(٢)، فأسند فعل القول هذا إلى ضمير المتكلم المعظم. وإنما يرجع هذا الالتفات وعلاقته بالسياق -على حد قول أبي حيان- إلى «أنه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود ووجب عليهم الامتثال، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم؛ لأنه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به من غير بطء ولا تأوّل، لشغل خاطره بورود ما مصدر من المعظم»^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤) فقد انتقل سبحانه من الغيبة في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ دون (بارك حوله) وهو الأصل. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) البحر الحيط: ٣٠٢/١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١.

وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾. قال السمين الحلي: «وفي قوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأن قبله: (اعبدوا ربكم) فلو جاء الكلام عليه ل قيل: «مَّا نَزَّلَ عَلَى عَبْدِهِ، ولكنه التفت للتفخيم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾^(٣)، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»^(٤). وقال السمين الحلي: «قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلم، وإنما كان ذلك؛ لأنَّ المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء»^(٥).

ج- الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة:

ومن روائع وشواهد هذا النوع من أنواع الالتفات في النظم الحكيم ما نراه في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٦)، قال السمين الحلي: «وقوله: ﴿بِهِمْ﴾ فيه التفات

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) الدر المصون: ١٥٢/١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٧.

(٤) أولى ما قيل: ١٤٧/٧؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٥٠/٧.

(٥) الدر المصون: ٢٢٦/٩.

(٦) سورة يونس، من الآية: ٢٢.

من الخطاب إلى الغيبة»^(١) فبيّن نوع الالتفات من دون ذكر غرضه، ولكنه نقل آراء العلماء، فنقل رأي الزمخشري قائلاً: «قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٦٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحِبُّونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾^(٣)، فجرى الكلام في أول هذه الآيات على ضمير المخاطب، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾. قال السيوطي: «والأصل (عليكم)، ثم قال: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكرر الالتفات»^(٤).

وقد يأتي الالتفات لأغراض بلاغية متعددة منها: لغرض التعجب كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(٥)، قال رشيد: «... ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة لتعجب السامعين من أمرهم حيث إنهم لا يدركون الحق ولا يعتبرون بالحكم، ولا

(١) الدر المصون: ١٧/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٧/٤؛ وينظر: الكشاف: ٣٢٣/٢.

(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٦٨-٧١.

(٤) الإتيان: ٢٥٥/٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ٧٢.

يراعون النعم فقال: «أفبالباطل يؤمنون» وهو الإشراك بالله^(١).

وقد يأتي الالتفات لغرض الإبعاد والتحقير مع التجهيل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢)، قال الشيخ رشيد: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل فقال: «مأذا يستعجل منه المجرمون»^(٣).

وقد يكون لغرض المبالغة في الترهيب نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤)، قال الشيخ رشيد: «وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، للمبالغة في الترهيب»^(٥).

وذكر الزمخشري الالتفات في الآية لكنه لم يُبين غرضه^(٦).

وقد يكون الالتفات الأكثر من غرض بلاغي، نحو قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾^(٧)، قال رشيد: «ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار لعدد من مضان التهم مضطربة في مسالك البطلان...»^(٨) وعدل

(١) أولى ما قيل: ١٤٠/٥؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٢٨/٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٠.

(٣) أولى ما قيل: ٢٠١/٤-٢٠٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٧-٦٨.

(٥) أولى ما قيل: ١٩٨/٦-١٩٩.

(٦) ينظر: الكشف: ٢٢٢/٣.

(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٦٧.

(٨) أولى ما قيل: ١٤٧/٧؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٥٠/٧.

الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في ذلك، كأنه أبعدهم عن ساحة الخطاب لقلة فهمهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾^(١).

د- الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب:

يأتي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في كثير من آيات النظم الحكيم كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢)، قال السمين الحلبي: «وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، إذ لو جرى الكلام على أصله ل قيل: الحمد لله، ثم قيل: إياه نعبد، والالتفات: نوع من البلاغة»^(٣). وقال ابن جزي: «ذكر الله تعالى في أول السورة على طريق الغيبة ثم على الخطاب في إياك نعبد وما بعده وذلك يسمى الالتفات وفيه إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾^(٥) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٨﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾^(٥)، والأصل أن يؤتى بضمير الغائب، فيقال جاءوا، ليتفق مع ما قبله، ولكن الأسلوب القرآني عدل عن ذلك مؤثراً الالتفات إلى ضمير المخاطب؛ لأن السياق يتحدث عن هؤلاء القوم الذين افتروا على الله افتراءً عظيماً، فادعوا قولاً تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتهد الجبال، وهو اتخاذه ولداً،

(١) أولى ما قيل: ١٥٩/٦.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) الدر المصون: ٧٥/١.

(٤) التسهيل: ٦٤/١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٨٨-٩٠.

فجاء الخطاب؛ توبيخاً لهم على هذا القول؛ لأنّ توبيخ الحاضر - كما ذكر ابن الهيثم - أبلغ في الإهانة^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(٢)، جاء بضمير الغيبة الدال على الرسول ﷺ في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ثم عدل عنه إلى ضمير الخطاب في ﴿يُذَرِّبُكَ﴾ قال ابن يعقوب المغربي: «فالتعبير بالخطاب المناسب للمقام بالأصالة التفات؛ لأنه مخالف لظاهر سوق الكلام وذلك ظاهر، والسر في العدول عن الخطاب إلى الغيبة أولاً تعظيم النبي ﷺ لما فيه من التلطف في مقام العتاب بالعدول عن المواجهة في الخطاب»^(٣).

وقد يكون الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لعدة أغراض منها: لغرض التهديد نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَبُوءْكُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤)، قال الشيخ رشيد: «ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد...»^(٥).

وقد يأتي أيضاً لغرض المبالغة في الترهيب كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُمْ بِتَقَرُّونَ﴾^(٦). قال الشيخ

(١) الفوائد المشوق: ١٠٨.

(٢) سورة عبس، الآية: ١-٣.

(٣) مواهب الفتاح: ٤٦٦/١-٤٦٧.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ٣.

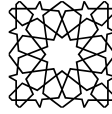
(٥) أولى ما قيل: ١٢٠/٤.

(٦) سورة النحل، الآية: ٥٦.

رشيد: «والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»^(١).

وقد يكون له أكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾^(٢) قال الشيخ رشيد: «... ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب زيادة في التقرير ومبالغة في التهديد فقال: (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر)»^(٣).

وقد يأتي لغرض الإباحة كما ذهب إليه الآلوسي قائلاً: «... وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والمقصود الإباحة والإعلام بحصول الأمان من القتل والقتال»^(٤).



(١) أولى ما قيل: ١٣٥/٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢.

(٣) أولى ما قيل: ١١٩/٤.

(٤) روح المعاني: ٤٣/١٠.

المبحث الخامس

المناسبة بين التعريف والتكثير وسياقها اللغوي

لكل من التعريف والتكثير أساسه ودواعيه التي يقتضيها النظم من خلال السياق تتنوع المعارف إلى ستة أنواع، وهي:

- ١- التعريف بالإضمار.
 - ٢- التعريف بالعلمية.
 - ٣- التعريف (بأل).
 - ٤- التعريف بالإضافة.
 - ٥- التعريف باسم الإشارة.
 - ٦- التعريف بالاسم الموصول.
- ولكل منها أغراض وأسرار يقتضيها المقام. أمّا التكثير، فهو ما شاع في جنسه دون أن يدل على معين^(١). وللسياق دور مهم في تحديد أغراض التكثير. فمن أغراضه:

- ١- التقليل.
- ٢- التكثير.
- ٣- التعظيم.
- ٤- التحقير.
- ٥- العموم.
- ٦- النوعية.

(١) ينظر: البلاغة فنونها: ٣٤٢.

٧- قصد الأفراد.

٨- قصد التجاهل.

وغيرها مما يتطلب المقام^(١).

والأمثلة على اجتماع التعريف والتنكير نجده في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) نجد مواضع التعريف والتنكير في الآية الكريمة في: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، ﴿الْإِنْسَانَ﴾، ﴿حُسْنًا﴾، ﴿عِلْمٌ﴾، ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وكان التعريف في كلمة ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ تمثل التعريف بالإضمار في (وصينا) بضمير (نا) الفاعل الدالة على عظمة المتكلم سبحانه وتعالى.

وأيضاً التعريف بلام الجنس في كلمة ﴿الْإِنْسَانَ﴾، فخرج إلى الاستغراق الحقيقي، لأنّ الامتثال واجب على كل إنسان، فالكل مأمور بطاعة والديه، لأنّ الامتثال واجب على كل إنسان، فالكل مأمور بطاعة والديه، أمّا كلمة ﴿حُسْنًا﴾ نكرها للدلالة على الكمال^(٣) ونكر ﴿عِلْمٌ﴾ للتحقير و﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ «استئناف بياني لزيادة تحقيق ما أشارت إليه مقدمة الآية من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾»^(٤). والتعريف في ضمير المتكلم المجرور

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٥٩/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: م ١٠، ٢١٤/٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق.

بإلى وهو (ياء المتكلم)، وهنا أيضاً (مرجعكم) معرّف بالإضافة، إضافة المصدر إلى ضمير المخاطبين.

وأيضاً نجد مواضع التعريف والتنكير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾^(١) تتمثل في الكلمات الآتية: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾، و﴿مِنْ شَيْءٍ﴾. فلشدة كفر هؤلاء وما هم عليه من سوء جاء التعريف بالموصلية لذكر السبب الدال على إضلال المؤمنين، فقد تصوروا أنّ بإمكانهم تحمّل العقوبة عن المؤمن الذي يتبع طريقهم، وهذا خطأ أرادوا به التعزير.

ثم حكى القرآن ما قالوه: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ معرّفاً بالإضمار في مقام التكلم ﴿سَبِيلَنَا﴾ للتشويق ولفت نظر سامعيهم إلى قولهم -وبئس ما نطقوا به-، فما كان إلّا وبالأعلى رؤوسهم يوم اللقاء الأعظم. ويوضح الله تعالى كذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾، نكّر ﴿شَيْءٍ﴾ للعموم، فليس بمقدور أولئك الحمقى تحمّل أدنى خطيئة لأحد^(٢)، وتنكير ﴿شَيْءٍ﴾ أنه أفاد التقليل.

ونرى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٣) أنّ مواضع التعريف والتنكير: ﴿الْخَلْقَ﴾ و﴿إِنَّ﴾

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: م ١٠، ٢٠/٢١٨.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٩.

ذَلِكَ ﴿ وَيَسِّرُ ﴾، يكون التعريف في كلمة ﴿الْخَلْقَ﴾ بلام الجنس الدالة على الاستغراق الحقيقي، حيث أشارت اللام إلى كل الأفراد التي يتناولها اللفظ؛ فالله هو الخالق لجميع الكائنات، وهو القادر أيضاً على إعادتها بعد مماتها.

ويؤكد على هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، ومعبراً باسم الإشارة للبعيد؛ لتعظيم درجة المشار إليه -بدئ الخلق والإعادة- وأمره سبحانه ثم نكر ﴿يَسِيرٌ﴾ تعظيماً لقدرة الله؛ «إذ لا يفتقر فعله إلى شيء أصلاً»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(١) مواضع التعريف والتنكير نلاحظها في ﴿رُسُلُنَا﴾، ﴿لُوطًا﴾، ﴿سِئَ بِهِمْ﴾، ﴿ضَاقَ بِهِمْ﴾، ﴿إِنَّا﴾، ﴿مُنْجُوكَ﴾، ﴿وَأَهْلَكَ﴾، ﴿أُمَّرَأَتَكَ﴾، ﴿الْغَابِرِينَ﴾ جاء التعريف في ﴿رُسُلُنَا﴾ بضمير المتكلم؛ لعظمته تعالى، وتعظيماً للرسول. ثم ذكر اسم ﴿لُوطًا﴾ السليمة؛ لتمييزه باسم العلم؛ لأن الآية سُبقت بحديث الملائكة لإبراهيم، ثم انتقلوا إلى لوط.

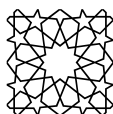
ثم جاء ضمير الغائب (هم) في قوله: ﴿سِئَاءَ بِهِمْ﴾، ﴿وَضَافَ بِهِمْ﴾؛ لأنه عائد على ﴿رُسُلَنَا﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾. فنكر ﴿ذُرْعًا﴾ للدلالة على شدة حيرته وخوفه من قومه أن يصلوا إلى ضيوفه فلا يتمكن من دفع أذاهم، فالتنكير للتعظيم. ويأتي التعريف في ﴿الْغَيْرِيبَ﴾ بلام

(١) تفسير المحرر الوجيز: ٢٥٥/٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٣.

الجنس، أي: هي داخلة في جنس الغابرين، ولام الجنس هنا الإفادة الاستغراق العرفي، أي: الذين عُرِف تكذيبهم للوط عليه السلام.

ونجد أيضاً مواضع التعريف والتنكير في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ ^(١) هي: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾، و﴿مِنْ كِتَابٍ﴾، ﴿الْمُبْطُلُونَ﴾ حيث عبّر بالضمير الغائب في ﴿قَبْلِهِ﴾ العائد على القرآن؛ لأنه سبق ذكره في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ^(٢). فالمراد بالكتاب القرآن الكريم ^(٣). وأكد بـ(من) الزائدة الاستغراق في الكتب ^(٤) وناسب هذا التوكيد تنكير ﴿الْكِتَابَ﴾ للدلالة على عموم الكتب، فلم يسبق له قراءة أيّ كتاب كان. وعرف ﴿الْمُبْطُلُونَ﴾ في ﴿إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ عرفها بلام العهد؛ وذلك لتقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

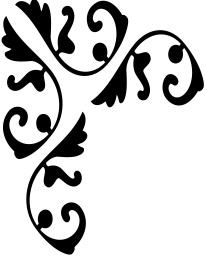


(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٧.

(٣) ينظر: فتح القدير: ٢٠٧/٤.

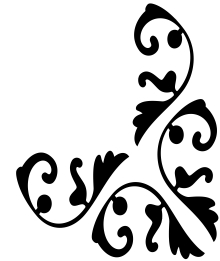
(٤) ينظر: البحر المحیط: ١٥١/٧؛ ونظم الدرر: ٥٦٦/٥.



الفصل الثالث

المناسبة والتناسب في وجوه النظم وبناء الجملة

- ❖ المبحث الأول: التناسب في وجوه الاستفهام.
- ❖ المبحث الثاني: التناسب في وجوه الأمر.
- ❖ المبحث الثالث: التناسب في وجوه النهي.
- ❖ المبحث الرابع: التناسب في وجوه النداء.
- ❖ المبحث الخامس: التناسب في وجوه التوكيد.



الفصل الثالث

المناسبة والتناسب في وجوه النظم وبناء الجملة

المبحث الأول

التناسب في وجوه الاستفهام

الاستفهام: لغة: عرفه ابن منظور بقوله: «عرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه: سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً»^(١).

والاستفهام اصطلاحاً: هو طلب العلم بالشيء المجهول وهو من صيغ الإنشاء الطلي. وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل وذلك بإحدى أداة من أدواته.

وقال السكاكي: «والاستفهام طلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق»^(٢).

وللإستفهام ألفاظ موضوعة له^(٣) وهي (الهمزة)، و(هل)، و(ما)، و(من)، و(أي)، و(لم)، و(كيف)، و(أين)، و(أنى)، و(متى)، و(أَيَّان).

وقد يخرج الاستفهام مجازياً إلى أغراض بلاغية تعرف من سياق الكلام

(١) لسان العرب، مادة (فهم)؛ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١/١٨١.

(٢) مفتاح العلوم: ١٤٦.

(٣) ينظر: الإيضاح: ١/٢٢٨.

وقرائن الألفاظ قال القزويني: «ثم هذه الألفاظ كثيراً ما تستعمل في معاني غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام»^(١).

وقد يخرج الاستفهام إلى معاني كثيرة، يتناسب كل معنى مع المقام الذي جاء فيه، ولا يمكننا الإحاطة فيها، لتباينها بين الوضوح والخفاء، فنراها أحياناً «تجري في النفس جرياناً خفياً تحسها، ولا تستطيع وصفها»^(٢).

وقد يكون للاستفهام الواحد أكثر من معنى، ويقرر البلاغيون أن النكات البلاغية لا تتزاحم.

وهناك أنواعاً كثيرة لخروج الاستفهام مجازياً هي:

١ - الاستفهام للتعجب:

لقد ورد هذا النوع في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾^(٣)، قال السمين الحلبي: «قوله: (ما أكفره) إمّا تعجب وإمّا استفهام تعجب»^(٤).
وذهب أغلب العلماء إلى معنى التعجب، ومنهم: أبو السعود، والبغوي والزحشري^(٥).

وقال ابن عطية: «ما أكفره: يحتمل معناه التعجب ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي: أي شيء أكفره. أي: جعله كافراً»^(٦).

(١) الإيضاح: ٢٣٤/١.

(٢) دلالات التركيب: ٢١٦.

(٣) سورة عبس، الآية: ١٧.

(٤) الدر المصون: ٤٨٠/٦.

(٥) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ١٨٥/٥؛ والكشاف: ٧٠٣/٤؛ وإرشاد العقل

السليم: ١١٠/٩؛ ومعالم التنزيل: ٣٣٧/٨؛ والكشف والبيان: ١٣٢/١٠.

(٦) المحرر الوجيز: ٤١١/٥.

وتبعه أبو حيان^(١) وقد أصبح هذا القسم في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾^(٢). قال الزمخشري: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم ويحتمل التعجب والاستفهام الحقيقي ما ولاهم عن قبلتهم.

٢- الاستفهام للتنبيه:

وهو من أقسام الأمر^(٣). كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يُمُوسَى﴾^(٤). قال الشيخ رشيد: «وهنا الاستفهام تمهيد لما بعده، يتضمن تنبيهاً وإيقاظاً لما سيريه من العجائب المخالف لطبيعتها التي هي عليها، والتي يعلمها منها عليه السلام ممّا عدده لها»^(٥).

وقال الخازن: «سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيهه على إنّها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنّها معجزة عظيمة»^(٦).

وقال أبي السعود في تفسيره: «فالاستفهام إيقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب»^(٧).

٣- الاستفهام للتعظيم:

منها قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(٨). قال السمين

(١) ينظر: البحر المحيط: ٤٢٠/٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية.

(٤) سورة طه، الآية: ٧.

(٥) أولى ما قيل: ٥٩/٦.

(٦) لباب التأويل: ٢٦٦/٤.

(٧) إرشاد العقل السليم: ٩/٦.

(٨) سورة الواقعة، الآية: ٨.

الحلي في تفسيره للآية: «أصحاب الأولى مسنداً و(ما) استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان»^(١) وهذا رأي ابن عطية والرازي^(٢).

وقد ذهب أغلب العلماء إلى أنّ الاستفهام بمعنى التعجب، قال البيضاوي: «والجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير ومعناهما التعجب من حال الفريقين»^(٣).

وذهب ابن عادل إلى معنى التفخيم والتعجب^(٤).

٤- الاستفهام التقريري:

هو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده^(٥). نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٦). قال السمين الحلي: «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾: هذا استفهام معناه التقرير»^(٧)، وقال أبو حيان أيضاً: «هذا أيضاً استفهام دخل على النفي فهو تقرير، فليس له معادل، لأنّ التقرير معناه: الإيجاب، أي: قد علمت أيها المخاطب أنّ الله له سلطان السماوات والأرض والاستيلاء عليهما، فهو يملك أموركم ويدبرها، ويجريها على ما يختاره لكم من النسخ وغيره»^(٨)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

(١) الدر المصون: ٢٥٣/٦.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ١٥٨/١؛ والتفسير الكبير: ١٢٧/٢٩.

(٣) أنوار التنزيل: ٢٨٤/٥.

(٤) ينظر: الباب: ٣٧٧/١٨.

(٥) معجم المصطلحات البلاغية: ١٩٠/١.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ١٠٧.

(٧) الدر المصون: ٣٣٨/١.

(٨) البحر المحيط: ٥١٥/١.

بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ^(١)، قال الشيخ رشيد: «... وقد قرر التثبيت بهذا الاستفهام التقريري فقال: (أتصبرون) على ذلك الابتلاء: يحملهم بهذا الاستفهام على الصبر والثبات»^(٢). وإنَّ غرض الاستفهام في هذه الآية هو الحث والأمر ذكره ابن عاشور^(٣). وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا^٥ قَالَ بَلَىٰ﴾^(٤)، قال السمين الحلي: «والهمزة هنا للتقرير، لأنَّ الاستفهام إذا دخل على النفي قرره كقوله:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطنون راح^(٥)
المعنى: أنتم خير»^(٦).

ومنه مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾^(٧)، قال الشيخ رشيد: «والاستفهام للتقرير، والمعنى: أن الله سبحانه جعل كيدهم فاشلاً خائباً»^(٨)، وقد أكثر الشيخ رشيد الخطيب من ذكر هذا النوع في تفسيره^(٩).

٥- الاستفهام الإنكاري:

يخرج الاستفهام إلى معنى الإنكار كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ

(١) سورة الفرقان، من الآية: ٢٠.

(٢) أولى ما قيل: ٢٠٤/٦.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٣١/١٩.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٦٠.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه: ٨٩.

(٦) الدر المصون: ٦٣٠/١.

(٧) سورة الفيل، الآية: ٢.

(٨) أولى ما قيل: ٢٥١/٩.

(٩) المصدر السابق: ١٧/٤، ٤٨/٧، ١٢٩/٩، ٢١٥/٩.

قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتِكُمْ نَفَرَحُونَ ﴿١﴾، قَالَ السمين الحلبي: «قوله: ﴿أَتُمِدُّونِي﴾ استفهام إنكار» ^(٢) وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيَتِكُمْ نَفَرَحُونَ﴾ ^(٣)، قال الشيخ رشيد: «واختار الأستاذ الإمام أن ﴿أَمْرٌ﴾ في أول الكلام تكون للاستفهام. وهو هنا للإنكار. والمعنى: أيقولون إن محمداً افترى هذا الكلام» ^(٤). وهذا ما ذهب إليه الآلوسي وابن عاشور ^(٥)، وقال أبو السعود: «الهمزة للتوبيخ والإنكار والتعجيب» ^(٦)، وذهب الشوكاني إلى أن «الاستفهام للتوبيخ والتقريع» ^(٧).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(٨). قال أبو حيان: «وهمزة الاستفهام والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والإنكار، فلا يقتضي جواباً؛ لأنه في معنى (كيف وقع حسابان ذلك؟)» ^(٩)، ثم جاء الآلوسي قائلاً: «والظاهر أن (أم) منقطعة، بمعنى دل التي للإضراب بمعنى الانتقال من إنكار حسابان عدم الفتن لمجرد الإيمان إلى إنكار

(١) سورة النمل، الآية: ٣٦.

(٢) الدر المصون: ٣١٣/٥.

(٣) سورة هود، من الآية: ١٣.

(٤) أولى ما قيل: ٢٢٧/٤؛ وينظر: تفسير المنار: ٢٣٨/٧.

(٥) ينظر: روح المعاني: ٢٠/١٢؛ والتحرير والتنوير: ٢١٨/١١.

(٦) إرشاد الفعل السليم: ١٩١/٤.

(٧) فتح القدير: ٧٠٢/٢.

(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٤.

(٩) البحر المحيط: ١٣٦/٧.

حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات»^(١)، وأكد ابن عاشور أن: «(أم) للإضراب الانتقالي، ويقدر بعدها استفهام إنكاري»^(٢).

٦- الاستفهام للتثيت:

جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٣)، قال الشيخ رشيد: «وهذا الاستفهام من باب التثيت والترقية إلى معارج اليقين»^(٤). وقد ذكر أغلب المفسرين أن الاستفهام هنا في معنى الأمر^(٥). وذهب بعضهم أنه مستعمل في الحث على الفعل وعدم تأخير^(٦).

٧- الاستفهام للنفي:

نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٧). قال السمين الحلبي: «قوله: (هل يهلك) هذا استفهام بمعنى النفي، ولذلك دخلت «إلا» وهو استثناء مفرغ، والتقدير: ما يهلك إلا القوم الظالمون»^(٨).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٩)، قال السمين

(١) روح المعاني: ١٣٦/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير: م ١٠٠-٢٠٦/٢٠٦.

(٣) سورة هود، من الآية: ١٤.

(٤) أولى ما قيل: ٢٢٨/٤.

(٥) ينظر: الوجيز: ١/٥١٥؛ ولباب التأويل: ٣/٢٢٢؛ والكشف والبيان: ٥/١٦٠.

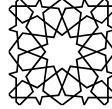
(٦) ينظر: نظم الدر: ٣/٥١٤؛ والتحرير والتنوير: ١١/٢٢٠.

(٧) سورة الأنعام، من الآية: ٤٧.

(٨) الدر المصون: ٣/٦٧.

(٩) سورة آل عمران، من الآية: ١٣.

الحلبي: «وقوله: (من يغفر) استفهام معناه النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء»^(١).
وهذا ما ذهب إليه الزجاج، والبيضاوي^(٢).



(١) الدر المصون: ٢/٢١١.

(٢) ينظر: إعراب القرآن: ١/١٩٩؛ وأنوار التنزيل: ٢/٩٣.

المبحث الثاني

التناسب في وجوه الأمر

الأمر اصطلاحاً: هو طلب فعل الشيء على وجه الاستعلاء، عرفه العلوي بقوله: «هو صيغة تستدعي الفعل أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء»^(١).

وقد عرفه السمين الحلبي بأنه: «طلب الأعلى من الأدنى»^(٢).
وعرفه القزويني بأنه: «هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء»^(٣).
وللأمر أربع صيغ هي:

١- صيغة فعل الأمر: كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٤) وكذلك قوله تعالى: ﴿يَجِيئُ خِذْلُكَتَبٍ يَقُوَّةً﴾^(٥).

٢- صيغة المضارع المقرون بلام الأمر: كقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٦).

٣- صيغة اسم فعل الأمر مثل: صه، وآمين، ونزال، ودراك، كقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

(١) الطراز: ٣/٣٨١.

(٢) الدر المصون: ١/١٦٩؛ وينظر: ٣/٥٠٨.

(٣) ينظر: الإيضاح: ١٤١؛ وشرح التلخيص: ٢/٣٠١.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٦.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢١.

(٦) سورة الطلاق، الآية: ٧.

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

٤ - صيغة المصدر النائب عن فعل الأمر: كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٢)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُرِيدُ أَنْ لِيُولَدِينَ لَهُمْ اِئْتِمَارًا﴾^(٣).

❖ وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي وصيغته إلى معانٍ بلاغية تفهم من سياق الكلام، وحسن التذوق البلاغي، ومن تلك الأغراض نورد ما يأتي:

١ - الأمر للدعاء:

يأتي فعل الأمر على سبيل التفرّع وطلب الحاجة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٤). قال السمين الحلبي: «أهد: صيغة أمر ومعناه الدعاء»^(٥). وأضاف قائلاً: «إن وردت صيغة افعّل من الأعلى للأدنى قيل: فيها أمر وبالعكس دعاء، ومن المساوي التماس»^(٦). وذكر القرطبي معنى الدعاء ولم يذكر الأمر^(٧).

(١) سورة المائدة، من الآية: ١٠٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٥) الدر المصون: ٧٧/١.

(٦) المصدر نفسه: ٧٧/١.

(٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤٧/١.

وقال ابن عادل: «أهد: صيغة أمر، ومعناه الدعاء»^(١). وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢).

قال الشيخ رشيد: «جعل هذا البيان توطئة للدعاء عليهم فقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: بالآفات والحوائج حتى لا يرى لها أثر. ثم نسق مع الدعاء عليهم بيان تحريفهم لطباعهم ليكون كالتعليل الضمني له، وأخرجه مخرج الدعاء، وساق مساقه فقال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما أحاطت بها خطيئاتهم حتى أفقدوها دورها واستعدادها للهدى والرشاد... وأنا أخرجه مخرج الدعاء ونسقه معه، مبالغة في إظهار اليأس منهم»^(٣).

٢- الأمر للتهديد والوعيد:

أي: التخويف وهو أعم من الإنذار؛ لأنه إبلاغ مع التخويف ويأتي الأمر للتهديد والوعيد كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٤). قال الشيخ رشيد: «فإن لم يعتبر كفارككم بمعاقبة من قبلهم، فسировون ما يحل بهم. والأمر بالصبر تهديد ووعد»^(٥).

وقال أبو حيان: «ففي قوله فاصبروا قوة التهديد والوعيد هذا ظاهر

(١) الباب: ٢٠٣/١؛ وينظر: التبيان: ٧/١؛ وروح البيان: ١٤/١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٣) أولى ما قيل: ٢١٤/٤.

(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٨٧.

(٥) أولى ما قيل: ٣٧/٤.

الكلام وأن المخاطبة بجميع الآيات للكفار»^(١) وتبعه الشوكاني^(٢). أمّا الألوسي فقال: إنّ هذا الأمر للوعيد فقط^(٣). وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، فقد جَوَزَ السمين الحلبي أن تكون اللام الواردة في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ هي لام الأمر قائلاً: «قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ يجوز أن تكون لام كي وأن تكون لام الأمر ومعناه التهديد»^(٥).

٣- الأمر بمعنى الخبر:

ويأتي الأمر بمعنى الخبر كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾^(٦)، قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ هذا أمر معناه الخبر»^(٧). وجاء في مواضع متعددة من تفسير السمين الحلبي^(٨).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٩).

(١) البحر المحيط: ٣٤٢/٤.

(٢) ينظر: فتح القدير: ٣٢٧/٢.

(٣) ينظر: روح المعاني: ١٧٩/٨.

(٤) سورة الروم، الآية: ٣٤.

(٥) الدر المصون: ٤٧١/٥.

(٦) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٧) الدر المصون: ٢٠/٥.

(٨) المصدر السابق: ١٨٩/٤؛ و٤٤٨/٤، و٥٢١/٤.

(٩) سورة التوبة، من الآية: ٨٠.

قال الشيخ رشيد: «وعدد السبعين في عرف العرب بمعنى الكثرة. فليس المراد به العدد المعين وليس له مفهوم مخالفة، والمعنى مهما تكثر من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم. والأمر هنا بمعنى الخير»^(١)، وذهب ابن عطية إلى معنى التخيير قائلاً: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون لفظه أمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(٢).

والمعنى الثاني: أن يكون تخييراً كأنه قال له: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم، وإن استغفر سبعين مرة»^(٣). ورجح أن هذا هو الصحيح، وتبعه ابن جزي في ذلك^(٤).

٤- الأمر للامتنان:

ويجوز أن يخرج الأمر إلى معنى الامتنان بحساب مقام الكرام عنها في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٥)، قال الشيخ رشيد: «ثم زاد التحسين تمنناً بقوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: من هذه المخرجات المباركات المنوعات»^(٦).

(١) أولى ما قيل: ١٥٧/٤.

(٢) سورة التوبة، من الآية: ٥٣.

(٣) المحرر الوجيز: ٧٢/٣.

(٤) ينظر: التسهيل: ٤٦٨/١.

(٥) سورة طه، من الآية: ٥٤.

(٦) أولى ما قيل: ٦٤/٦-٦٥.

وإليه ذهب القرطبي^(١) والشوكاني^(٢)، وذكر ابن عاشور أن «الأمر للإباحة مراد به المنّة»^(٣).

٥- الأمر للتوبيخ والإهانة:

نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٤). قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿مُوتُوا﴾ أمر ومعناه الدعاء، وقيل: معناه الخبر أي: إنَّ الأمر كذلك، وقد قال بعضهم: إنه لا يجوز أن يكون بمعنى الدعاء؛ لأنه لو أمره بأن يدعو عليهم بذلك لامتوا جميعاً على هذه الصفة فإنَّ دعوته لا تُردّ، قد آمن منهم كثيرون بعد هذه الآية، ولا يجوز أن يكون بمعنى الخبر؛ لأنه لو كان خبراً لوقع على حكم من أخبر ولم يؤمن أحدٌ بعد، وإذا انتفى هذان المعنيان فلم يبق إلا أن يكون معناه التوبيخ والتهديد ومثله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٥)، «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٦). ويخرج الأمر للإهانة نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾^(٧)، قال الشيخ رشيد: «فأجابهم بجواب صيغ نظمه على الاستهانة بالأمر والاستخفاف به، فهنا كان حاله»^(٨).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/١٩٠.

(٢) ينظر: فتح القدير: ٣/٥٢٩.

(٣) التحرير والتنوير: ١٦/١٣٤.

(٤) سورة آل عمران، من الآية: ١١٩.

(٥) سورة فصلت، من الآية: ٤٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب (الأدب)، باب (إذا لم تستح فاصنع ما شئت): ٥٧٦٩: ٥/٢٢٦٨.

(٧) سورة الإسراء، من الآية: ٥٠.

(٨) أولى ما قيل: ٥/١٧٧.

البحث الثالث

التناسب في وجوه النهي

النهي: هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء وله صيغة واحدة وهي المضارع مع لا الناهية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(١). قال السكاكي: «لنهي حرف واحد وهو (لا) الجازم في قولك: (لا تفعل)، والنهي محذو به حذو الأمر في إنَّ أصل استعمال (لا تفعل) أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور فإن صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب التبرك فحسب»^(٢). فالوجوب والإلزام شرطان يلزمان أسلوب النهي، ويعنيان وجوب إلزام المخاطب بما يُنهى عنه. وقد عرّف السمين الحلبي النهي بأنه: «طلب ترك أو كف»^(٣). وقد تخرج صيغة النهي عن معناها الأصلي إلى معانٍ مجازية يشير إليها السياق ومناسبة المقام.

كالدعاء، والالتماس، والإرشاد، والدوام، وبيان العافية، والتبئس، والتمني، والتهديد، والكرهية، والتوبيخ، والائتناس والتحقيق.

١ - النهي للدعاء:

تأتي صيغة النهي للدعاء من الأدنى إلى الأعلى نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٤)، وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) مفتاح العلوم: ١٥٢-١٥٣.

(٣) الدر المصون: ٥٠٨/٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

إِذْ هَدَيْنَا وَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿١﴾، قال السمين الحلبي: «والنهي في اللفظ للقلوب، وفي المعنى دعاء الله تعالى، أي: لا تزغ قلوبنا فتزيع»^(٢).

٢- النهي للتأكيد والتقرير:

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾^(٣)، قال الشيخ رشيد: «ثم عاد إلى الخطاب العام وختم السياق بما بدأه، وهو النهي عن الإشراك بالله تأكيداً له وتقريراً، على نهج القرآن في مثله فقال: «ولا تجعل مع الله إلهاً آخر» تعبه أو تعمد إليه أو تتوسط به أو تتوكل عليه أو تتبع تشريعه وتعليمه»^(٤). وقال بهذا المعنى أيضاً الشيخ الجزائري^(٥).

٣- النهي للمبالغة:

نحو قوله تعالى: ﴿كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦)، قال السمين الحلبي: «والنهي في الصورة للحرج، والمراد الصادر منه مبالغة في النهي عن ذلك، كأنه قيل: لا تتعاط أسباباً ينشأ عنها حرج، وهو من باب (لا أرينك ههنا) النهي متوجه على المتكلم، والمراد به المخاطب، كأنه قال: لا تكن بحضرتي فأراك ومثله: ﴿فَلَا يَصُدَّنْكَ عَنْهَا مَنْ

(١) سورة آل عمران، من الآية: ٨.

(٢) الدر المصون: ١٦/٢.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ٣٩.

(٤) أولى ما قيل: ١٧٥/٥.

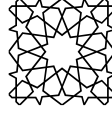
(٥) ينظر: أيسر التفاسير: ١٩٥/٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢.

لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى ﴿١﴾﴾^(١).

٤- النهي للكراهية:

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾^(٢). قال القرطبي: «لا تمش...» هذا نهي عن الخيلاء وأمر بالتواضع والمرح شدة الفرح وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي، وقيل: هو البطر والأثر. وقيل: هو النشاط وهذه الأقوال متقاربة، ولكنها منقسمة قسمين: أحدهما مذموم، والآخر محمود^(٣). وقال الزمخشري: «(لن تخرق الأرض) لن تجعل فيها خرقاً بدوسك وهو تهكم المختال»^(٤).



(١) سورة طه، الآية: ١٦.

(٢) الدر المصون: ٢٢٩/٣.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ٣٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٣٤/١.

(٥) الكشف: ٦٢٤/٢.

المبحث الرابع

التناسب في وجوه النداء

النداء: هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب (أنادي) أو (أدعو)^(١). وأدوات النداء ثمانية، منها ما هو لنداء قريب، وهما حرفان: الهمزة، و(أي). وبقية الحروف لنداء البعيد: (يا، آ، أيا، هيا، وا)^(٢).

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣). موضع

النداء ﴿قَالَ رَبِّ﴾، لم يتوقف المفسرون عند أسلوب النداء، لكن يمكن القول بأن حرف النداء (يا) المحذوف هنا هو لنداء البعيد، وما كان حذفه إلا لغرض بلاغي، وهو إحساس سيدنا لوط بشدة قربه من الله، ولاسيما عندما تخلى عنه قومه، فلجأ إلى الله بالدعاء وطلب النصر منه. واختار كلمة (رب) دون غيرها، لما تحمله من التلطف وطلب الإحسان، كذلك مناسبة السياق الذي هيأه لاختيار لفظة الرب، والتي تبعث الإحساس بالقرب من الله^(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾^(٥).

موضع النداء: ﴿يَعْبَادِيَ﴾، حرف النداء (يا)، هو لنداء البعيد، وقد جاء النداء من الله إلى عباده المؤمنين المفتونين في دينهم، لتبهيهم إلى أمر عظيم قد غفلوا عنه، ولأهمية الأمر جاء النداء للبعد بالرغم من إن الله أقرب إلى عباده من جبل الوريد^(٦).

(١) ينظر: بغية الإيضاح: ٥١/٢.

(٢) ينظر: أثر النظم: ٨٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣٠.

(٤) ينظر: أثر النظم: ٨٦.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

(٦) ينظر: علم المعاني: ٢٠١.

البحث الخامس

التناسب في وجوه التوكيد

تفاوت أحوال المخاطبين عند توجيه الكلام إليهم، فمنهم من هو خالي الذهن، يقتنع بما تقوله، ومنهم من هو شاكّ متردد يحتاج معه إلى تأكيد كلامك، وفئة ثالثة -وهي المبتكرة- تحتاج منك ترجيح الكلام بأكثر من مؤكد، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وللتوكيد أدوات عدة، من أشهرها: (إن، ولام الابتداء، وأحرف التنبيه، والقسم، والحروف الزائدة، وقد، وأما الشرطية، وضمير الفصل، واسمية الجملة، وتقديم الفاعل المعنوي).

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٢) نجد موضع التوكيد هو ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، حيث أكد الجملة ببنائها على الاسم (هم)، ثم الإخبار عنها بالفعل مسند إلى ضمير عائد على مبتدأ، فأفاد ذلك تكرار الإسناد، ومن هنا كان التوكيد. وبناء الفعلين (يتركوا- ويفتنون) للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل، والمعنى: (أحسبوا أن يتركوا خالين من فتون الكافرين)؟ لما قد عرف من مناصبة الناس العدا لمن خالفهم في الدين والمعتقد^(٣) حيث نجد إن موضع التوكيد في الآية ﴿وَلَقَدْ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: م١٠، ٢٠/٢٠٣.

فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١﴾ حيث أكدت

الجملة بـ: ١- اللام الدالة على قسم محذوف في ﴿وَلَقَدْ﴾.

٢- حرف تحقيق (قد).

٣- اللام الموطئة للقسم في ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾.

أما نون التوكيد فلا تُعدّ من المؤكّدات؛ لأنها مؤكدة لفعل، وليست مؤكدة للنسبة (أي: الحكم الذي اشتملت عليه الجملة)^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) نلاحظ هنا موضع التوكيد جاء في قوله: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الآية، أكد الجملة بلام القسم ﴿لَنُكَفِّرَنَّ﴾، أي: لنغفر ما كانوا عليه من الشرك^(٣)، أو بمعنى: «لنغطينها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا من الصالحات»^(٤) ويتكرر أسلوب التوكيد بالقسم في ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، أي: بأحسن جزاء، أو يجزيهم بأكثر ما عملوا وأحسن^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٦) موضع التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا

(١) ينظر: شروح التلخيص (عروس الأفراح): ٢١٩/١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٧.

(٣) ينظر: نظم الدرر: ٥٣٨/٥.

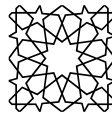
(٤) فتح القدير: ١٩٣/٤.

(٥) ينظر: المصدر السابق.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

أَفْقَاهُمْ»، ﴿وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، لما كان إنكارهم للآخرة جلياً واضحةً ناسب مجيء أسلوب التوكيد بلام القسم الدالة عليه، وتقدير القسم المحذوف: (والله ليحملن أثقاهم كاملة)^(١). ثم كرر أسلوب التوكيد وأدواته في قوله: ﴿لَيَسْأَلَنَّ﴾، وذكر السؤال بعد ذكر الجزاء لما للسؤال على طريق الازدراء والإذلال من الركب في القلب ما ليس للأفعال^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣) موضع التوكيد في قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ولشدة إنكار الكافرين لوقوع العذاب أكد الجملة بأكثر من أداة، فلام القسم أكدت على حصول ما استبعدوا حدوثه، فجاءت في وقت لا يعلمه إلا هو سبحانه، وتقدير القسم: (وبالله ليأتينهم العذاب)^(٤)، ثم زاد في تأكيد نزول العذاب بهم فجأة بإسناد الفعل (يشعرون) إلى المبتدأ (هم)، وبناء الجملة الفعلية على الضمير (هم) أفاد التوكيد من حيث كون الفعل (يشعرون) أسند مرتين: مرة إلى الضمير (هم) باعتباره مبتدأ، ومرة أخرى إلى واو الجماعة العائدة على الضمير (هم)^(٥).



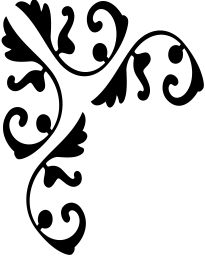
(١) ينظر: تفسير المحرر الوجيز: ٢٥٣/٤.

(٢) ينظر: نظم الدرر: ٥٤٢/٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٥٣.

(٤) ينظر: تفسير المحرر الوجيز: ٢٦٤/٤.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: م ١٠، ١٨/٢١.



الفصل الرابع

المناسبة في وجوه النظم والصورة البيانية

❖ المبحث الأول: المناسبة والتناسب في صور التشبيه.

❖ المبحث الثاني: المناسبة والتناسب في صور المجاز.

❖ المبحث الثالث: المناسبة والتناسب في صور الاستعارة.

❖ المبحث الرابع: المناسبة والتناسب في صور الكناية.



الفصل الرابع

المناسبة في وجوه النظم والصورة البيانية

البحث الأول

المناسبة والتناسب في صور التشبيه

التشبيه لغةً: قال ابن منظور: «الشبه والشبيه المثل، أشبه الشيء، وأشبهت فلاناً وشأهته واشتبته عليّ، وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كلّ واحدٍ منهما صاحبه، والتشبيه التمثيل»^(١).

اصطلاحاً: هو عقد مشاهمة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر، وحده السكاكي بقوله: «إنّ التشبيه مستدع حرفين مشبّهاً ومشبّهاً به، واشتركا فيهما من وجه واختلفا من آخر»^(٢).

وقال الرماني: «التشبيه هو العقد على إنّ أحد الشيئين يسد مسدّ الآخر في حسن أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس»^(٣).
فلاحظ أنّ التشبيه في الأصل: يطلق على الإخفاء، فيقال: شُبّه هذا أي أخفي، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ شُبّه لَهُمْ﴾^(٤)، أي: أخفي عليهم عيسى ابن مريم، فظنوا أنّهم صلبوه، وقتلوه، وما قتلوه ولكن شُبّه لهم. ويقال: هذا أمر مشتبّه فيه، أي: فيه خفاء، ويقال: هذه شبهة، أي: مدعاة للريب.

(١) لسان العرب، مادة (شبه).

(٢) مفتاح العلوم: ١٥٧.

(٣) النكت: ٧٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

ويعرف أبو هلال العسكري بقوله: «التشبيه: الوصف بأنّ أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، شاب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه»^(١).

وابن رشيق يعرفه بقوله: «التشبيه صفة لشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو من جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛ لأنّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أنّ قولهم: (خد كالورد) إنّما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه»^(٢).

وقد عرفه العلوي بقوله: «هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بالكاف ونحوه، أو هو الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها»^(٣).

وقال الخطيب القزويني: «التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى»^(٤).

ويعد التشبيه من أهم الفنون البلاغية وأقدمها استعمالاً عند الشعراء، كما يعد مقياساً في تعيين شاعرية الشاعر^(٥). وقد وصفه صاحب الطراز بأنه: «بحر البلاغة وأبو عذرتها وسرها ولباها وإنسان مقلتها»^(٦). ولا تخفى أهميته وشيوعه في اللغة الشعرية، فهو يمنحها القدرة على التصور الدلالي، كما أنّ له

(١) كتاب الصناعتين: ٢٣٩.

(٢) كتاب العمدة: ٢٥٦/١.

(٣) كتاب الطراز: ٢٦٣/١.

(٤) ينظر: متن التلخيص في (مجموع المتون الكبرى): ٤٧٣.

(٥) ينظر: البديع: ١٧٣.

(٦) الطراز، العلوي: ٣٢٦/١.

قدرة كبيرة على بناء دلالة الخيال التصوري^(١).

واعلم أنّ التشبيه موقعاً حسناً في البلاغة - وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي وإيتائه البعيد من القريب، يزيد المعاني رفعةً ووضوحاً، ويسكبها توكيداً وفضلاً ويكسوها شرفاً ونبلاً. فهو يجمع بين المبالغة والبيان والإيجاز والتوكيد^(٢).

ونذكر هنا بعض الأمثلة التي تبين معنى التشبيه وماهيته بشكل أوضح.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٤).

ما بين الآيتين من تصريف المعاني ومن مشتبته النظم جليٌّ لا يخفى؛ ففي

آية سورة آل عمران جاء قوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾، وقوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ دون أداة تشبيه مع جمع السماء. وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٥) وفي آية سورة الحديد جاء قوله: ﴿سَابِقُوا﴾.

و: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بدأه تشبيه مع ذكر المشبه المضاف

(عرض) وإفراد المضاف إليه (السماء)، و﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٦).

(١) ينظر: بحث الصورة الشعرية: ٣٦.

(٢) ينظر: فن التشبيه: ٦٤، ٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٥) ينظر: العزف على أنوار الذكر: ١١٨.

(٦) ينظر: المصدر السابق: ١١٨.

وغير خفي أنّ هذه المفارقات لها تأثير كبير في سياق السورة الجزئي وسياقها الكلي. وفي الآية سورة آل عمران كان الأمر بالمسارعة وفي آية سورة الحديد بالمسابقة. وكانت الجنة الموعود بها في آية سورة آل عمران عرضها السماوات والأرض، والجنة الموعود بها في آية سورة الحديد عرضها كعرض السماء والأرض، وفي آية سورة آل عمران كانت الجنة للمتقين، وفي آية سورة الحديد كانت الجنة للذين آمنوا^(١).

إنّ سياق سورة آل عمران هو في بيان ركن العقيدة وإقامة الأدلة على وحدانية الله ﷻ وكذلك التشريع^(٢). أمّا آية سورة الحديد فقد جاءت في سياق التشريع والتربية، وتبني المجتمع الإسلامي على أسس العقيدة والخلق الكريم، والتشريع الحكيم^(٣).

وفي لفظ ﴿وَسَارِعُوا﴾ هنالك رمز إلى أنّ كلهم مستوون في القرب أو متقاربون؛ لأنّ المرتبة العليا واحدة وهي مرتبة السابقين المقربين، وأنها غاية الرتب الإنسانية^(٤).

قال البقاعي: «فآية (آل عمران) الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ؛ لأنّها للحث على التمرد على النفس والمال وجميع الخطوط أصلاً ورأساً، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصوفين. وأمّا هذه -أي آية الحديد- ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته

(١) ينظر: العزف على أنوار الذكر: ١١٩.

(٢) ينظر: صفوة التفاسير: ١١٥/١.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٣٠٧/٣.

(٤) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٥٨/٦.

الذين آمنوا»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، حيث دل التشبيه في الآية الكريمة على معنى الإنكار والتوبيخ، وتم ذلك من خلال معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله من إن: رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن اعتمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتهم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، فجاء التشبيه لغرض الإنكار والتوبيخ لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد. وقال البقاعي: «أنكر على من لم يفرق بين الصنفين موجاً لهم والآية من الاحتباك حذف أولاً المشبه به لدلالة المشبه عليه وحذف المشبه لدلالة المشبه به عليه...»^(٤).

قال الشاعر يمدح:

كَأَنَّ أَخْلَاقَكَ فِي لَطْفِهَا ورقة فيها نسيم الصباح

(١) نظم الدرر: ٤٥٤/٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٩.

(٣) ينظر: أسباب النزول: ٢٣٣.

(٤) نظم الدرر: ٢٨٩/٣.

فالشاعر معجب بأخلاق ممدوحة في لطفه ورقته، ولكنه أراد أن يزيد هاتين الصفتين قوة أكثر، ففكر فلم يجد ما يضاهي الخصلتين ويشاركهما في الصفة إلا نسيم الصباح فضاهاه بهما، وليوضح هذه المضاهاة والمشارك أتى بـ«كأن».

وقال شاعر آخر:

العمر مثل الضيف أو كالطيف ليس له إقامة
فالشاعر بحكم التجربة والمشاهدة يعرف أن العمر شديد القصر سرعان ما يزول وينقضي، فأراد أن يأتي بشيء هو شبيه لهذا العمر في شدة القصر وسرعة الزوال، فتأمل فوجد ما هو شبيه ومقارب له في هذه الصفة وهما الضيف والطيف في عدم إقامتهما طويلاً وسرعة رحيلهما وذهابهما.
ولبيان المقاربة أتى بـ(مثل) و(الكاف).

ومنه أيضاً تشبيه القلوب بالحجارة: كما في قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١) أي: في القسوة وعدم التأثر، فشبه حال قلوبهم وهو إعراضها عن الاعتبار بقسوة الحجارة في إنها لا يجري فيها لطف العمل؛ إذ القسوة في الأصل تعني: اليبس والصلابة، وفي ﴿قَسَتْ﴾ استعارة تبعية أو تمثيلية^(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٢٩٥/١.

وكذلك التشبيه بالأنعام: كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)، ومعنى التشبيه بالأنعام المبالغة في غفلتهم، وعدم انتفاعهم بأسماعهم وأبصارهم فبذلك شبّهوا بالأنعام^(٢)، وهو تشبيه جديد له دلالة مبتكرة يعود الفضل فيها إلى القرآن الكريم^(٣).

أركان التشبيه:

الأصل في التشبيه أن يكون فيه أربعة أجزاء هي:

- ١- المشبه.
- ٢- المشبه به، ويطلق عليها (طرفا التشبيه).
- ٣- أداة التشبيه الدالة عليها كالكاف ونحوها.
- ٤- وجه الشبه: وهو المشترك الجامع بين المشبه والمشبه به، ويجب أن يكون أقوى وأظهر منه في المشبه به منه في المشبه^(٤).

طرفا التشبيه:

طرفا التشبيه هما المشبه والمشبه به، وهما ركناه الأساسيان ولا يقال تشبيه إلا إذا كانا فيه.

وأساس التشبيه عند قدامة بن جعفر أنه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفاتها^(٥).

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: روح المعاني: ١/١٢٥.

(٣) ينظر: بحوث منهجية: ٤٨-٤٩؛ البلاغة الميسرة: ١٢٧-١٢٨.

(٤) ينظر: بحوث، منهجية: ٤٩.

(٥) ينظر: نقد الشعر: ٧٧-٧٨.

وقد تابع ابن رشيقي قدامة في رأيه يقول في كتابه ما معناه: إنَّ المشبه لو ناسب المشبه به مناسبة كلية لكان إياه، كقولهم: (فلان كالبحر) إنما يريدون كالبحر سماحةً وعلماً، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته^(١).

ويقول أبو هلال العسكري: «ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما، وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن. وعلى هذا قول الله ﷻ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٢)، وإنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها، لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع الجهات لكان هو هو»^(٣).

وهذه بعض الأمثلة التي توضح طرفاً التشبيه فالعرب تقول: (خذ كالورد) إنما أردوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضر كوائمه، فنواحي الائتلاف والاتفاق في الحمرة والطراوة، ونواحي التمايز والاختلاف في الصفرة والخضرة^(٤).

والعرب تقول أيضاً: (فلان كالليث)، إنما يريدون كالليث شجاعةً وجرأةً وقوةً، لا شتامة^(٥) الليث وزهومة^(٦).

(١) العمدة: ٢٥٦/١.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٤.

(٣) كتاب الصناعتين: ٢٣٩.

(٤) ينظر: بحوث منهجية: ٤٩-٥٠.

(٥) الشتامة: العبوس.

(٦) الزهومة: الرائحة الكريهة.

المبحث الثاني

المناسبة والتناسب في صور المجاز

تعريف المجاز لغةً:

قال ابن منظور: «جَزْتُ الطريقَ وجازَ الموضوعُ جوازاً، وجازَ به وجاوزه وأجازَه غيره وجاهزه وجاوزه وأجازَ غيره، وجاهزه، سار فيه وسلكه وجاوزت الموضوعَ جوازاً بمعنى جزته. والمجازُ والمجازةُ الموضوع»^(١). وقال الجرجاني: «مصدر ميمي على وزن (مفعَل) معناه الجواز والتعدية من جاز الشيء إذا تعدّاه»^(٢) وهو اسم مكان كالمطاف والمزار، والألف فيه منقلبة عن واو، وقيل: الباب الذي يخرج منه. والمجاز مفعَل من جاز فقد سبق أن المفعَل يأتي للزمان والمكان والمصدر، وجاز الشيء يجوزُه إذا تعدّاه، والمجاز يطلق على الممر ويقال: هذا مجاز بني فلان أي: الممر الذي يمرون منه، وسوق ذي مجاز من أسواق العرب في الجاهلية، أي: سوق ذي الممر، والسوق الذي فيه ممر ضيق يمر الناس منه»^(٣).

وقال ابن الأثير: «أمّا المجاز فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز هذا الموضوع إلى هذا الموضوع إذا تخطّاه إليه. فالجواز إذن اسم للمكان الذي يجاز فيه، كالمعاج والمزار وأشباههما وحقيقة هي الانتقال من مكان إلى مكان، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل»^(٤).

(١) لسان العرب، مادة (جوز).

(٢) أسرار البلاغة: ٣٠٠.

(٣) البلاغة الميسرة: ١٧٠.

(٤) المثل السائر: ١٠٦.

المجاز اصطلاحاً:

وقال السكاكي: «المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعه له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناه في ذلك النوع»^(١).

وعرفه السيوطي بقوله: «المجاز استعمال اللفظ فيما لم يوضع له»^(٢). وعرفه الجرجاني بقوله: «وأمّا المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضع له في وضع واضعها، فهي مجاز»^(٣). وهو أيضاً يعني: استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل؛ لعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وسمّي مجازاً؛ لأنه متعدد من محل الحقيقة إلى محل المجاز فإذا كانت العلاقة المشابهة فالمجاز استعارة، وإلا فهو مجاز مرسل، والقرينة: هي المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، وقد تكون لفظية^(٤).

أقسام المجاز عند البلاغيين:

قسّم البلاغيون المجاز على قسمين: المجاز العقلي، والمجاز اللغوي، ويعد الجرجاني أول من وقف عليه، وقسّمه هذا التقسيم، فالعقلي هو الذي يعتمد

(١) مفتاح العلوم: ١٧٠.

(٢) الإتيان: ١٠٧/٤.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٦٣.

(٤) ينظر: التعريفات: ٢٢٥.

على الإسناد، واللغوي نوعان: الأول: يقوم على المشابهة، ويسمى الاستعارة، والثاني: يسمى بالجاز المرسل^(١).

اقسام المجاز:

أولاً: المجاز العقلي

هو المجاز الذي يكون في الإسناد أو التركيب وقد سمي كذلك؛ لأنه متلقى من جهة الإسناد وهو المجاز العقلي^(٢).

وقد سماه الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في (دلائل الإعجاز)^(٣)، في حين سماه (المجاز العقلي)^(٤) في أسرار البلاغة.

وعرفه السكاكي بقوله: «هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقوله: أنبت الربيع البقل»^(٥).

ويعرفه البلاغيون بأنه: «إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى ملابس غير ما هو له بتأويل»^(٦)، ويقصد بما في معنى الفعل نحو المصدر، واسم الفاعل، وبالملابس ما يلبس الفعل من الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والسبب، وتفسير الملابس بينهما بالعلاقة^(٧).

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٧٦.

(٢) التبيان: ١٠٦؛ والإتقان: ٣٦/٢؛ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٩٩/٣.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٢٧-٢٢٨.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة: ٢٧٥.

(٥) مفتاح العلوم: ١٨٥.

(٦) الإيضاح في علوم البلاغة: ١٦.

(٧) المصدر السابق: ١٦.

وقد عرّفه الخطيب القزويني بقوله: «هو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو بتأويل». ولل فعل ملابس شتى، فهو يلبس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب، فإسناد الفعل إلى الفاعل إذا كان مبنياً له حقيقة، وكذا إسناده إلى المفعول إذا كان مبنياً له. أمّا إسناد الفعل إلى غيرهما لمشابهته لما هو له في ملابسة الفعل فمجاز، كقولهم في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وكقولهم في عكسه: سيل مفعم، وفي المصدر: شعر شاعر، وفي الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر، ونهر جار، وفي السبب: بنى الأمير المدينة^(١).

ويسميه البلاغيون أيضاً المجاز الإسنادي والإسناد المجازي ويكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره أو بإسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو بالعكس.

علاقات المجاز العقلي:

من المعلوم أنّ هناك علاقات للمجاز العقلي يمكن أن نوردّها كما يأتي:

١ - العلاقة المفعولية (ما بني للفاعل وأسند إلى المفعول):

وفيهما يسند المبني للفاعل إلى المفعول، وإن شئت فقد يسند الوصف المسند للفاعل إلى المفعول. نحو: سرتني حديث الواق فقد استعمل اسم الفاعل، وهو الواق، أي (المُحبُّ) بدل الموموق، أي: المحبوب، فإنّ المراد: سررت بمحادثة المحبوب^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٣). قال الشيخ رشيد: «أي

(١) الإيضاح لمختصر تلخيص: ٢٠.

(٢) ينظر: الدلالة والمعنى: ٣٤٥.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٢١.

مرضية، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف»^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢). قال السمين الحلبي: «إِنَّ (عَاصِمَ) بمعنى معصوم، وفاعل قد يجيء بمعنى مفعول نحو: (ماء دافق) أي: مدفوق، وأنشد:

بطيء العتامٍ رحيم الكلا م فأمسى فؤادي به فاتنا^(٣)
أي: مفتونا، و(من) يراد بها المعصوم، والتقدير: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، فإنه يعصم»^(٤).

٢- علاقة الفاعلية: (ما بني للمفعول وأسند إلى الفاعل)

وفيما يسند الوصف المبني للمفعول إلى الفاعل أي: يستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، نحو: (جعلت بيني وبينك حجاباً مستوراً) أي: ساتراً، فقد جعل الحجاب مستوراً، مع إنه هو الساتر، ولكن الذي حدث أنه جيء بالمسند مبنياً للمفعول (مستور) ثم أسند إلى الفاعل.

وقال عَلَيْكَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٥)، فالجواز في (مأْتِيًا)، وعلاقته الفاعلية، فالوعد لا يكون مأْتِيًا، وإنما هو آت، فأسند اسم المفعول إلى الفاعل. والعرب تقول: (عيش مغبون). فالجواز في كلمة (مغبون) وعلاقته

(١) أولى ما قيل: ٨٧/٩.

(٢) سورة هود، من الآية: ٤٣.

(٣) لم أعثر على قائله.

(٤) الدر المصون: ١٠٢/٤.

(٥) سورة مريم، الآية: ٦١.

الفاعلية، فالعيش لا يغيب؛ لأن الإحساس بالغيب من صفات الأحياء، فالعيش غابن، وقد أسند المبني للمفعول إلى الفاعل^(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(٢). قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿مَسْتُورًا﴾... أنه بمعنى فاعل كقولهم: مشؤوم، وميمون، بمعنى: شائم ويأمن، وهذا كما جاء اسم الفاعل بمعنى المفعول»^(٣).

وذكرها الشيخ رشيد في تفسيره قائلاً: «ومن مباحث اللفظ أن اسم المفعول هنا استعمل بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله على طريق المجاز العقلي»^(٤).

٣- علاقة الزمانية (ما بني للفاعل وأسند إلى الزمان):

تحدث هذه العلاقة عندما يسند الفعل وشبهة للزمان.

ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾^(٥). قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿أَلِيمٍ﴾ إسناد الألم إلى (اليوم) مجاز لوقوعه فيه لا به. وقال الزمخشري: «فإذا وصف به العذاب» قلت: مجاز، لأن الأليم في الحقيقة هو المعذب، ونظيرهما قولك: فشارك صائم»^(٦).

(١) ينظر: بحوث منهجية: ١٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

(٣) الدر المصون: ٣٩٥/٤.

(٤) أولى ما قيل: ١٧٦/٥.

(٥) سورة هود، الآية: ٢٦.

(٦) الدر المصون: ٩١/٤؛ وينظر: الكشف: ٣٦٧/٢.

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(١). فقد نسب فيه الفعل ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ إلى ظرف ﴿يَوْمًا﴾ لوقوعه.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾^(٢) فاليوم لا يعصف، وإنما عصوف ريحه يكون فيه، ففي الإسناد مجاز عقلي، علاقته الزمانية.

وقال أبي البقاء الرندي^(٣):

هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ من سرّة زمن ساءتُه أزمانُ
فقد أسند الفعلين «سرّ، وساء» إلى الزمن^(٤)، وهو لم يفعلهما، كما هو معلوم بالعقل، بل كانا واقعين فيه، وكان هذا الإسناد على سبيل المجاز.

٤- العلاقة المكانية:

هي: إسناد الفعل إلى ما هو مكان إقامة الفاعل، أو ظرف مكانه بدلاً من الفاعل، نحو قول إسماعيل بن عمار الأسدي^(٥) الطويل:

بكت دار بشرٍ شجوها إذ تبدّلت هلال بن مرزوق يبشر بن غالب
فقد أسند الفعل «بكت» إلى المكان «الدار»، وهي ظرف مكان

(١) سورة المزمل، الآية: ١٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

(٣) شعره، جمعه وحققه على أصول مخطوطة ومطبوعة: د. إنقاذ عطا الله محسن العاني، مجلة الأستاذ، كلية التربية- جامعة بغداد، العدد: ٢٤، عام ٢٠٠١م.

(٤) ينظر: علوم البلاغة، المراغي: ٣٠٣.

(٥) شعره- إسماعيل بن عمار الأسدي- أخباره وشعره، جمع وتحقيق ودراسة: حميد آدم ثويني، مجلة أبحاث جامعة صلاح الدين- العراق، العدد ٢، ٣، السنة الثانية، عام ١٩٩٠م.

الفاعل، وهي لا تبكي، بل الذي يبكي هو ساكنها.
وتحدث العلاقة المكانية عندما يسند الفعل وشبهه للمكان.

كما في قول الشاعر:

يعني كما صرحت أكلة وقد نبه الصبح أطيّارها^(١)
فقول الشاعر: «يعني كما صدحت أكلة» هنا مجاز عقلي، فقد أسند فيه
الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، ذلك لأنّ الأكلة لا تغني، وإنما هي مكان الطيور
التي تصدح، فالعلاقة مكانية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٢) وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ^(٣)
قال الشيخ رشيد: «وفي كلمة (مقيم) مجاز عقلي؛ لأنها في الحقيقة صفة
لإطلال تلك القرى، بمعنى أنها باقية إلى الآن، ولكن وصل بها السبيل أي:
الطريق كما يقال نهر جار فيوصف بصفة الماء فيه... والمراد من قوله: (وإنها
لسبيل مقيم)، إن إطلاقها ظاهرة على هذا الطريق»^(٤).

٥- العلاقة السببية (ما بني للفاعل وأسند إلى السبب مجازاً):

وهي إسناد الفعل إلى غير فاعله^(٥). وفي هذه العلاقة المجازية يسند الفعل،
أو ما في معناه إلى سببه، بدل من إسناده للفاعل. كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾^(٥). قال الشيخ رشيد: «أي: ضلوا باتباعها

(١) الأكلة: الشجرة. صدح الطائر: رفع صوته بالغناء.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٧٥-٧٦.

(٣) أولى ما قيل: ١١٥/٥.

(٤) ينظر: بحوث منهجية: ١٢٠.

(٥) سورة إبراهيم، من الآية: ٣٦.

وعبادتهم لها، تقربهم إلى الله زلفى. وفي إسناد الإضلال إليه تجوز معروف مثله في خصائص اللغة ويسمى في عرف البلاغة الإسناد إلى السبب»^(١).

وقال البيضاوي: «فذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضالهن وإسناد الإضلال أليست باعتبار السببية»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَت بِتَحَرُّثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٣)، قال السمين الحلبي: والشراء هنا مجازٌ من الاستبدال. بمعنى أنهم لما تركوا الهدى، وآثروا الضلالة، جعلوا بمتزلة المشتري لها بالهدى، ثم رُشِّح هذا المجاز بقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبَحَت بِتَحَرُّثِهِمْ﴾ فأسند الربح إلى التجارة، والمعنى: فما ربحوا في تجارتهم...^(٤).
وقال المرقش الأكبر^(٥) من البسيط:

إنَّا لمن معشر أفنى أوائلهم قبل الكمأة ألا أين المحامونا
فقد نسب الفعل (الإفناء) إلى سبب وقوعه وهو (قول الكمأة) أي:
الشجعان، ويريد بقولهم: (هل من مبارز)؟ وهذا القول ليس بفاعل للفعل،
ولا مؤثر فيه، وإنما هو سبب لوقوعه فقط.

ثانياً: المجاز اللغوي:

يعني استعمال اللفظ الواحد المنقول مما وضع له في اصطلاح التخاطب
لعلاقةٍ إلى غير ما وضع بقريضة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، والعلاقة: هي

(١) أولى ما قيل: ٤٩/٥.

(٢) أنوار التنزيل: ٣٥١/٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦.

(٤) ينظر: الدر المصون: ١٢٧/١-١٢٨.

(٥) ديوان المرقشي: ٨١.

المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وقد تكون استعارة، أو تشبيهاً بين المعنيين، أو بقرينة غير المشابهة -عقلية إجمالاً- فيكون مجازاً مرسلأً، وهذه العلاقات بنوعيتها -المشابهة وغيرها- هي المناسبة الخاصة بين المعنى المنقول عنه، والمنقول إليه^(١)، ويسمى هذا النوع بالمجاز المفرد المرسل.

علاقات المجاز اللغوي:

هنالك علاقات كثيرة للمجاز اللغوي، لاشك في ذلك، وفيما يأتي بيان وعرض لأهم هذه العلاقات وهي:

١- السببية (ذكر السبب وإرادة المسبب):

وهي تسمية السبب باسم المسبب، كونه مؤثراً فيه، فيذكر لفظ السبب، ويراد منه المسبب، نحو: رعت الماشية الغيث -أي النبات؛ لأنّ الغيث أي: (المطر) سبب فيه. وقرينته لفظه وهي (رعت)؛ لأنّ العلاقة تعتبر من جهة المعنى المنقول عنه، ونحو: لفلان عليّ يد: تريد باليد: النعمة، لأنها سبب فيها.

ونحو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾^(٢)، قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ استثناء مفرغ، لأنّ ما قبله عاملاً يطلبه، وهذا من مجاز الكلام، جعل ما هو سبب للنار ناراً كقولهم: (أكل فلان الدم) يريدون الدية التي يسببها الدم، قال:

فلو أنّ حيّاً يقبل المال فدية

لُسُقْنَا إِلَيْهِ الْمَالَ كَالسَّيْلِ مُفْعَمًا

(١) ينظر: علوم البلاغة: ٣٠١.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٧٤.

ولكن أبي قوم أجيب أخوهم

رضا العار واختاروا على اللبن الدّما^(١)»^(٢)

وهذا رأي ابن جزري الذي قال: (أي: أكلهم للدنيا يقودهم إلى النار فوضع السبب موضع المسبب)^(٣).

وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾^(٤). قال الشيخ رشيد: «ذكر البنيان وأراد سببه بطريقة المجاز المرسل أي: سبب بنيانهم يبقى لها قابلية الإدراك: يبين بذلك أن نفاقهم وكفرهم راسخ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه فسيموتون وهم كفار...»^(٥).

٢- المسببية (ذكر المسبب وإرادة السبب):

ما يقال في علاقة في المسببية وهي عكسها ويعني أن قلب الوضع ونعكس الأمر، أي: أن نذكر المسبب ويكون المقصود هو السبب، وتسمية المسبب باسم السبب^(٦) وهو أن يكون المنقول عنه مسبباً، وأثراً لشيء آخر وذلك فيما إذا ذكر لفظ المسبب، وأريد منه السبب.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾^(٧). فالجواز في كلمة ﴿رِزْقًا﴾؛ لأن الرزق لا يتزل

(١) البيت في الحماسة: ١٢٥/١.

(٢) الدر المصون: ١٤٤/١.

(٣) التسهيل: ١٢٧/١؛ وينظر: اللباب في علوم الكتاب: ١٨٤/٣.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ١١٠.

(٥) أولى ما قيل: ١٦٩/٤.

(٦) ينظر: الإيضاح: ١٥٥.

(٧) سورة غافر، الآية: ١٣.

من السماء، ولكن الذي يتزل هو الماء، وذكر سبحانه الرزق؛ لأنه مسبب عن المطر والمطر سببه، فالجواز مرسل والعلاقة مسببية^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأُسْتَايِنَتَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾^(٢)، ذكر السمين الحلي أوجه متعددة في تفسير الآية منها: «أن المعنى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: خذلناهم، ولم نوقفهم فنشأ عن ذلك هلاكهم، فعبر بالمسبب عن سببه، وهو باب واسع»^(٣).

٣- الجزئية (إطلاق الجزء وإرادة الكل):

وهي كون المذكور ضمن فيها شيء آخر، وذلك بإطلاق الجزء، وإرادة الكل^(٤). قال ابن فارس: ومن سنن العرب الاقتصار على ذكر بعض الشيء وهم يريدونه كله، فيقولون: «قعد على صدر راحلته ومضى» ويقول قائلهم: «الواطئين على صدر نعالهم»^(٥) نحو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٦). قال السمين الحلي: «قوله: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾... وقيل: يعود على المكنوزات ودل على هذا جُزؤه المذكور؛ لأن المكنوز أعم من النقدين وغيرهما، فلما ذكر الجزء دل على الكل، فعاد الضمير جمعاً بهذا الاعتبار»^(٧) وهذا ما ذكر

(١) ينظر: بحوث منهجية: ١٢٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤.

(٣) الدر المصون: ٢٣٣/٣.

(٤) ينظر: أسرار البيان، العماري: ١٢٢.

(٥) الصحابي: ١١٢.

(٦) سورة التوبة، من الآية: ٣٤.

(٧) الدر المصون: ٤٦٠/٣.

ابن عادل الدمشقي^(١).

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمٍذٍ وَاحِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾^(٢). قال الشيخ رشيد: «ومعنى الخشوع الذلة والاستكانة من شدة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب فأضاف إليها الأبصار، لما بينهما من ملابسة الاجتماع في جسم واحد. والإضافة تصح في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادة الضمير إليها، باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل من ذكر الجزء وإرادة الكل فأضاف إليها الأبصار؛ لأنها جزء من الأصحاب»^(٣).

٤- الكلية (إطلاق اسم الكل على الجزء):

وهي تسمية الجزء باسم الكل^(٤) وتحدث هذه العلاقة حين يطلق الكل، ويراد به جزء منه. نحو قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٥) فالجهاز في ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فالإنسان لا يتكلم بفمه، ولكنه يتكلم بلسانه، وقد عبر بالكل (الأفواه)، وأراد الجزء (اللسان) فالجهاز مرسل والعلاقة كلية^(٦).

وقوله تعالى: ﴿سَنَسِئُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾^(٧). قال السمين الحلبي: «والخرطوم: الأنف، وهو هنا عبارة عن الوجه كله، من التعبير عن الكل بالجزء؛ لأنه أظهر

(١) ينظر: الباب في علوم الكتاب: ٧٩/١٠.

(٢) سورة النازعات، من الآية: ٨-٩.

(٣) أولى ما قيل: ١٤٨/٩.

(٤) ينظر: الطراز: ٤٠/١؛ وشروح التلخيص: ٥٥٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٦) ينظر: بحوث منهجية: ١٢٨-١٢٩.

(٧) سورة القلم، الآية: ١٦.

ما فيه وأعلاه»^(١).

وقال الفراء: «أي: سنسمه سمة أهل النار، أي: سنسوّد وجهه، فهو وإن كان الخرطوم قد خُصّ بالسمة فإنه في مذهب الوجه، لأنّ بعض الوجه يؤدي عن بعض»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٣). قال رشيد: «والمراد من السورة آيات في موضوع خاص في السورة من ذكر الكل وإرادة الجزء»^(٤).

وكذلك قول عبد الباقي العمري^(٥) الطويل:
وكم قد أسلنا أنفساً دون ييضمهم وليست على غير الطببات تسيل
فقوله: «نفوسنا» يراد به «دماؤنا» فهو مجاز مرسل علاقته الكلية؛ لأنّ النفس كل يتضمن الدم وغيره، والقرينة قوله: (سيل)؛ لأنّ السيلان من صفات الدم^(٦).

(١) الدر المصون: ٣٥٤/٦.

(٢) معاني القرآن: ١٢٦/٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٦.

(٤) أولى ما قيل: ١٥٩/٤.

(٥) ديوانه، المسمى الترياق الفاروقي، مطبعة حسن أحمد الطوخي - دب الإنسيّة -

مصر، أواخر الحرم، عام ١٢٨٧هـ - ٢٥٧.

(٦) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة: ١٤٣/١.

٥- اعتبار ما كان:

هو النظر إلى الماضي: أي: تسمية لشيء باسم ما كان عليه، نحو: ﴿وَأَتُوا آلَيْنَمَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: الذي كانوا يتامى ثم بلغوا، فاليتمى: مجاز مرسل، علاقته اعتبار ما كان^(١). ونقول أيضاً كان يعبر عن أمر من الأمور بشيء لا يتفق وحالته الحاضرة الماثلة، ولكن ينظر إلى ما كان عليه.

نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾^(٢) فالجواز في ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ ومن المعلوم، أن الإنسان إذا جاء ربه ومثل للحساب لا يكون مجرمًا؛ لأن أعماله تنقطع وتنتهي بحوثه، ولكن الآية عبّرت بالجواز بالنظر إلى ما كان عليه هذا العبد من الإجرام في دنياه، فالجواز مرسل والعلاقة اعتبار ما كان^(٣).

٦- اعتبار ما سيكون:

وهو النظر إلى الشيء بما سيكون عليه في المستقبل، وذلك فيما إذا أطلق اسم الشيء على ما يؤول إليه^(٤) وفيها يسمى الشيء باسم ما يؤول إليه. نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَنِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾^(٥). فالجواز في كلمة الخمر، فالخمر لا تعصر فهي سائل، وإنما يعصر العنب الذي يتحول إلى خمر، فالجواز مرسل والعلاقة اعتبار ما سيكون.

(١) ينظر: الدلالة والمعنى: ٣٥١.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٤.

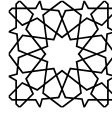
(٣) ينظر: بحوث منهجية: ١٣٠.

(٤) ينظر: علوم البلاغة: ٢٦١.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٣٦.

وقول حسان بن ثابت رضي الله عنه الوافر:

فصار المؤمنون بدار خُلدٍ ومكرمة بها ظلُّ ظليلٌ
فقد عبّر عمّا سيصيرون إليه من الجنة، وما فيها من النعيم بأنهم قد
صاروا إليه وكان أصل الكلام: «إنهم سيصيرون بتلك الدار التي هي جنة
الخلد ويتنعمون بثوابها» فعبر عن الشيء بما سيؤول إليه مجازاً، والعلاقة: اعتبار
ما يكون.



البحث الثالث

المناسبة والتناسب في صور الاستعارة

الاستعارة لغةً: مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه^(١). كقولهم: استعار المال إذا طلبه عارية^(٢).

وقد عرف ابن المعتز الاستعارة بقوله: «هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها»^(٣).

الاستعارة اصطلاحاً: وعرفها الجاحظ فقال: «الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»^(٤).

وعرفها أيضاً قدامة بن جعفر بقوله: «هي استعارة بعض الألفاظ في موضع بعض على التوسع والمجاز»^(٥).

وعرفها الرماني بقوله: «الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»، وقال: «كل استعارة لابد فيها من مستعار ومستعار له ومستعار منه»^(٦).

وقال أبو هلال العسكري: «الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض. وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (عور).

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ١٧٥.

(٣) كتاب البديع: ٢.

(٤) البيان والتبيين: ١٥٣/١.

(٥) كتاب نقد النثر: ٦٤.

(٦) النكت: ٨٥-٨٦.

الإنبابة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»^(١).

وعرفها الخطيب القزويني بقوله: «الاستعارة مجاز علاقته تشبيه معناه بما وضع له. وكثيراً ما تطلق الاستعارة على استعمال المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعاراً منه، والمشبه مستعاراً له، واللفظ مستعاراً»^(٢).

والاستعارة في نظر الجرجاني: «أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه تظهره وتجيء إلى الاسم المشبه به فتغير المشبه وتجره عليه»^(٣).

ومن تعريفات البلاغيين للاستعارة نستخلص الحقائق التالية:

١- الاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائماً بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

٢- والأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه، وبذلك عُدَّ أصلاً، وعُدَّت الاستعارة فرعاً له، وعلى هذا فالاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه.

٣- تطلق الاستعارة على استعمال المشبه به في المشبه، فيسمى المشبه به مستعاراً منه والمشبه مستعاراً له، واللفظ مستعاراً.

٤- ملاك الاستعارة بقرب ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر.

٥- والاستعارة تجمع بين خصائص المجاز والتشبيه فقد أخذت من هذين الأصلين ميزتهما لتكون وسيلة رائعة لانطلاق اللغة.

(١) كتاب الصناعتين: ٢٦٨.

(٢) الإيضاح: ٢٧٨.

(٣) دلائل الإعجاز: ٦٧.

٦- والاستعارة (تتم بعلم دلالة الجملة، قبل أن تتم بعلم دلالة الكلمة)^(١).
ومن أجل ذلك تحدث الاستعارة تغييراً في معاني الكلمات التي تنتمي
إلى أسرها^(٢).

نماذج من الاستعارات القرآنية:

ومن أمثلة الاستعارة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ^(٤)
الاستعارة هنا في قوله: (وإنه في أم الكتاب) وإن اللفظ المستعار هو: (أم)
ومعروف أن الأم هي الأصل الذي تنشأ منه الأولاد، فاستعيرت هذه اللفظة
لتظهر الخفي، وجاء سياقها ليبين أن هذا القرآن: «حقيقته أنه في أصل
الكتاب فاستعير لفظ (الأم) للأصل؛ لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ
الفروع من الأصول، وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمبرئي، حتى يصير مرئياً
فينتقل السامع من حد السماع إلى حد العيان، وذلك أبلغ في البيان»^(٥). قال
الزمخشري: «سمي بأم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبت فيه الكتب منه تنقل
وتنسخ، على رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها»^(٥).

ومنها استعارة البشرى بالعذاب: كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٦)، فقوله -

(١) نظرية التأويل: ٩٠.

(٢) ينظر: نظرية المعنى في النقد الأدبي: ٨٨؛ ومصطلحات الدلالات العربية: ٢٠٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣-٤.

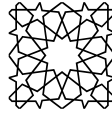
(٤) البرهان: ٨٩٢.

(٥) الكشف: ٢٤١/٤.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

عزّ من قائل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من البشارة التي هي في الأصل الخبر بما يسر^(١)، وقوله ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فأطلقها على الإخبار بما يسوء، مما يعني أن ذكر (العذاب) قرينة دالة على إن قوله ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ استعارة تبعية تهكمية^(٢) والقرآن الكريم جعل منها منبهاً أسلوبيّاً إلى خطورة ما يحذر منه المخاطبين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾^(٣) جاءت الاستعارة هنا في قوله (نسلخ) «وهي من استعارة المحسوس لمحسوس بوجه عقلي، فإنّ المستعار من كشط الجلد وإزالته عن الشاة ونحوها والمستعار له إزالة الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمه وهما حسيان والجامع لهما ما يعقل من ترتيب أمر على آخر»^(٤).



(١) ينظر: أضواء البيان: ١٩٥/٣.

(٢) ينظر: مختصر المعاني: ٢٢٢/١.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٤) الإيضاح: ٢٧٧.

المبحث الرابع

المناسبة والتناسب في صور الكناية

الكناية لغةً: مصدر من الفعل الثلاثي كنى، قال ابن منظور: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكُنِّيَ عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنَّى: تستر من كنى عنه إذا روى، أو من الكنية»^(١).

اصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد^(٢).

ولعل أقدم من تكلم عن الكناية أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ) في قوله: «ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره هو قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾»^(٣) حول الخبر إلى كناية التي في أصل الأعناق»^(٤).

وقال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): «وهو أن تكنى عن الشيء وتعرض به ولا تصرح على حساب ما عملوا في اللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبري؛ إذ بحث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل، وحنظلة يريد جاءكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك»^(٥).

وعرفها الجرجاني بقوله: «الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تأليه

(١) لسان العرب، مادة (كنى).

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٢٣٧.

(٣) سورة الشعراء، من الآية: ٤.

(٤) مجاز القرآن: ١٢/١.

(٥) كتاب الصناعتين: ٣٦٠.

وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة... وفي المرأة نؤوم الضحى والمراد أنها مترفة مخدومة»^(١).

وعرفها السكاكي فقال: «هي ترك الصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما هو ملزومة لينتقل من المذكور إلى المتروك»^(٢).

وعليه فالمعنى الكنائي يتضمن معنيين: الأول: واضح يدل عليه ظاهر اللفظ بحسب شيوع استعماله، والثاني: خفي تابع للأول ولازم له بمقتضى العرف والعادة^(٣).

أقسام الكناية:

قسم البلاغيون الكناية من حيث ما تدل عليه إلى ثلاثة أقسام هي: طلب نفس الصفة وطلب نفس الموصوف وطلب النسبة.

١ - الكناية عن طلب نفس الصفة

في هذا القسم تكون لصفة هي المحتجبة المتوارية. وقد تكون الكناية عن الصفة المطلوب بها نفس الصفة، والمراد الصفة المعنوية، كالجود والكرم، والشجاعة ونحوها، لا النعت^(٤). وجاءت الكناية عن العفة في القرآن الكريم بأنماط متعددة منها: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾^(٥). قال الشيخ رشيد: «قيل: هي كناية عن شدة الغضب، مثل حمى الوطيس، وقيل:

(١) دلائل الإعجاز: ٥٢؛ وينظر: الإيضاح: ١٨٣.

(٢) مفتاح العلوم: ١٨٩.

(٣) ينظر: مصطلحات الدلالة العربية: ٢٨.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٤؛ والإيضاح: ٣١٩/٢-٣٢٠.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.

كناية عن قوة انبعاث الماء، لأنّ التنور يطلق على كوة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتفاق أقدار لأقدار والله أعلم. وعلى كل يكون المعنى فإذا اشتد طغيان الماء»^(١). والكناية عن الندم كما في قوله تعالى: ﴿وَلُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَفَقَّ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^(٢). قال السمين الحلبي: «قوله: (ويقلب كفيه)... وهذا كناية عن الندم، لأنّ النادم يفعل ذلك»^(٣). وقال الرازي: هو كناية عن الندم والحسرة فإنّ من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحدهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة»^(٤). وذكر هذا الزمخشري والنسفي^(٥).

تأتي الكناية عن الكثرة كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٦). قال السمين الحلبي: «وهو كناية عن كثرة الإسلام وفشوه، لأنه كلما ازداد الإيمان زاد غيظهم»^(٧).

وتأتي الكناية لغرض الاستكبار نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا

(١) أولى ما قيل: ١٥٢/٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٣) الدر المصون: ٤٥٩/٤.

(٤) التفسير الكبير: ١٠٩/٢١.

(٥) ينظر: الكشف: ٦٧٦/٢؛ ومدارك التزويل: ١٥/٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٧) الدر المصون: ١٩٨/٢.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴿١﴾. قال الشيخ رشيد: «وهذا كناية عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن» ﴿٢﴾.

وتأتي الكناية عن مواصلة السير نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلْقِفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ﴿٣﴾. قال الشيخ رشيد: «كناية عن مواصلة السير السريع، وتهويل للعذاب الواقع أي: أسرعوا» ﴿٤﴾.

وأيضاً تأتي للكناية عن الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿٥﴾. قال الشيخ رشيد: «وهذا كناية عن إنه تعالى يجازيهم عليه الجزاء الأوفى، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة» ﴿٦﴾.

وتأتي بالكناية بالعفو عن الجناية نحو قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿٧﴾ فقله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية عن الجناية؛ لأنَّ العفو مستلزم بها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت، أمّا قوله: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ فهو بيان لما كَتَبَ عنه بالعفو، ومعناه: ما لك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك وتعلَّلوا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

(٢) أولى ما قيل: ١٩١/٥.

(٣) سورة هود، من الآية: ٨١.

(٤) أولى ما قيل: ١١٣/٥.

(٥) سورة الإسراء، من الآية: ١٩.

(٦) أولى ما قيل: ١٦٦/٥.

(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

لك بعلمهم، وهلاً استأنيت بالإذن ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى
يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾^(١).

وأيضاً الكناية عن الفرع في الحرب بظهور حجل الجارية: كناية عن
الفرع. قال النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه:

ويبدو من الخود الغريرة جملها وتبيض من هول السيوف المقادم
فقوله: «يبدو... حجلها» أي: حجل الجارية: كناية عن الفرع في
الحرب؛ لأنّ العرف أن تكون الجارية في خدرها، وتكون مصونة عن
الأنظار، لكن شدة الفرع أخرجتها عن ذلك كله، حتى بدا حجلها للناظر،
فأخذ الشاعر هذه الصورة ليجعلها كناية عن الفرع.

وتأتي كناية عن المحجوم: نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾^(٢). قال
الشيخ رشيد: «أي: أدخلنا الغبار وسط جمع العدو، وهو كناية عن هجومهم
عليهم، واختلاطهم بهم عند غلبتهم»^(٣).

وأيضاً الكناية عن اللين والشفقة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ﴾^(٤).
قال الشيخ رشيد: «وخفض الجناح كناية عن الشفقة واللين والتواضع لهم،
مستعار من حال الطائر، فإنه إذا أراد أن يحط خفض جناحه»^(٥).

(١) ينظر: الكشف: ٢٦١/٢.

(٢) سورة العاديات، الآية: ٥.

(٣) أولى ما قيل: ٢٣٨/٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٥) أولى ما قيل: ٢٤٣/٦٠.

٢- الكناية عن الموصوف:

وفي هذا القسم يكون الموصوف هو المحتجب المتواري. ويكون المطلوب بها نفس الموصوف^(١). ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٢). فالكناية في الآية، كناية عن موصوف هي الأنثى، فقد عدل عن التصريح باسم الأنثى إلى تركيب يشير إليها ويعد كناية عنها، وهو (التنشئة في الحلية).

وقال شاعر في رثاء من مات بعلّة في صدره:

ودبّت في مواطن الحلم علّة لها كالصّلال الرقش شر ديب
فلفظ الكناية هنا (مواطن الحلم) كناية عن موصوف وهو الصدر؛ لأنّ الصدر يوصف بأنه موطن الحلم، فمن عادة العرب أن نسبوا الحلم إلى الصدر، فيقولون: فلان فسيح الصدر أي: صاحب حلم، أو فلان لا يتسع صدره لمثل هذا، أي: لا يحلم على مثل هذا.

وتأتي الكناية عن الحدث بـ(الغائط): نحو قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾^(٣). قال السمين الحلبي: «وقرأ الجمهور: (الغائط) بزنة فاعل، وهو المكان المطمئن من الأرض، ثم عبّر به عن نفس الحدث كناية للاستحياء من ذكره»^(٤).

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٠٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٤) الدر المصون: ٣٧٠/٢.

وتأتي أيضاً الكناية عن الكلام بـ(لحن القول): نحو قوله تعالى:
﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(١). قال السمين الحلبي: «قوله: (في لحن القول)
اللحن: يقال باعتبارين أحدهما: الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك
ومنه قول الفثال الكلافي في حكاية له:

ولقد وميت لكم لكيما تفهموا وكنت لحناً ليس بالمرتاب^(٢)
واللحن: صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ...»^(٣).

والكناية عن الموت تتمثل بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾^(٤).
يقول السمين الحلبي: «قوله: (تردى) إمّا من الهلاك أو من تردى بأكفانه،
وهو كناية عن الموت، كقوله:

وخطا بأطراف الأسنة مضجعي ورداً على عيني فضل ردائيا^(٥)»^(٦)

والكناية عن أسباب الموت ومقدماته نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ
آبَائِكَ إِنَّا نُرْهِمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٧)، وقال
السمين الحلبي: «وحضور الموت كناية» حضور أسبابه، ومقدماته، قال الشاعر:

(١) سورة محمد، من الآية: ٣٠.

(٢) ديوانه: ٣٦.

(٣) الدر المصون: ١٥٧/٦.

(٤) سورة الليل، الآية: ١١.

(٥) البيت لمالك بن الريب من مرثيته المشهورة.

(٦) الدر المصون: ٥٣٥/٦.

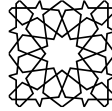
(٧) سورة البقرة، من الآية: ١٣٣.

وقل لهم بادروا بالعُذر والتمسوا قولاً يُبرئكم إني أنا الموت^(١)
أي: أنا سببه»^(٢).

٣- الكناية عن النسبة:

هو العدول بالكلام عن التعبير المباشر، وذلك عن طريق إثبات الصفة
لشيء يتعلق بمن نريد إثباتها له. قال المتنبي في مدح كافور:
إنَّ في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء
فقد أراد المتنبي أن يثبت المجد لكافور، وأن يجعله من صفاته، ولكنه بدل أن
ينسب إليه المجد بصريح اللفظ فيقول: «هو صاحب مجد» كَتَّى عن نسبة المجد
إليه بقوله: «إنَّ في ثوبك الذي المجد فيه» لأنه يلزم من ذلك اتصافه به^(٣).
وقال أبو نؤاس مادحاً:

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير
نسب أبو نؤاس الكرم إلى ممدوحه، أو أن يثبت له هذه الصفة، ولكنه
بدل أن ينسب إليه الكرم بصريح اللفظ فيقول: (هو جواد)، كَتَّى عن نسبة
الكرم إليه بقوله: (يسير الجود حيث يسير) لأنه يلزم من ذلك اتصافه به.
وهذا التلازم بينهما ينبئ عن اختصاصهما كُلٌُّ بصاحبه، وهذا غاية الكرم^(٤).

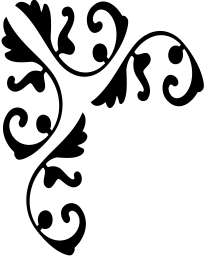


(١) البيت لرويشد بن كثير وهو في الحماسة: ١٠٢/١.

(٢) الدر المصون: ٣٧٩/١.

(٣) ينظر: بحوث منهجية: ٢٠٧.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ٢٠٧.



الفصل الخامس

التناسب في الفواصل القرآنية

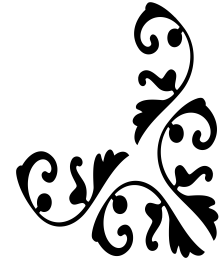
❖ المبحث الأول: تعريف الفاصلة القرآنية والخلاف بين الفواصل والسجع.

❖ المبحث الثاني: المناسبات بين فواصل الآي ومضمون السور.

❖ المبحث الثالث: العلاقة بين مناسبة الفاصلة وسياق آياتها.

❖ المبحث الرابع: الفاصلة القرآنية وعلم المناسبة.

❖ المبحث الخامس: التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية «دراسة تطبيقية»



الفصل الخامس

التناسب في الفواصل القرآنية

المبحث الأول

تعريف الفاصلة القرآنية والخلاف بين الفواصل والسجع

الفاصلة لغةً: هي ما يفصل بين شيئين، وهي في علامات الترقيم في الكتابة العلامة التي توضع بين الجمل التي يتركب منها كلام تام الفائدة، وبين الكلمات المفردة المتصلة بكلمات أخرى تجعلها شبيهة بالجملة في طولها^(١).

ولمادة (فَصَلَ) في اللغة العربية عدد من المعاني المتلاقية ترادفاً أو تضاداً. منها: الفصل: بَوْنُ ما بين الشيئين. والفصل من الجسد: موضع المفصل وبين كل فصلين وصل، مثل ذلك: الحاجز بين الشيئين والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، وقد فَصَّلَ النَّظْمَ. وعَقْدٌ مَفْصَّلٌ، أي: جعل بين كل لؤلؤتين خرزة^(٢) ومثله الْفَصْلُ: القضاء بين الحق والباطل. وقريب منه: فَصَّلَ من الناحية: أي خرج منها. ومنها: التفصيل: التبيين.

ومنها: الْفَصْلُ واحدُ الْفُصُولِ، أي: الْقَطْعُ^(٣).

الفاصلة اصطلاحاً: فهي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع، وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب، لتحسين الكلام بها، وفي

(١) مجمع اللغة العربية، والمعجم الوسيط: ٦٩٨/٢.

(٢) هذا ما أختاره محرر مادة (فاصلة) في دائرة المعارف الإسلامية، ط ٢: ١١٤١١/٢، (هـ. فلايش)، النسخة الإنكليزية.

(٣) ينظر: مادة (فصل) في لسان العرب، وأساس البلاغة، والقاموس المحيط، والمختار من صحاح اللغة.

الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام. وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فهل بينها وبين ما بعدها، ولم يسموها أسجاعاً، فأما مناسبة فواصل، فقله تعالى: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ ءَايَتُهُ﴾^(١). وأما تجنّب أسجاع، فلأن أصله من سجع الطير^(٢).

وقد عرف الرماني الفاصلة بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني»^(٣).

وعرفها الباقلاني بقوله: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني»^(٤).

وقال ابن منظور: «وآخر الآيات في كتاب الله فواصل بمثالة قوافي الشعر، جل كتاب الله وعجلك، واحدهما فاصلة»^(٥).

وعرفها الزركشي: «هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع»^(٦). وقول أحمد أحمد بدوي: نعي بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن»^(٧).

ومن حق الفواصل - كما يقول الباقلاني -: «أن تكون تابعة للمعاني كما وردت في القرآن ولا نكون المعاني تابعة لها، فيكون ذلك وضعاً لها في

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.

(٢) ينظر: البرهان: ٨٣/١.

(٣) النكت: ٩٧.

(٤) الإتقان: ٦٧٢.

(٥) لسان العرب: ١١/١٨٩، حرف (ف)، مادة (فصل).

(٦) الرهان: ٥٣/١.

(٧) من بلاغة القرآن: ٧٥.

غير موضعها»^(١).

وقد عرّفت الفاصلة مقارنة بالقافية الشعرية «لأنّ الفاصلة في حكم القافية»^(٢) وذلك؛ لأنّ الفواصل هي رؤوس الآيات، والقوافي هي أواخر الأبيات^(٣). وفرّق أبو عمرو الداني بين الفواصل ورؤوس الآي فقال: «أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس الآية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكتنّ رؤوس آي وغيرها. وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النوعين وتجمع الضربين»^(٤).

أمّا فائدة الفواصل فيقول الرماني: «والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسين الكلام بالتشاكل، وإبداءها في الآي بالنظائر»^(٥).

ويقول الزركشي: «وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام»^(٦).

وعليه نلاحظ أنّ الإجماع منعقد على عدم تسمية الفاصلة قافية كما حكاها السيوطي؛ إذ قال: «ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأنّ الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منه وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر،

(١) إعجاز القرآن: ٢٧١.

(٢) الحجة للقراء السبعة: ٣٩٧/٢.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/١٢١.

(٤) البرهان: ١/٥٣-٥٤.

(٥) ثلاث رسائل في إعجاز: ٩٩.

(٦) البرهان: ١/٥٤.

لأنها صفة لكتاب الله فلا نتعدها»^(١).

وقد عرف العلماء ولاسيما الفراهيدي القافية والسجع تعريفات مهمة، حيث يقول الفراهيدي في تعريف القافية: «هي آخر ساكن في البيت إلى أقرب ساكن يليه مع المتحرك الذي قبله»^(٢). ويقول في تعريف السجع: «سَجَعَ الرجل إذا نطق بكلامٍ له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن»^(٣). إنَّ تسمية الفواصل القرآنية أسجاعاً وإطلاق السجع عليها فإنَّ جمهور العلماء قد منعه، وذلك لأنَّ أصل السجع في اللغة كان على صوت الحمام إذا سجع أي: هدل على جهة واحدة^(٤).

ومن الذين تحمَّسوا قديماً لقضية نفي السجع أبو بكر الباقلاني وهو يقول: «ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلياً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع مُعْجَزٌ، لجاز لهم أن يقولوا: شعر مُعْجَزٌ، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن...»^(٥).

ولقد قال ابن سنان: «إنَّ القرآن أنزل بلغة العرب، وعلى عُرفهم وعاداتهم، وكان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعاً، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، ولاسيما فيما يطول من الكلام»^(٦).

(١) معترك الأقران: ٢٥/١.

(٢) ميزان الذهب: ١١٣.

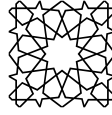
(٣) العين: ٢٤٤/١.

(٤) ينظر: لسان العرب، مادة (سجع).

(٥) إعجاز القرآن: ٨٦.

(٦) سر الفصاحة: ٢٠٥.

ويستفاد من كلام ابن سنان أنّ المواضع القرآنية هي التي تتحكم في وجود السجع أو قرب السجعة أو بعدها، وهذا واضح في أسلوب القرآن الكريم. وهكذا نستنتج تواتر التخرج من مَسَّ القرآن باصطلاح (السجع)، لأصله اللغوي في صوت الحمام، ولعيوبه الكثيرة التي لمسوها عند الخطباء، وبعض المؤلفين في العصر العباسي، وانزاحت من أذهانهم مع تقدم الزمن، لذلك سمح في قبول مصطلح (السجع)، على إنَّ سجع القرآن سجعٌ محمود لا تتكلف فيه^(١).



(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ٣١١؛ وجماليات السياق: ١٠٤-١٠٥.

البحث الثاني

المناسبات بين فواصل الآي ومضمون السور

أ - تناسب الفاصلة مع مضمون السورة:

إنَّ أكثر فواصل آيات القرآن تكون بالميم والنون المسبوقة بحروف المد، وحكمته «وجود التمكين من التطريب بذلك»^(١) مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقد جاءت فاصلة آخر سورة العنكبوت منتهية بحرفي: (الياء والنون)؛ ليتناسب هذا الإيقاع الصوتي مع ما تدعو إليه السورة من ثبات المؤمنين على ما دُعُوا إليه من قوة دائمة لا تنتهي، وهذا من حيث التوافق في الأداء الصوتي.

وفواصل الآي الكريم تتعلق بمضمون الآية وتناسب مع سياق نظمها، وهذا من إعجاز القرآن، قال الزركشي: «اعلم أنَّ من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، وفواصل القرآن لا تخرج عن ذلك؛ ولكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل لليب»^(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَّى﴾^(٣)، يقول: «يُراد به فأغناك وآواك فجرى على طرح الكاف، لمشكلة رؤوس الآيات، ولأن المعنى معروف»^(٤).

(١) البرهان: ٦٨/١؛ والسيوطي: ٦٨٨.

(٢) البرهان: ٦٥.

(٣) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٤) معاني القرآن، الفراء: ٢٧٤/٣.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١). نجد الفاصلة القرآنية في هذه الآيات تختلف تبعاً لاختلاف مضمونها وسياقها الخاص حيث ختمت الآية الأولى بـ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، لأنه في موضع الرحمة، والآية الثانية ختمت بـ﴿الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾؛ لأنه قال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

لا حاجة بل هو غني عنها جواد بها، لأنه ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليه واستحق عليه الحمد. وأمّا الآية الأخيرة ختمت بـ(رؤوف رحيم)؛ لأنه لما عدد نعمه على الناس في الآيات ختمها بـ(رؤوف رحيم)؛ لأنّ هذا الفعل فعل رؤوف بهم رحيم لهم (٢).

تتعلق فاصلة آخر السورة بمضمون السورة أو بغرضها العام كخواتم سورة (المرسلات) و(الضحى) و(العاديات) وغيرها فسورة (المرسلات) اتجهت إلى إقناع المكذبين مقطوعاً بعد مقطع، معقبة على كل مقطع أو حجة بآية ﴿وَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولما استكملت غرضها العام كانت الخاتمة: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أمّا سورة (الكافرون) التي اهتمت بإبراز المفارقة بين المؤمنين والكافرين، ردّاً على العرض الذي تقدموا به إلى الرسول

(١) سورة الحج، الآيات: ٦٣-٦٥.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٢/٢٨٥؛ والإعجاز البياني: ٢١١.

الكريم للاتفاق على عبادة الله تعالى الذي يدعو إليه الرسول فكانت الخاتمة
بـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١).

وقد يختتم القرآن الآية بفاصلة تؤيد مضمون ما قبلها، كما في قوله
تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأمثال ذلك
فتكون كالبرهان والتقدير لمضمون ما سبقها من المقاصد والأغراض بطريقة
التذكير بأسماء الله الحسنی وآثارها الملائمة للسياق.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٢)
جاءت الفاصلة بحرف (راء) قال السيوطي: فالروي في (تقهر، وتنهر) وهنا
التزام الهاء قبل الراء منهما التزام بما لا يلزم^(٣).

وقال ابن جزي: «وفي قوله: (تقهر، وتنهر) لزم ما لا يلزم من التزام
الهاء قبل الراء»^(٤). وقال الحموي: «وإذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها
لم تخرج عن المناسبة كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا
تَنْهَرْ﴾ فلا يجوز التبديل بينهما؛ إذ لا يجوز عن انتهار اليتيم لمكان تهذيب
وتأديب، وإنما ينهى عن قهره وغلبت، كما لا يجوز أن ينهر السائل إذا حرم
بل يرده ردًّا جميلاً»^(٥).

(١) ينظر: الفاصلة في القرآن: ٢٩٣.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٩-١٠.

(٣) ينظر: معترك الأقران: ١/٤٠-٤١؛ والإنتقان: ٣/٣٥٧.

(٤) التسهيل: ٣/٣٣٦.

(٥) خزانة الأدب: ١/٧٦؛ وتحرير التحبير: ١١٥.

ب- تناسب الفاصلة مع المعنى العام للمقطع الذي ظهرت فيه:

كما في قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ءَعْلَمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

نجد إنَّ الفاصلة القرآنية في هذه الآيات وخاصةً الفاصلة النونية المسبوقة بأحد حروف المد (الواو- والياء) هي المسيطرة عليها؛ فكانت فواصلها متماثلة^(٢) متجانسة، نحو: (يفتنون، الكاذبين، يحكمون، العالمين... يفترون)..

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١-١٣.

(٢) الفواصل المتماثلة: هي تكرار الفاصلة بنفس الحروف عند نهاية كل مقطع.

ماعدًا الآية الخامسة كانت فاصلتها متقاربة^(١) (بالميم) مع قبلها. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) وكانت هذه المخالفة في هذه الآية متناسقة مع ما أخبرت عنه الآية من أمد الموت السائر على كل فرد، ومن ثم لقاء الله الذي يرجوه كل مؤمن، ويخافه كل كافر؛ فالله يسمع أقوالهم، ويعلم سرائرهم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمَنْ كَلَّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾^(٤) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(٥) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾^(٦). يقول الخطيب الأسكافي: «إنَّ التفكير إعمال النظر، لتطلب فائدة، وهذه المخلوقات التي تنسجم من الأرض إذا فكر فيها عِلْمٌ أَنَّ معظمها ليس إلَّا للأكل... فهذا موضع تفكر بعث الناس عليه، ليُفْضِي بهم إلى المطلوب منهم، وأمَّا تعقيب ذكر الليل والنهار، وما سخر في الهواء من الأنوار بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فلأنَّ متدبر ذلك أعلى رتبة من متدبر ما تقدم، إذ كانت المنافع المحمولة فيها أخفى وأغمض... وأمَّا الآية ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلأنه لما نبّه في الأولين على إثبات الصانع، نبّه فيها على أنه لا شبه له مما صنع»^(٧).

(١) الفواصل المتقاربة: هي ما تشابهت فيها الحروف عند نهاية كل مقطع.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

(٣) ينظر: الكشف: ٤٤٥/٣؛ والرازي: ٢٨/٢٥.

(٤) سورة النحل، الآيات: ١١-١٣.

(٥) درة التنزيل وغرّة التأويل: ٢٥٨-٢٥٩.

البحث الثالث

العلاقة بين مناسبة الفاصلة وسياق آياتها

كما في قوله تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَابٍ اللَّهُ وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴿١﴾ نجد في قوله: ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ انتهت الآية بقوله: ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، هي جزء من جملة

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٧.

حالية^(١)، وعلاقة الفاصلة بالسياق (التمكين)^(٢)، حيث لا يتم المعنى إلا بهما، فلو حذفت الفاصلة وقيل: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا﴾ لم يفهم المراد من الآية، ولكن تم المعنى حينما قال: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. واختيرت الفاصلة (يفتنون) دون غيرها؛ وذلك لمناسبة شديدة بين عمق معنى الفتنة وسياق الآية، فالفتنة تقوم على بيان القلوب الخالصة من غيرها؛ «كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا أصل الكلمة اللغوي، وله دلالة وظلله وإمائه»^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، لقد ورد القسم الثاني من الآية غير مطابق للأول، فلم يقل تعال في فاصلة الآية: (الذين كذبوا)، نحو: (الذين صدقوا)^(٤)؛ أولاً: مراعاة للفاصلة النونية في الآيات، وثانياً: التعبير بصيغة الماضي في الصادقين، وبصيغة اسم الفاعل مع الكاذبين؛ لأنه يفهم من اسم الفاعل، الرسوخ في الفعل، ولا يعطي الفعل الماضي هذا المعنى.

ونجد إنَّ علاقة الفاصلة بالآية (التوشيح)^(٥)؛ لأنَّ أول الكلام ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ

(١) ينظر: البحر المحيط: ١٣٥/٧؛ والتحرير والتنوير: ٢٠/٢٠٣، مجلد ١٠.

(٢) ينظر: البرهان: ٧٩/١.

(٣) في ظلال القرآن: ٥/٢٧٢٠.

(٤) ينظر: الإتيقان: ٦٧٨.

(٥) التوشيح معناه: هو «أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تُعرف منها قبل قراءتها» والفرق بينها وبين التصدير: أنَّ التوشيح دلالة معنوية، أمَّا التصدير فدلالته لفظية. ينظر: من أسرار التعبير: ٤١.

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿يَدُلُّ عَلَى آخِرِهِ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾. ولا نظن الذين عملوا السيئات أنهم سيفرون من عقاب الله: قال ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فعبر بالمضارع (يحكمون). قال أبو حيان: «إشعاراً حكمهم مذموم حالاً واستقبالاً، وقيل: لأجل الفاصلة وقع المضارع موقع الماضي اتساعاً»^(١).

فعلاقة الفاصلة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بالآية (التوشيح)، حيث إنها مقررّة لمعنى الإنكار في الآية^(٢)، فإنّ ظنهم الإفلات من عذاب الله حكم باطل ساقط. ونجد علاقة الفاصلة في قوله تعالى: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بسياق الآية الكريمة فإنه يتضمن (الإيغال)^(٣)؛ لأنها أفادت معنىً جديداً بعد تمام معنى ما قبلها. قال ابن عاشور: «وقع التذييل بوصفي ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ دون غيرهما من الصفات العلى للإيماء بوصف (السميع) إلى أنّ الله تعالى سمع مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر... والإيماء بوصف (العليم) إلى أنّ الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر»^(٤).

ونجد علاقة (الإيغال) ترتبط فاصلة الآية الثانية عشر بما قبلها، فمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهم أنهم كاذبون؛

(١) البحر المحيط: ١٣٧/٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/٢٠٧، مجلد ١٠.

(٣) الإيغال هو تجاوز المتكلم المعنى الذي هو أخذ فيه؛ وبلغ إلى زيادة على الحد. ينظر: الفاصلة في القرآن: ٢٩١.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٠/٢٠٩، مجلد ١٠، بتصرف.

فجاءت الفاصلة (إنهم كاذبون) بدل اشتغال من الجملة السابقة زيادة في تأكيد كذبهم في ادعائهم حمل أوزار غيرهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٢)، فإنَّ الكلام قد تم بقوله: (من أحسن من الله حكماً)، ثم احتاج إلى فاصلة تناسب القرينة الأولى، فلما أتى بها أفاد معنى زائداً^(٣).

ويتضح في قوله تعالى: ﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيَّةً حُسْنًا وَإِنْ جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ علاقة الفاصلة بالتوشيح حيث إنَّ الفاصلة في قوله: ﴿فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد بما سيكون بعد الرجوع إلى الله، بدليل أنه لم يذكر اسمه -جل جلاله- حتى لا يظنَّ العفو، فهو حاضر يعلم ما يفعلون، ولا ينسى، فسينبئهم بما كانوا يعملون^(٤).

ويستشهد للتوشيح ابن أبي الإصبع لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ الظَّالِمُ الْفَاسِقُ﴾^(٥) حيث يُعرفه قائلاً: «سمي هذا الباب توشيحاً، لكون أول الكلام يدل على لفظ آخره، فيتزل المعنى منزلة الوشاح، ويتزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح»^(٦).

(١) ينظر: المصدر السابق: ٢٠/٢١٩، مجلد ١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

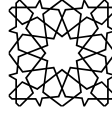
(٣) ينظر: البرهان: ٣/١٨٧.

(٤) ينظر: تفسير الرازي: ٣٣/٢٥، ونظم الدرر: ٥/٥٣٩.

(٥) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٦) تحرير التحيير: ٢٢٨.

ويتبع السيوطي خطى ابن أبي الإصبع، وينقل رأيه قائلاً: لا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء: التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال»^(١). وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، فإنَّ اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين، وقوله: ﴿وَأَيُّهُمْ آلُ لُوطٍ نَّسَلُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾^(٣)، فإنه ما كان حافظاً لهذه السورة، متيقظاً إلى مقاطع فواصلها النون المردوفة، وسمع في صدر هذه الآية ﴿وَأَيُّهُمْ آلُ لُوطٍ نَّسَلُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ علم أنَّ الفاصلة ﴿مُظْلِمُونَ﴾، فإنَّ من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال^(٤).



(١) معترك الأقران: ٢٣/١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٤) ينظر: البرهان: ٩٥/١.

المبحث الرابع

الفصلة القرآنية وعلم المناسبة

تناسب الفاصلة:

إنّ من أهم الخصائص التي تميز القرآن في كل كلام بليغ أنه يجمع بين الوفاء بحق المعنى في أول الألفاظ في أجمل التعابير، وأنه استمر من أوله إلى آخره، وتأتي الفاصلة التي هي جزء من الآية جامعة بين محاسن الصياغة وبلاغة المعنى بإحكام، ولا يجوز أن يقال: إنّ القرآن يختار الكلمة أو الأسلوب لتناسب الفواصل وحده ولا لبلاغة المعنى وحدها. بل يجب أن يقال: إنه يختار ما يختار من ذلك؛ لأنه الأبلغ في موضعه، والأوفق في نسقه^(١).

وقال الزركشي: «اعلم من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، وإلا يخرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن منه ما يظهر، ومنه يستخرج بالتأمل لليب»^(٢).

وقال د. أحمد أبو زيد: «وإنّ الفاصلة القرآنية تأتي متمكنة في موقعها، مستقرة في مكانها، يتعلق معناها بمعنى الآية بحدوث لو طُرحت أو غُيّرت لا يختل المعنى وفسد النظم، لأنها لم تكن مجرد حلية لفظية، بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة، إن هي حجر الزاوية في ذلك البناء»^(٣).

(١) ينظر: التناسب البياني: ٣٦٩.

(٢) البرهان: ٧٨.

(٣) التناسب البياني: ٣٦٩.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾^(١)، فقدم نكال الآخرة على نكال الأولى، وفيه تقديم المتأخر زمنًا. وقد قدمه لأنه أشد وأبقى، وهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة، ولأنه الأنسب للسياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضع الرئيسة، ولأنه يتسق لفظيًا مع الإيقاع الموسيقي في الفاصلة بعد اتساقه معنويًا مع الموضوع^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾^(٤) فقد تحدثت الآية الأولى عن القرون المهلكة، وتحدثت الآية الثانية عما يشاهدونه على هذه الأرض، كيف يتزل الماء فينبت الزرع، فأمر التاريخ يسمع سماعاً الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، وأمر الزرع يبصرونه إبطاراً فناسب أن تختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقد أشار ونبه الزمخشري إلى ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥)، فقد كانت الآية الأولى تتحدث عن الفساد في الأرض، وتلك

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٥.

(٢) ينظر: التناسب البياني: ٣٧٠-٣٧١.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٦-٢٧.

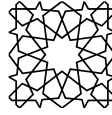
(٤) سورة البقرة، الآية: ١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣.

قضية تتعلق بالحواس الظاهرة، ختمت بقوله: (ولكن لا يشعرون)، لأنّ المشاعر في الحواس، ولما كانت القضية الثانية تتعلق بالسفه وهو الجهل ناسب أن تحتتم بالعلم.

قال الزمخشري: «فإن قلت: فلم فصلت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ والتي قبلها بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ قلت: لأنّ الوقوف على إنّ المؤمنين على الحق، وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة وأمّا النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض، فأمر دينوي مبني على العادات، معلوم عند الناس، لاسيما عند العرب في جاهليتهم، وما كان قائماً بينهم من التغير والتناحر والتجارب، فهو كالمحسن المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) حيث ختمت آية النهار بالبصر، وذلك لأنّ النهار هو ظرف لأعمال الناس، وتصرفاتهم، وأكثر ما يستخدم فيه الإنسان حاسة البصر، وختمت آية الليل بالسمع، لأنّ دوام الليل فيه إعمال حاسة السمع أكثر من إعمال حاسة البصر^(٣).



(١) ينظر: الكشف: ٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٢.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن: ٢٣٠.

المبحث الخامس

التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية (دراسة تطبيقية)

من المعلوم أنّ التقديم والتأخير إنما يكونان بحسب الأهمية، والأهمية لا تعني الأفضلية، فقد يقدم المفضول على الفاضل والمتأخر على المتقدم أو بالعكس بحسب ما يقتضيه المقام والسياق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ صُفُوفُهُمْ ذُكِّرُوا فِيهَا لَأَسْمُ اللَّهُ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١) فأخر المساجد وهي أفضل الأماكن المذكورة.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ فأخر القسم بالبلد الأمين وهو أفضل المذكورات. وعليه فالتقديم والتأخير إنما يكونان بحسب ما يقتضيه المقام فقد يقدم لفظاً في مكان ويؤخره في مكان آخر بحسب ما يقتضيه المقام فقد يقدم لفظاً في مكان ويؤخره في مكان آخر بحسب ما تقتضيه البلاغة^(٢). وقد يقدم المؤخر ويؤخر المقدم لغرض بلاغي أو لغرض يتعلق بالمعنى على ألا يخل ذلك بالمعنى ولا يخالف قواعد اللغة وأن يؤمن اللبس، وفي الجملة الفعلية، قد يقدم المفعول على الفعل في حالة عدم اللبس، فإن لم يؤمن اللبس وجب الترتيب المألوف وذلك مثل «ضرب موسى عيسى» فإنّ هذا التركيب يقتضي أن يترتب على النحو الآتي: الفعل، الفاعل، المفعول، فلا يجوز تقديم المفعول على الفاعل لعدم وجود قرينة تمنع التباس الفاعل بالمفعول.

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) ينظر: من أسرار البيان: ١١٥.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾^(١)، فالله تعالى مختص وحده بالعبادة دون غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢)، لأنه لو قال: إياك نعبد ونستعين، لكان الكلام موهماً، لأن الاستعانة تكون لغيره، لأنه لم يعقلها في الكلام تعليقاً يمنع من هذا التوهم والاحتمال، فإذا قال: وإياك نستعين، زال الاحتمال وتخصص الكلام^(٣). وقال الشيخ رشيد: «فالتقديم لغرض التخصيص»^(٤). وقال أبو السعود أيضاً: «وتقديم المفعول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص»^(٥)، وقال ابن عطية: «وقدم المفعول على الفعل اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم»^(٦).

ومن تقديم المفعول ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾^(٧) فقد قدم المفعول على فعله، قال السمين الحلبي: «... وقدم المفعول الذي هو (غير) على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل، وهذا كلام الزمخشري»^(٨).

ومن تقديم المفعول به على فعله لغرض الاختصاص قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾^(٩). قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ﴾ تقديم

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) ينظر: الدلالة والمعنى: ٢٤٠-٢٤١.

(٤) أولى ما قيل: ٤٦/١.

(٥) إرشاد الفصل السليم: ٩/١.

(٦) المحرر الوجيز: ٦٤/١.

(٧) سورة آل عمران، من الآية: ٨٣.

(٨) الدر المصون: ١٥٧/٢؛ وينظر: الكشف: ٤٠٧/١.

(٩) سورة الحاقة، الآية: ٣١.

المفعول يفيد الاختصاص»^(١) وهذا ما ذهب إليه ابن عادل وأبو السعود^(٢).

وقد يأتي التقديم لزيادة مدلول الجملة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا قَارِهُونَ﴾^(٣). قال الشيخ رشيد: «وللزيادة في مدلول الجملة، قدم ضمير الفصل»^(٤).

وقال الشوكاني: «وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص»^(٥). وهذا ما ذهب إليه أغلب العلماء^(٦).

وقال أبو حيان: «كما أنّ التقديم للفعل مشعر بالاهتمام المحكوم به»^(٧). ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(٨). قال الزمخشري: التقديم للاختصاص أي: لا يتيسر ذلك إلا على الله وحده»^(٩). وقد يأتي التقديم لرعاية الفواصل ورؤوس الآي كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١٠)، قال السمين الحلبي: «(هم) مبتدأ، و(خالدون)

(١) الدر المصون: ٣١٧/٦.

(٢) ينظر: الباب في علوم الكتاب: ٣٣٦/١٩؛ وإرشاد العقل السليم: ٢٦/٩.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٤٠.

(٤) ينظر: أولى ما قيل: ٤٦/١.

(٥) فتح القدير: ١١٦/١.

(٦) ينظر: البحر المحيط: ٣٣١/١؛ والتحرير والتنوير: ٤٤٢/١؛ وغرائب القرآن: ٢٧٢/١.

(٧) البحر المحيط: ١٦٨/١.

(٨) سورة ق، الآية: ٤٤.

(٩) ينظر: الكشف: ٣٩٦/٤.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

خبره، و(فيها) متعلق به، وقُدِّمَ ليوافق رؤوس الآي»^(١).

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾^(٢)، قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متعلق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أي: من أجلهم، وقدم لأجل الفواصل»^(٣).

وهذا ما ذكره ابن عادل^(٤) ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي وأمثله متعددة^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(٦). قال السمين الحلبي: «والباء في (بها) متعلقة بخبر (ليس) وقُدِّمَ على عاملها للفواصل»^(٧).

ونجد أيضاً تقديم السمع على البصر وبالعكس، كما في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٨). قالوا: لأنَّ السمع أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ؛ لأنَّ الأصم أبعد عن الفهم من الأعمى، أو لأسباب أخرى^(٩).

(١) الدر المصون: ١/١٦١.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٩.

(٣) الدر المصون: ٦/٤٩٥.

(٤) ينظر: الباب: ٢٠/٢٢٣.

(٥) ينظر: الدر المصون: ١/٢٩٥، ١/٥٧٨، ١/٦٧١، ٢/٥٧٧، ٤٥/٩٤، ٦/٦٠.

(٦) سورة الأنعام، من الآية: ٨٩.

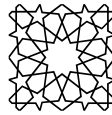
(٧) الدر المصون: ٣/١١٧.

(٨) سورة الإنسان، الآية: ٢.

(٩) ينظر: التعبير القرآني: ٥٥.

وقد يقدم البصر على السمع كما في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَوِّلَهُ غِيبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي
حُكْمِهِ أَحَدًا﴾^(١). فقدّم البصر على السمع وذلك أن الكلام على أصحاب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَزُلْ مِنْ حِمِيمٍ﴾^(٢)
في هذه الآية ثم تقديم التكذيب على الضلال في أواخر السورة، ثم نجد النص
القرآني في الآية الأخرى قدّم الضالين على المكذبين كما في قوله: «ثم إنكم
أيها الضالون المكذبون» فلأنه تقدم في الآيات التي قبلها ذكر أصحاب
الشمال وذكر أنهم كانوا قبل ذلك مترفين وأنهم كانوا يصرون على الحنث
العظيم، وهذا من الضلال ثم ذكر بعد ذلك تكذيبهم بيوم البعث فقال:
﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أَوْنَا
الْأَوَّلُونَ﴾^(٣) فناسب تقديم الضالين على المكذبين^(٤).



(١) سورة الكهف، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٩٢-٩٣.

(٣) سورة الواقعة، الآيتين: ٤٧-٤٨.

(٤) ينظر: من أسرار البيان: ١١٩-١٢٠.



الفصل السادس

المناسبات القرآنية

«دراسة تطبيقية»

❖ المبحث الأول: المناسبة بين فاتحة الكتاب وسورة البقرة.

✓ المطلب الأول: التناسب بين السورة في المفتح.

✓ المطلب الثاني: التناسب بين السورة في الخواتيم.

❖ المبحث الثاني: التناسب بين سورة البقرة وآل عمران.

✓ المطلب الأول: التناسب بين فاتحي السورتين.

✓ المطلب الثاني: التناسب بين فواتح السور وخواتيم التي قبلها

والتي تليها.



الفصل السادس

المناسبات القرآنية «دراسة تطبيقية»

المبحث الأول

المناسبة بين فاتحة الكتاب وسورة البقرة

وفيهما مطالب:

المطلب الأول: التناسب بين السورة في المفتتح

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وختمت بقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. والعالمون إما منعم عليهم، أو مغضوب عليهم، ولا يخرج العالمون عن هذا فتناسب المفتتح الخاتمة أوثق مناسبة وأتمها. وقال ابن القيم: «من ذكر المنعم عليهم وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة؛ لأنَّ العبد إما أن يكون عالماً بالحق أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة»^(١).

وقال تعالى في بدء سورة البقرة: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ

(١) التفسير القيم: ١١.

لَمْ نُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، فذكر المؤمنين الذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله ذكر الذين كفروا. فقال في آخر السورة: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ﴿٢﴾ فقال في أول السورة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وقال في آخرها: إِنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، فناسب البدء الختام.

وذكر أيضاً في بداية السورة أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وذكر في آخرها أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وكلّ هذا من الغيب.

ونجد أيضاً في بداية السورة ذكر للكافرين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقال في خاتمتها: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فدعا بالنصر عليهم، فناسب مفتتح السورة وخاتمتها من أكثر من وجه (٣).

وقال تعالى في سورة البقرة في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٤﴾

(١) سورة البقرة، الآية: ١-٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) ينظر: التناسب بين السور: ١٢-١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

بدأت الآية بالتوحيد ونفي الشرك وهو المطلب الأول بالعتيدة وذلك قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وورد ذلك على طريق الإخبار عن (الله) فـ(الله) مبتدأ وأخبر عنه بما ينفي الشرك ويثبت التوحيد وهو قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ثم إنَّ كلَّ جملة في الآية تصلح أن تكون خبراً عن الله. فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إلى آخر جمل الآية كلٌّ منها يصلح أن يكون خبراً عن (الله) الذي هو المبتدأ، فالآية تدور على الله وصفاته فهي سيدة أي القرآن^(١).

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿الْم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ تلك ست آيات جاءت كمطلع لهذه السورة. حيث بدأت بقوله تعالى: ﴿الْم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وختمت بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذه الآيات جاءت تؤكد للناس دين الإسلام، فإنَّ التوحيد هو جوهر الإسلام وليس للإسلام معنى سواه.

(١) ينظر: من أسرار البيان: ١٩٤.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١-٦.

وقد ذكرت هذه الحقيقة بأسلوب أوضح فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١﴾. فهاتان الآيتان تفيدان بنظمهما أن الإسلام هو دين التوحيد، والدعوة إلى التوحيد هي الدعوة إلى الإسلام وبهذه الدعوى جاء هذا القرآن. وجاء بها التوراة والإنجيل ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ (٢) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٢﴾. وقد جعل الله القرآن فرقاناً يفصل بين الحق والباطل: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ﴾ (٣).

وقد ابتدأت سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَالَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٤﴾. وقال تعالى في خاتمتها: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ (٥).

فقد بدأت بخلق الإنسان وبث ذريته في الأرض ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، وانتهت بهلاكه من

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨-١٩.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٣-٤.

(٣) ينظر: نظام سورة آل عمران: ٤٠٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

دون عقاب ﴿إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾، كما بدأت بإيتاء الأموال للنشء الجديد من اليتامى من أنصبتهم من المواريث وهم يستقبلون الحياة، واختتمت بتقسيم تركات من ودّع الحياة^(١).

المطلب الثاني: التناسب بين السورة في الخواتيم

ذكر تعالى في خاتمة الفاتحة أضعاف المكلفين وهم المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون، فقال: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وذكر في مفتح البقرة المتقين وهم المنعم عليهم، وذكر الكافرين والمنافقين وهم المغضوب عليهم والضالون، فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وذكر صفاتهم. ثم ذكر الذين كفروا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وذكر المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وكلاهما هم المغضوب عليهم والضالون. فناسب خاتمة الفاتحة مفتح سورة البقرة.

وقال تعالى في خواتيم البقرة فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قال في أوائل آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(١) ينظر: التناسب بين السور: ١٤-١٥.

فقله في سورة البقرة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(١) يناسب قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٢).

فقال في خواتيم البقرة: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ وقال في مفتتح آل عمران: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾^(٣). فذكر في خواتيم البقرة من آمن بالله والملائكة والكتب والرسل. وذكر في أول آل عمران الكتب وذكر التوراة والإنجيل والقرآن مصداقاً لما بين يديه.

وقال تعالى في أواخر سورة آل عمران: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال في أول سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وجاء في نظم الدرر: «وما أحسن ابتداءها - يعني سورة النساء - بعموم ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ بعد اختتام تلك بخصوص ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾»^(٤).

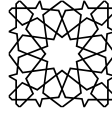
(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣.

(٤) نظم الدرر: ٢٠٥/٢.

وقال أيضاً: «وكان قد تقدّم في السورة الماضية ذكر قصة أحد التي انكشفت عن الأيتام، ثم ذكر في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(١). إنّ الموت مشرّع لا بد لكلّ نفس من وروده علم أنّه لا بد من وجود الأيتام في كلّ وقت فدعا إلى العفة والعدل فيهم؛ لأنّهم بعد الأرحام أولى من يتقي الله فيه ويخشى مراقبته بسببه فقال: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى﴾ أي: الضعفاء الذين انفردوا عن آبائهم (أموالهم)^(٢).



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) نظم الدرر: ٢٠٧/٢.

المبحث الثاني

التناسب بين سورة البقرة وآل عمران

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التناسب بين فاتحتي السورتين

ونجد التناسب بين سورة آل عمران لما قبلها سورة البقرة حيث يذكر الإمام المراغي في تفسيره وجه اتصالها بما قبلها من عدة أمور منها:

١- إنّ كلاّ منهما بدأ بذكر الكتاب وحال الناس في الاهتداء به -فقد ذكر في الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبحيين بين ذلك، وفي الثانية طائفة الزائغين، وطائفة الراسخين في العلم^(١).

٢- إنّ في الأولى تذكيراً بخلق آدم، وفي الثانية تذكيراً بخلق عيسى.

٣- إنّ في كلّ منهما حاجة لأهل الكتاب، لكن في الأولى إسهاب في حاجة اليهود واختصار في حاجة النصارى، وفي الثانية العكس.

٤- إنّ في آخر كلّ منهما دعاء.

٥- إنّ الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها، فبدأت الأولى

بإثبات الفلاح للمتقين، وختمت هذه بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

(١) ينظر: تفسير المنار: ١٥٣/٣.

(٢) تفسير المراغي: ٩١-٩٠/٣.

المطلب الثاني: التناسب بين فواتح السور وخواتيم التي قبلها والتي تليها

ذكر بعض المحققين من أوجه التلازم بين السورتين أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين وقال في آخر هذه ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فيتبين لنا من خلال الكلام كأن السورتين بمترلة سورة واحدة، مما يقوي المناسبة والتلازم بينهما أن خاتمة هذه مناسبة لفاتحة تلك، لأن الأولى افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون وختمت هذه بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً^٢ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) مناسبة هذه السورة لما قبلها واضحة لآته، لما ذكر آخر البقرة أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين، ناسب أن يذكر نصره تعالى على الكافرين، حيث ناظرهم رسول الله، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، فقصّ تعالى أحوالهم، وردّ عليهم في اعتقادهم، ذكر تزييه تعالى عما يقولون، وبداءه خلق مريم وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم، ولما كان مفتتح آية آخر البقرة آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، فكأن في ذلك الإيمان بالله وبالكتب، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى، وذكر ما أنزل على رسوله، وذكر المنزل على غيره.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

والتناسب بين سورة آل عمران وما بعدها سورة النساء أن من أول وجوه التناسب بين السورتين الكريميتين، أن سورة آل عمران ختمت الأمر بالتقوى، في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، وافتتحت سورة النساء بالأمر بها، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾^(٢) وذلك من أكد وجوه المناسبات في ترتيب السور، وإن سورة آل عمران ذكرت فيها قصة مستوفاة، في حين ذكر في سورة النساء خاتمها، وما نتج عنها، وهو قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، فإنها نزلت لما اختلف الصحابة رضي الله عنهم فيمن رجع من المنافقين في غزوة أحد.

ونجد إن الله تعالى لما خاطب في سورة آل عمران عيسى عليه السلام بقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٣). ورد في سورة النساء على من زعم قتله، فقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾^(٤) ١٥٧ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٧-١٥٨.

فقد تبين من هذا كله أن عيسى عليه السلام مصدق للتوراة في الدعوة إلى توحيد الله وتعالى فثبت أن المراد بالآية ما قدمته من الإخبار بأن الله رب الكل والأمر بعبادته، «وهذا لما يأتي من أمر الله لنبينا محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾»^(١).

ومنها أنه سبحانه لما قال في سورة آل عمران في حق المتشابه من القرآن قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾^(٢). وقال في سورة النساء مفصلاً في صفة الراسخين في العلم فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

ومنها أيضاً أنه تعالى قال في سورة آل عمران: ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾^(٤)، وقد فصل هذه الأشياء في سورة النساء على نسق ما وقعت في آية آل عمران حيث قال سبحانه: ﴿وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) نظم الدرر: ٤/١٥٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

خَلْفَهُمْ دُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾،
وكان متشابه الخلق هو المزين من متاعب الدنيا، ومحكم الخلق هو المحقق من
دوام خلق الآخرة.

وافتح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل
القضاء كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
وكافتتاح سورة فاطر بـ(الحمد) فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿فَقُطِعَ
دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح
فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به وكافتتاح البقرة بقوله: ﴿الْعَمَّ ۝١﴾
ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿١﴾ إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط
الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب وهذا يظهر ارتباط سورة البقرة بالفاتحة.

وكذلك ارتباط سورة (قريش) بسورة الفيل حتى قال الأخفش: «اتصالها
بها من باب قوله: ﴿فَالنَّكَطُءُءَالُ فِرْعَوْنُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وكذلك
مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتحميد؛ لأن التسبيح
مقدم على التحميد يقال: سبحان الله والحمد لله^(١).

افتتح ﷺ كتابه بسورة الفاتحة، لأنها جمعت مقاصد القرآن؛ إلى آخر
السورة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يدل على إثبات قضاء الله، وعلى

(١) سورة النساء، الآية: ٩.

(٢) ينظر: البرهان: ٣٨/١ - ٣٩.

النبوت، فقد اشتملت هذه السورة على مطالب أربعة، هي المقصد الأعظم من القرآن^(١)»^(٢).

وذكر الكرماني في سورة ص: بدأها بالذكر وختمها بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. وفي سورة (ن) بدأها بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ وختمها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾.

وكذلك مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها، حتى إن منها ما يظهر تعلقها به لفظاً، كما في: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

وقال الكواشي في تفسير المائدة: لما ختم سورة النساء أمراً بالتوحيد والعدل بين العباد أكد ذلك بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. وقال غيره إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام المائدة من فضل القضاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وكذلك افتتاح سورة فاطر بالحمد، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وأيضاً افتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به.

(١) مفاتيح الغيب: ٦٥/١.

(٢) ينظر: أسرار ترتيب القرآن: ٤٩/١ - ٥٠؛ والموسوعة القرآنية: ١٥/١.

حكى الخطابي أنّ الصحابة لما اجتمعوا على جمع القرآن وضعوا سورة
(القدر) عقبَ (العلق)، استدلووا بذلك على إنّ المراد بذلك الكناية في قوله:
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الإشارة إلى قوله: اقرأ.
قال القاضي أبو بكر العربي: وهذا بديع جداً^(١).

والدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة، وكالصايا
التي ختمتها سورة آل عمران، والفرائض التي ختمت بها سورة النساء،
وحسن الختم بها لما فيها من أحكام الموت الذي هو آخر كلّ أمرٍ حي،
والآخر ما نزل من الأحكام وكالتعظيم الذي ختمت به المادة وكالوعد
والوعد الذي ختمت به الأنعام. وكالتحريض على العبادة بوصف حال
الملائكة الذي ختمت به الأعراف. وكالحض على الجهاد الذي ختمت به
الأنفال. ووصف الرسول ومدحه الذي ختمت به براءة وتسليته ﷺ التي
ختم بها سورة يونس. ومثلها خاتمة هود^(٢).

وانظر إلى سورة الزلزلة كيف بدأت بأحوال القيامة، وختمت بقوله:
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾.

وانظر إلى براءة آخر آية نزلت، وهي قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ
إِلَى اللَّهِ﴾، وما فيه من الإشعار بالآخيرية المستلزمة للوفاة.

وكذلك آخر سورة نزلت، وهي سورة النصر، فيها الإشعار بالوفاة،
كما قال ابن عباس، كأنه قال له: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك

(١) ينظر: معترك الأقران: ٥٢/١-٥٤.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٥٨/١-٥٩.

علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، ووافقه عمر على ذلك. فإن قلت: ما الحكمة في ختم هذا القرآن بالمعوذتين؟ والجواب ما قاله ابن جرير في تفسيره عن شيخه ابن الزبير: لثلاثة أمور: الأول: لما كان القرآن العظيم من أعظم نعم الله على عباده، والنعم مظنة الحسد، فختم بها يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله.

والثاني: إنما ختم بهما؛ لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: أنزلت عليّ آيات لم أر مثلهن قط، كما قال في فاتحة الكتاب: لم يترل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان، فافتتح القرآن بسورة لم يترل مثلها: واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الافتتاح والاختتام^(١).

ونجد في سورة (سبأ) تضمنت ما منح ﷺ (داود) السكينة من تسخير الجبال والطير والرياح فناسب ما به. افتتحت السورة من إنَّ الكل ملكه وخلقه، فهو المسخر لها والتصرف في الكل بما شاء، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وهذا أوضح التناسب^(٢).

ونجد مناسبة فاتحة السورة لخاتمها في سورة الأعراف: قصت السورة في أوائلها كيف نجح الشيطان في إخراج آدم من الجنة وفي أثناء السورة تناولت عبر قصص أنبياء الله نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، مع أقوامهم وخبر ما يعصم المرء تشبّه بذكر الله تعالى، وخير الذكر هو القرآن الكريم الذي افتتحت السورة بتقرير حقيقته: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ

(١) ينظر: معترك الأقران: ٦٠/١.

(٢) معترك الأقران: ٦٤/١.

لِنُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ واختتمت بتعظيم شأنه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وبهذا الذكر ينتظم المؤمن العابد مع الكون كله في أنشودة الحمد لله وتعظيمه: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(١) ﴿٢﴾.

أرأيت إلى هذه المناسبة التامة، والرابطة الوثيقة بين فاتحة السورة وخاتمتها، وما بينهما؟ «ألا تبدوا لك السورة -على طولها- وكأنها بالفعل وحدة واحدة؟»^(٣).

وقال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير^(٤) حيث قال رحمه الله: «... واختصت هذه الصورة بذكر أصحاب الأعراف، ومنهم أخذ اسمها والشائع بين المفسرين أن هؤلاء قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فانتظروا حتى يُيت في أمرهم. وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير، فإن الأعراف هي القمم الرفيعة، ومنها سمي عُرف الديك عُرفاً.

وحديث القرآن يرجح هذا الفهم، فهم يتكلمون بثقة، ويوبخون المذنبين على ما اقترفوا، ويستعينون بالله، ومن المستبعد أن يكون ذلك موقف قوم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٦.

(٢) أصل هذا الوجه من الربط بين الخاتمة والبدية مستفاد من الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في: نحو تفسير موضوعي: ١٢٥.

(٣) ينظر: مصابيح الدرر: ١٢٧/١-١٢٨.

(٤) ذكر هذا القول -ضمن أقوال أخرى- الآلوسي: ١٢٤/٨.

استوت حسناهم وسيئاتهم... لا يدرون أين يذهب بهم!»^(١). وقد أشار البقاعي أيضاً بقوله: «... ومقصودها إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية، وأدُلُّ ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف، فإنَّ اعتقاده يتضمن الإشراف على الجنة والنار، والوقوف على حقيقة ما فيها، وما أعد لأهلها، الداعي -أي هذا الإشراف والإطلاع- إلى امتثال كلِّ خير واجتناب كلِّ شر، والاتعاظ بكل مرفق»^(٢).

وعلى هذا تتضح المناسبة التامة بين السورة وشخصيتها، ومقاصدها الكلية. فتكون الإشارة إلى (أهل الأعراف) ومكانتهم في الآخرة، إلماحاً إلى (أهل الشهادة) ووظيفتهم في الدنيا... وهم الأمة الخاتمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) «^(٤).

ونجد في سورة المائدة: قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها أنه حيث وعدنا الله بالبيان كراهة وقوعنا في الضلال (آخر آية من النساء)، ثم ذلك الوعد بذكر هذه السورة، فإنَّ فيها أحكاماً لم تكن في غيرها. قال البغوي: عن ميسرة قال: إنَّ الله تعالى أنزل في

(١) نحو تفسير موضوعي: ١١١، ١١٢.

(٢) مصاعد النظر: ١٣٠/٢؛ وكذلك: نظم الدرر: ٣٤٧/٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) ينظر: مصابيح الدرر: ١٢٩/١-١٣٠.

هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم تترل في غيرها من القرآن....

أما سورة الأنعام فقد ختمت السورة السابقة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فناسب أن يبين سبب تلك الملكية ومنشأها، فافتح هنا بجملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فسبب ملكية الله للسموات والأرض أنه خالقهما وما فيهما، وتلك ملكية حقيقته^(١).

وقال بعض العلماء: افتتح الأنعام بالحمد مناسب لختم المائدة بفصل القضاء، كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).
أما في سورة الأعراف: فقد نوّه الله في أواخر السورة السابقة بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾... إلى أن توعّد المكذّبين به والمعرضين عنه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾؛ فافتتح هذه السورة بنهي نبيّه أن يكون في صدره ضيق منه، بسبب تكذيب قومه به، وصدوفهم عنه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾...^(٣).
وبهذا ظهر ارتباط السور الثلاث، والتحام معانيها^(٤).

(١) ينظر: مصابيح الدرر: ١٣٣/١-١٣٤، وينظر: حاشية الصاوي على الجلالين:

٢٠٨/١، وينظر: تفسير البغوي: ١١٩/٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٣) ينظر: جواهر البيان: ٢٩/٣.

(٤) ينظر: مصابيح الدرر: ١٣٣/١-١٣٤.

ونجد إن الآية الكريمة ختمت بالقدرة من بعد قوله تعالى: ﴿فَيَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ولم تختم بالرحمة، ولا بالعقوبة؟ والسبب في ذلك راجع إلى: أن المحاسبة تكون بعد البعث؛ والبعث يدل على القدرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢). ووجه آخر يقول: لو ختمت الآية بما يقتضي الرحمة وفيها التعذيب لم يكن هناك تناسب؛ ولو ختمت بما يقتضي التعذيب وفيها مغفرة لم يكن هناك تناسب؛ والقدرة تناسب الأمرين: تناسب المغفرة، وتناسب التعذيب؛ لأنَّ المغفرة، والتعذيب كل لا يكون إلاَّ بقدرة الله عَلَّامُ الْغُيُوبِ^(٣).

ونجد هنالك بعض أوجه المناسبة بين سورة الإسراء ومجيئها بعد سورة النحل فأوقع هنا بعض المناسبات بين هاتين السورتين وأوجزها بما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾^(٤) إنه تعالى خلق هذا الإنسان وقومه في أحسن تقويم فلما استوى قوامه أصبح آمن وهو يجادل خالقه. وفي السورة التي بعدها بين الله تعالى: هذا الخصام بالإعراض والنأي بالجانب عمَّن أنعم عليه بوجوده وخلقه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) ينظر: تفسير العثيمين، الفاتحة والبقرة: ٤٤١/٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤.

يُؤَسَّأُ ﴿١﴾ فَبَيْنَمَا أَصْبَحُ بِكَ خَصَمَاهُ رَبِّهِ وَهَذَا إِعْرَاضُهُ.

٢- وكذا في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢﴾. وفي السورة التي تليها يسأل الكفار وهو سؤال كفر

وجحود لقدرته تعالى فيقولون: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ

قَرِيبًا﴾ ﴿٣﴾ فالله تعالى ردّ عليهم أيها الجاهلون أليس الذي خلق

السموات والأرض بكل ما فيها، ألا يقدر على إعادتكم كيفما صرتم،

بلى إنّه تعالى قادر على كل شيء.

٣- لقد ذكر الله تعالى عظم النعم التي أنعم بها على الخليقة فقال: ﴿وَالْأَنْعَمَ

خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ

تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ

وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤﴾ وغيرها من

الفضائل، فأعقب في السورة التي بعدها مبيّناً أنّه مثلما منّ على عباده

بتسخير الدواب وغيرها، فإنّه منّ على أنبياءه بدابة عظيمة ألا وهي

البراق، التي ركبها سيدنا الرسول الكريم محمد ﷺ.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣.

(٣) سورة الإسراء، من الآية: ٥١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨-٥.

- ٤- حذر المولى تعالى المتقولين أن لا يقولوا على الله إلا الحق، أن لا يحللوا ما حرم الله وأن لا يجرموا ما أحل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(١). ثم بين بالسورة التي أعقبتها أنكم مهما قلتم ووصفتم هذا القرآن فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقال ﷻ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢).
- ٥- لا تجد سورتين متتاليتين في القرآن فيهما سجدة إلا هاتين السورتين، ففي النحل الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣) وفي الإسراء: ﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٤)»^(٥).

وقد وجدنا بعضاً من أوجه الترابط بين هاتين السورتين الكريمتين، هي:

- ١- ففي سورة الإسراء ذكر الله تعالى في بداية السورة ﴿بِعَبْدِهِ﴾^(٦) والعبودية هي أسمى المراتب لله تعالى، وفي سورة الكهف رفع الله شأن

(١) سورة النحل، الآية: ١١٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٩-٥٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

(٥) ينظر: مناسبة الإسراء بين سورتي النحل والكهف: ١٨-١٩.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٣.

هذه العبودية بإنزال الكتاب الكريم على عبده بقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾^(١).

٢- إنَّ القرآنَ المنزل على رسل الله هو سر هداية الناس أجمعين كإنزال التوراة على سيدنا موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾^(٢). وفي الكهف يبقى القرآن سرمداً هو الهادي بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٣).

٣- ويؤكد تعالى على الهداية مرة أخرى بقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُم أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۚ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَهَمُّهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾^(٤) فمن اهتدى للصرط المستقيم فلا يخاف بخساً ولا هضمًا، وفي السورة الأخرى قال تعالى: ﴿...مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾^(٥). فقد أكد وعكس في هذه الآية أنه من اختار طريق الهداية فتح له أبوابها ومن أراد طريق الغواية فلن ييسر الله تعالى له موصلاً يوصله إلى سبيل الخير أبداً.

(١) سورة الكهف، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢.

(٣) سورة الاسراء ، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١٧.

٤- ولقد هوى الله الإنسان عن كل ما يعكّر إيمان العبد أو يذهب بالإنسان

إلى جهنم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾^(١).

٥- وفي سورة الإسراء هوى الله تعالى الآباء عن قتل أولادهم فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾^(٢). وفي سورة الكهف بين وعكك علة عدم قتل الأولاد؛ لأنهم زهرة الحياة فقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(٣).

٦- ذكر الله تعالى السعي الذي يذهب بصاحبه إلى رضوان الله في سورة

الإسراء فقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(٤). وأوضح الله وعكك طريق ذلك السعي وهو العمل الصالح الموصل إلى دار الله تعالى الآخرة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣١-٣٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٩.

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١﴾» (٢).

وسورة التكاثر واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها كأنه لما قال هناك فأمه هاوية قيل: لم ذلك فقال: لأنكم ألهاكم التكاثر فاشتغلتم بدنياكم وملاّتم موازينكم بالحطام فخفت موازينكم بالآثام؛ ولهذا عقبها سورة العصر المشتملة على إنّ الإنسان في خسر بيان لخسارة تجارة الدنيا وربح تجارة الآخرة، ولهذا عقبها بسورة الهمزة المتوعد فيها من جمع ما لا وعدده بحسب أن ماله أخلده فانظر لتلاحم هذه السور الأربع وحسن اتساقها.

أمّا سورة قريش فهي شديدة الاتصال بما قبلها لتعلق الجار والمجرور في أولها بالفعل في آخر (٣).

وفي سورة الكافرون أقول وجه اتصالها بما قبلها أنّه تعالى لما قال: فصلّ لربّك أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلاّ ربه ولا يعبد ما يعبدون وبالع في ذلك فكرر وانفصل منهم على إنّ لهم دينهم وله دينه.

وفي سورة النصر فإنّ وجه اتصالها بما قبلها أنّه قال في آخر ما قبلها: ولي دين فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه وسلم من شوائب الكفار والمخالفين فعقب ببيان وقت ذلك وهو مجيء الفتح والنصر فإنّ الناس حين دخلوا في دين الله أفواجاً فقد تمّ الأمر وذهب الكفر وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه؛ ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته ﷺ (٤).

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٢) ينظر: مناسبة الإسراء بين سورتي النحل والكهف: ٢٦-٢٧.

(٣) ينظر: أسرار ترتيب القرآن: ١٥٧/١.

(٤) ينظر: المصدر السابق: ١٥٩/١.

وافتحت البقرة بقوله: ﴿الْمَآءِ ۝١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿فَإِنَّهُ﴾ إشارة إلى الصراط المستقيم في قوله في الفاتحة: اهدنا الصراط المستقيم فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا اللَّهَ الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه^(١).

وقال الكرمانى: أوائل هذه السور، مناسبة لأواخر سورة الفاتحة؛ لأنَّ الله تعالى لما ذكر أنَّ الحامدين طلبوا الهدى قال: قد أعطيتكم ما طلبتم هذا الكتاب هدىً لكم فاتبعوه وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب^(٢).

قال الخطيب: «جاء في الآيات التي ختمت بها سورة (فاطر) سابقة قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ثم جاءت الآيات الثلاث التي تلت هذه الآية والتي ختمت بها السورة تعقيباً على تلك الآية، وبياناً لموقف المشركين من هذا القسم الذي أقسموه... وقد بدأت السورة (يس) بالقسم بالقرآن الكريم، الذي جاءهم النبي الكريم به، ثم وقوع هذا القسم على الإخبار بأنَّ محمداً رسول الله، وأَنَّهُ على صراط مستقيم، وأنَّ تكذيب المشركين له، ورفضهم لدعوته، لم يكن إلاَّ عن ضلال وعمى، وإلاَّ عن استكبار وحسد... لقد كانوا يتمنون أن يبعث الله فيهم رسولاً، وأن يأتيهم بكتاب، مثل كتب أهل الكتاب، وهاهو ذا الرسول، والكتاب... فماذا هم فاعلون؟ ستكشف الأيام عن جواب هذا السؤال...»^(٣).

(١) ينظر: أسرار ترتيب القرآن: ٧٧/١.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٧٨/١.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ٩٠٤/١١.

ونجد في سورة (يس) حيث تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

١- بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ وقوله:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ والمراد به محمد ﷺ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه، افتتح هذه السورة بالقسم على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، وأنه أرسل لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

٢- هناك تشابه بين السورتين في إيراد بعض أدلة القدرة الإلهية الكونية^(١)،

فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقال في سورة يس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ.﴾

٣- وقال تعالى في فاطر: ﴿وَرَىٰ الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ﴾^(٢).

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة النبي محمد ﷺ، ثم تحدثت عن كفار قريش، الذين تمادوا في الضلال، وكذبوا الرسول الكريم، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه^(٣).

ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون، وأيضاً تحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور، وعن أهل الجنة والنار، التفريق بين المؤمنين والمجرمين، ثم ختمت السورة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع (البعث والجزاء) وإقامة الأدلة والبراهين على

(١) ينظر: الخلاصة في تفسير سورة يس: ١/٣-٤.

(٢) التفسير المنير: ٢٢/٢٨٧.

(٣) ينظر: الخلاصة في تفسير سورة يس: ١/٥.

حدوثه، وعلى صدقه^(١).

وقال دروزة: «في السورة تأكيد لرسالة النبي ﷺ وصدقها وتنويه بالقرآن. وتقريع للكفار وتنديد بعقائدهم وشدة غفلتهم وعنادهم. وفيها قصة من القصص المسيحية كما فيها تنويه بنعم الله وبعض مشاهد الكون، وإنذار وتبشير بيوم القيامة... وفصول السورة منسجمة ومترابطة تسوغ القول إنها نزلت جملة واحدة أو متلاحقة»^(٢).

كانت الآيات التي ختمت بها سورة (التحریم)، معرضاً للصراع بين الخير والشر، والحرب بين الإيمان، والكفر. ثم كان ممّا بدأت به سورة (الملك) قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليقرر أنّ نتيجة هذا الصراع بين المحقّين والمبطلين، والمحسنين والمسيئين. إنّما تظهر على حقيقتها كاملة يوم القيامة، ولهذا كان ممّا قضت به حكمة الله تعالى أن يكون الموت، ثم تكون حياة بعد هذا الموت، ليحاسب الناس على ما عملوا في الدنيا، من خير أو شر... فكان من المناسب أن تلتقي هذه الحقيقة التي قررتها سورة (الملك) مع تلك الحقيقة التي ختمت بها سورة (التحریم) وبذلك يتأكد المراد منهما معاً^(٣).

وفي التفسير المنير: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين:

١- وجه عام:

وهو أنّ هذه السورة تؤكد مضمون السورة السابقة في جملتها، فالسورة

(١) صفوة التفاسير: ٨٣/٣.

(٢) التفسير الحديث: ٢٠/٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١٥/١٠٤٣.

المتقدمة تبين مدى قدرة الله وهيمنته وتأيينه للرسول محمد ﷺ في مواجهة احتمال ظهور تظاهر امرأتين ضعيفتين من نسائه عليه.

٢- وجه خاص:

وهو أنه تعالى ذكر في أواخر (التحریم) مثالين فريدين متمثلين بامرأتين نوح ولوط للكافرين، وبامرأة فرعون المؤمنة، ومريم العذراء للمؤمنين، وهذه السورة تدل على إحاطة علم الله وتدبيره وإظهاره في خلقه ما يشاء من العجائب والغرائب...^(١).

وقال الآلوسي: «وجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ضرب مثلاً للكفار بتلك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبیین عظیمين ومثلاً للمؤمنين بأسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وإن أكثر قومهما كفار، افتتح هذه بما يدل على إحاطته ﷻ وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه. وقيل: إن أول هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢) لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك وفصل بسورة التحريم؛ لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتممة لها»^(٣).

وقال الصابوني: «... ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول، فذكرت أن الله ﷻ بيده الملك والسلطان، وهو المهيمن على الأكوان، الذي تخضع لعظمته الرقاب، وتعنوا له الجباه، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(١) التفسير المنير: ٥/٢٩؛ وينظر: تفسير المراغي: ٣/٢٩.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٣) روح المعاني: ٣/١٥.

الآيات ثم تحدثت عن خلق السماوات السبع، ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب، وهم يرون جهنم تتلظى، وتكاد تنقطع من شدة الغضب. ثم ختمت السورة الكريمة بالإندار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول الكريم من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول الكريم، وهلاك المؤمنين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟، ويا له من وعيد شديد ترتعد له الفرائض!!^(١).

وفي التفسير المنير:.... وقد بدأت السورة بالقسم الإلهي بالقرآن الحكيم على إنَّ محمداً رسول حقاً من رب العالمين لينذر قومه العرب وغيرهم من الأمم، فانقسم الناس من رسالته فريقين: فريق معاند لا أمل في إيمانه، وفريق يرجى له الخير والهدى، وأعمال كلٍّ من الفريقين محفوظة، وآثارهم مدونة معلومة في العلم الأزلي القديم. ثم ضرب المثل لهم بأهل القرية كذبوا رسلهم واحداً بعد الآخر، وكذبوا الناصح لهم وقتلوه، فدخل الجنة. ثم انتقل البيان إلى إثبات البعث والقدرة والوحدانية بإحياء الأرض الميتة، وبيان قدرة الله في الكون من تعاقب الليل والنهار...

ثم ختمت السورة بالرد القاطع على منكري البعث بما يشاهدونه من ابتداء الخلق، وتدرج الإنسان في أطوار النمو، وإثبات الشجر الأخضر ثم جعله يابساً، وخلق السماوات والأرض، وإعلان القرار النهائي الحتمي على كلٍّ ذلك، وهو قدرة الله الباهرة على إيجاد الأشياء بأسرع مما يتصور الإنسان، وإِنَّه الخالق المالك لكل شيء.

(١) صفوة التفاسير: ٣/٣٧٧.

والخلاصة: أنَّ السورة كلها إيقاظ شديد للمشاعر والوجدان، وتحريك قوي للأحاسيس، وفتح نفاذ القلوب، لكي تبادر إلى الإقرار بالخالق وتوحيده، والإيمان بالبعث والجزاء^(١)»^(٢).

مناسبة سورة النبأ لما قبلها من سورة الرسائل من ثلاثة وجوه هي:

١- تشابه السورتين في الكلام عن البعث وإثباته بالدليل، وبيان قدرة الله عليه، وتوبيخ الكفار المكذبين به، ففي الرسائل: ﴿أَلَمْ نُنْهِكَ الْأَوَّلِينَ... الأَرْض كَفَاتًا، وفي هذه قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا... وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا...﴾ الآيات (٦-١٦).

٢- اشتراك السورتين في وصف الجنة والنار، ونعيم المتقين وعذاب الكافرين.

٣- فصلت هذه السورة ما أجمل في السورة المتقدمة، فقال تعالى في الرسائل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُحُلَّتْ ۖ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ وقال تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾ إلى آخر السورة^(٣).

قال الخطيب: «مناسبتها لما قبلها كانت سورة (الرسائل) قبل هذه السورة، حديثاً متصلاً عن المشركين، وكانت نهاية هذا الحديث معهم أن ألقى بهم في جهنم، وأخذ كلَّ منهم مكانه فيها... ثم أعيدوا إلى مكانهم في هذه الحياة الدنيا، حيث يأكلون ويتمتعون، كما تأكل الأنعام، دون أن يكون لهم من تلك الرحلة المشؤومة بهم إلى جهنم، ما يغير بهم من ضلال وعناد، ما زالوا على موقفهم من آيات الله، وما زالوا في تكذيب لرسول الله، وفي

(١) ينظر: التفسير المنير: ٢٢/٢٨٨.

(٢) ينظر: المذهب في تفسير سورة يس: ١/٦٨-٦٩.

(٣) ينظر: المذهب في تفسير عم: ١٦٨.

عجب واستنكار، حتى ليسأل الوجود كله: إذن فبأي حديث بعد هذا الحديث يؤمن هؤلاء الضالون المكذبون؟ وتجيء سورة (النبا) بعد هذا التساؤل الاستنكاري لنمسك بهم وهم في حديث عن هذا الحديث، وفي بلبلة واضطراب من أمره، وفي تنازع واختلاف فيه...»^(١).

وقال المراغي: نزلت بعد سورة المعارج ومناسبتها لما قبلها من وجوه:
١- اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين عذبوا به.

٢- إن في هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعاً للمكذبين، فهناك قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهنا قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

٣- إن في كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون، ويعذب به المكذبون.

٤- إن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك عن يوم الفصل، فهناك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمِ أُخِّلَتْ﴾ (١٢) ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾^(٢) وهنا قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا﴾... إلى آخر السورة^(٣).

وقال سيد قطب: وهي تفتح بسؤال موحٍ مثير للاستهوال والاستعظام، وفي أمر عظيم لا خفاء فيه، ويغضب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) ﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ (٢) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ (٣) ﴿كَلَّا﴾

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤١٥/٢.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ١٣.

(٣) ينظر: تفسير المراغي: ٣/٣٠.

سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تَزَكَّى سَيَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ومن ثم يعدل السياق عن المعنى في الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه، ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم، ليدل على ما وراءه ويوحى بما سيتلوه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾. ومن هذا الحشد من الحقائق الصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، والذي هددهم به يوم يعلمون! ليقول لهم ما هو؟ وكيف يكون: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْخَفُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾... ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَابًا ﴿٢٢﴾ لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾. ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقاً: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

(١) سورة النبأ، الآية: ١-٤.

(٢) سورة النبأ، الآيات: ٦-١٦.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ١٧-٢٠.

(٤) سورة النبأ، الآيات: ٢١-٣٠.

وتختتم السورة بإيقاع جليل في حقيقته وفي المشهد الذي يعرض فيه،
 وبإنداز وتذكير قبل أن يجيء اليوم الذي يكون فيه هذا المشهد الجليل: ﴿رَبِّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ
 صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
 اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
 وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .. ذلك هو النبأ العظيم، الذي يتساءلون عنه،
 وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم! (١).

ومناسبة سورة النازعات لما قبلها من وجهين:

١- تشابه الموضوع: فكلتا السورتين تتحدثان عن القيامة وأحوالها، وعن مآل
 المتقين ومرجع المجرمين.

٢- تشابه المطلع والخاتمة: فَإِنَّ مَطْلِعَ السَّورَتَيْنِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْبَعْثِ
 وَالْقِيَامَةِ، الْأُولَى تَوْكِدَ وجود البعث وما فيه من أهوال وحساب وجزاء،
 والثانية افتتحت بالقسم على وقوع القيامة لتحقيق ما في آخر عم.
 والأولى اختتمت بالإنداز بالعذاب القريب يوم القيامة، والثانية ختمت
 بالكلام عمّا في أولهما من إثبات الحشر والبعث، وتؤكد حدوث القيامة،
 فكان ذلك كالدليل والبرهان على مجيء القيامة وأحوالها (٢).

ابتدأت السورة بالقسم بالملائكة الأبرار، التي تترع أرواح المؤمنين
 بلطف ولين، وتترع أرواح المجرمين بشدة وغلظة لقوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾ (١)
 وَالنَّشِيطَاتِ دَشَاطًا﴾ (٢) وَالسَّيِّحَاتِ سَبَّحًا﴾ (٣) فَالسَّيِّغَاتِ سَبَّحًا﴾ (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) ثم

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٤٣٢/٧.

(٢) ينظر: المذهب في تفسير جزء عم: ١١٤/١.

تحدثت عن المشركين، المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفضيع ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾.

ثم تناولت السورة (فرعون، الطاغية الجبار الذي ادعى الربوبية فقصمه الله، وأهلكه بالغرق هو وقومه) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّى ﴿١٨﴾.

ثم ختمت السورة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه، وكذبوا بجدوئه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْهَرَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لِرَبِّهِمْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوِ صُحُورًا ﴿٤٦﴾ (١).

وفي السورة تأكيد ربّاني بتحقيق يوم البعث والحساب وما سوف يستولي على الكفار فيه من خوف وندم، وتذكير برسالة موسى إلى فرعون، وبمشاهد الكون وعظمة الله وبديع صنعه فيه، وتنديد بالكفار لشكهم في الآخرة وبيان إنذارى وتبشيري بمصير كل من المتقين والطاغين فيها.

ونظم السورة وترابط آياتها يسوغان القول إنّها نزلت دفعة واحدة (٢).

وسورة (يس) مناسبتها لما قبلها: لهذه السورة تعلق بما قبلها وهي (النازعات)؛ لأنّه تعالى ذكر هناك أنّ النبي ﷺ منذر من يخشى الساعة، وهنا ذكر من ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر

(١) صفوة التفاسير: ٤٥٤/٣.

(٢) التفسير الحديث: ٤١٠/٥.

الإسلام ويدعوهم إليه وهم عتبه وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة. كما أنّ بينهما تشابهاً في موضوع الحديث عن يوم القيامة وأهوالها، وإثبات البعث بمخلوقات الله في الإنسان والكون، فهناك وصفت القيامة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾. وهنا وصفت بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ وهما من أسماء يوم القيامة. وهناك أثبت الله البعث بخلق السماء والأرض والجبال، وهنا أثبتته بخلق الإنسان والنبات والطعام^(١).

ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الصحابي البصير (عبد الله بن أم مكتوم) الذي جاء إلى الرسول الكريم فطلب منه أن يعلمه مما علّمه الله، والرسول الكريم مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام، فعبس الرسول الكريم في وجهه وأعرض عنه، فترل القرآن بالعتاب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْكَنُ ۚ﴾ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ۚ ﴿٥﴾ فَأَن ت لَهُ تَصَدَّى ۚ﴾. ثم تحدّثت عن جحود الإنسان، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله عليه ﴿قُلِ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرُهُ ۚ﴾ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ۚ﴾.

ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ ﴿٢٦﴾ فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ ﴿٢٧﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ۚ ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاها فَاخْتَلَا ۚ﴾.

وختمت السورة ببيان أهوال القيامة، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة

(١) ينظر: المذهب في تفسير جزء عم: ١٦٦/١.

الهلول والفرع، وبيّنت حال المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم العصيب ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١﴾.

قال الخطيب: كان مما ختمت به سورة (النازعات) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا﴾ وكان في ذلك ما يشير إلى المقام الذي يأخذه النبي من قومه، الذين لج بهم الضلال والعناد، وجعلوا همهم المجادلة، ولقاء النبي بالأسئلة... إنهم لم يؤمنوا بوقوع هذا اليوم، يوم القيامة، وسؤالهم عن موعد شيء لا يؤمنون به إنما هو ضلال من ضلالهم.

وهؤلاء الضالون المعاندون لا يخشون الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ولن يؤمنوا أبداً معها طال وقوفك معهم... وكلا ﴿إِنَّمَا نَذِيرٌ﴾ (١١) ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (٢). وفي سورة التكوير نجد إنَّ كلَّ من السورتين سورة (عبس والتكوير) توضّح أهوال القيامة وشدائدها، ففي (عبس) قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿١﴾. وفي سورة التكوير قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (٢) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (٣) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، فلما ذكر سبحانه الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين، أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات

(١) صفوة التفاسير: ٤٥٨/٣.

(٢) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٤٣/٢.

يوم الجزاء^(١).

قال الخطيب: «جاء في سورة (عبس) عرض ليوم القيامة، وللعذاب الشديد الذي يحيط بالكافرين، حتى ليفر الكافر من أخيه، وأمه وأبيه... وقد جاءت سورة (التكوير) بعدها، عارضة المشاهد التي تسبق هذا اليوم، لتخرج بالمشركون وراء دائرة العذاب قليلاً، ليلقوا نظرة على الحياة الدنيا، التي كانوا فيها والتي يودون الفرار إليها... فهل إذا أُتيحت لهم فرصة الفرار من هذا العذاب، وعادوا إلى الدنيا، أيصلحون ما أفسدوا من حياتهم؟ أيؤمنون بهذا اليوم، وما يلقي الكافرون فيه؟... هذا سؤال ستكشف الأيام عن الجواب الذي يعطيه هؤلاء المشركون عنه...»^(٢).

ابتدأت سورة التكوير ببيان القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل، يشمل الشمس والنجوم، والجبال... الخ، كما يشمل البشر ويهز الكون هذا عنيفاً، ولا يبقى شيء إلا قد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾. ثم تناولت (حقيقة الوحي) وصفة النبي الذي يتلقاه والرسول الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك إلى نور العلم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَالْيَلِيلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾. وختمت السورة ببيان بطلان مزاعم المشركون، حول القرآن العظيم، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

(١) ينظر: المذهب في تفسير جزء عم: ٢٢٩/١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٤٦٦/١٥.

﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾.

وسورة الانفطار هي على شاكلة سابقتهما (التكوير)... كل منهما حديث عن يوم القيامة وإرهاصاتها. فكان جمعهما في هذا السياق من جمع النظر إلى نظيره، ليتأكد ويتقرر في الأذهان^(٢).

ابتدأت السورة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون، من انفطار السماء وانتشار الكواكب، وغيرها، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ١ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ٣ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ ٤ ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾. ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جلّ وعلا لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيرِ﴾ ٦ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ﴾ ٧ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾؟ ووضحت أنّ الله تعالى وكلّ بكلّ إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ ٩ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ١٠ ﴿كِرَامًا كَنِينًا﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ﴾. ثم ختمت السورة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كلّ حول وقوة وتفرد الله تعالى بالحكم والسلطان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ١٧ ﴿ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ١٨ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ١٩.

وتتعلق سورة المطففين بما قبلها من وجوه أربعة:

(١) صفوة التفاسير: ٤٦٢/٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٤٧٨/١٥.

(٣) صفوة التفاسير: ٤٦٥/٣.

١- قال تعالى في آخر السورة المتقدمة واصفاً يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا أتبعه هنا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمراد: الزجر عن التطفيف: والبخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية.

٢- في كلٍّ من السورتين توضيح أحوال يوم القيامة.

٣- ذكر الله تعالى في السورة السابقة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَنِينًا﴾ وذكر هنا ما يكتبه الحافظون: ﴿كُنْتُ مَرْقُومٌ﴾ يجعل في عليين، أو في سجين.

٤- ذكر الله تعالى تصنيف الناس إلى فريقين: أبرار وفجار في كلٍّ من السورتين، وذكر مآل كلٍّ فريق، إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار. وقال أبو حيان: لما ذكر الله حال السعداء الأشقياء ويوم الجزاء وعظيم شأن يومه، ذكر ما أعد لبعض العصاة، وذكرهم بأخس ما يقع بالمعصية، وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثير المال وتنميته^(١)»^(٢).

في سورة الانشقاق قال الخطيب: «تعد هذه السورة، وما سبقها، وما يأتي بعدها، حديثاً متصلاً عن القيامة وأحداثها... فكلّ سورة منها معرض من معارض هذا اليوم المشهود... فإذا ذهبنا نلتمس مناسبة لترتيب هذه السور، كان ذلك أشبه بالتماس المناسبة بين ترتيب الآي في السورة الواحدة... والمناسبة هنا وهناك قائمة أبداً...»^(٣).

(١) البحر الحيط: ٤٣٩/٨؛ وينظر: التفسير القرآني للقرآن: ١٥/١٤٨٦.

(٢) ينظر: المذهب في تفسير جزء عم: ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١٥/١٥٠٠.

وقال البقاعي: «مقصودها الدلالة على آخر المطففين من إنّ الأولياء
 ينعمون والأعداء يعذبون، لأنّهم كانوا لا يقرون بالبعث ولا بالعرض على
 الملك الذي أوجدهم وربّاهم كما يعرض الملوك عبيدهم ويحكمون بينهم
 فينقسمون إلى أهل ثواب وأهل عقاب واسمها الانشقاق أول دليل على ذلك
 يتأمل الظرف وجوابه الدال على الناقد البصير وحسابه، بسم الله ﴿ذِي الْجَلَالِ
 وَالْإِكْرَامِ﴾ الرحمن (الذي كملت نعمته فشملت الخاص والعام) الرحيم (الذي
 أتمها بعد العموم على أوليائه فأسعدهم بإتمام الإنعام)»^(١).

وتتعلق سورة البروج بما قبلها من ثلاثة وجوه هي:

- ١- التشابه في الافتتاح بذكر السماء.
 - ٢- اشتمال السورتين على وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين، والتنويه بعظمة القرآن.
 - ٣- تضمنت السورة السابقة أنّ الله عليم بما يجمع المشركون في صدورهم للنبي ﷺ والمؤمنين معه من أنواع الأذى المادي، كالضرب والقتل والتعذيب في حر الشمس، والأذى المعنوي، من حقد وحسد، وعداوة، وذكر في هذه السورة أنّ هذا شأن من تقدمهم من الأمم الكافرة الفاجرة. وفي هذا عظة للمشرّكين وتثبيت للمؤمنين^(٢).
- حيث ابتدأت السورة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، وباليوم العظيم المشهود، وبالرسل والخلائق، على هلاك المجرمين،

(١) ينظر: نظم الدرر: ٣٦٧/٨.

(٢) ينظر: المذهب: ٣٦٣/١.

(٣) ينظر: تفسير المراغي: ٥٤٤٢/١.

الذين طرحوا المؤمنين في النار ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ٢ وشاهدين ومشهود ٣ ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَحْدُودِ﴾ ٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿الآيات. ثم تلاها الوعيد والإنذار، لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

ثم تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الكفرة، الذين فتنوا عباده وأوليائه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ١٢ إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ.

وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار (فرعون) وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿إلى نهاية السورة الكريمة^(١).

أما سورة الطارق فإنها مرتبطة بما قبلها من ناحيتين:

- ١- ابتداء السورتين بالحلف بالسماء كسورتي (الانشقاق) و(الانفطار).
- ٢- التشابه في الكلام عن البعث والمعاد وعن صفة القرآن للرد على المشركين به وبالبعث ففي سورة البروج: ﴿إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ﴾، وفي هذه السورة ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، وفي السورة السابقة: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ ١١ في لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿وفي هذه السورة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾.

(١) صفوة التفاسير: ٤٧٤/٣.

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، فأقسم تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤، ثم ساق الأدلة والبراهين، على قدرة رب العالمين، على إعادة الإنسان ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ الآيات ثم بعد ذلك ختمت بالحديث عن القرآن الكريم، معجزة محمد ﷺ وحجته البالغة إلى الناس، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم لتكذيبهم بالقرآن ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝٩ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٠ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝١١ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٢ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٣ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٤ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُودًا ۝١٥﴾ (١).

وفي السورة تأكيد للبعث وتدليل عليه بقدرة الله على خلق الإنسان للمرة الأولى. وإنذار للسامعين بأن أعمالهم محصاة عليهم. ووعيد للكفار وتطمين للنبي ﷺ وأسلوبها عام مطلق (٢).

وتظهر صلة سورة الأعلى بما قبلها في إن سورة الطارق ذكرت خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وبدء خلق النبات في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝٩ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾. وهذه السورة تحدثت مما هو أعم وأشمل من خلق الإنسان وغيره: ﴿خُلِقَ فَسْوَى﴾ وخلق النبات في قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. وختمت سورة (الطارق) قبل هذه السورة

(١) صفوة التفاسير: ٤٧٧/٣.

(٢) التفسير الحديث: ٢٦٧/٢.

بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُمْ رُؤْيَا﴾ وفي هذا كما عرفناه تهديد للمشركين، وتطمين لقلب النبي، وحماية له من هذا الكيد، فناسب مجيء سورة الأعلى مبتدئة بقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ففي هذا الاستفتاح دعوة إلى تمجيد الله وتعظيمه، والتسبيح بحمده^(١).

وتتعلق سورة الفجر بما قبلها من وجه ثلاثة هي:

١- إن القسم الصادر في أولها كالدليل على صحة ما ختمت به السورة التي

قبلها من قوله وَرَبِّكَ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

٢- تضمنت السورة السابقة قسمة الناس إلى فريقين: أشقياء وسعداء، أصحاب الوجوه الخاشعة، والناعمة.

٣- إن جملة ألم تر كيف فعل ربك بعاد... في هذه السورة مشابهة لجملة: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت في السورة المتقدمة^(٢).

أما سورة البلد فإنها ترتبط بما قبلها من وجهين هما:

١- ذم الله تعالى في السورة السابقة (الفجر) من أحب المال، وأكل التراث، ولم يحض على طعام المسكين، وذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة (اعتقاق العبيد) والإطعام في يوم المسغبة (المجاعة).

٢- ختم الله تعالى السورة المتقدمة ببيان حال النفس المطمئنة في الآخرة، ذكر هنا طريق الاطمئنان، وحذر من ضده وهو الكفر بآيات الله ومخالفة أوامر الرحمن^(٣).

(١) التفسير القرآن للقرآن: ١٥٢٧/١٦.

(٢) ينظر: المذهب في تفسير جزء عم: ٥٣٨/١.

(٣) تفسير المراغي: ١٥٥/٣٠.

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام، الذي هو سكن النبي ﷺ، تعظيماً لشأنه عند ربه، ثم تحدّثت عن بعض كفار مكة، الذين اغتروا بقولهم، وكذبوا رسول الله وأنفقوا أموالهم في المفاخرة. ظناً منهم أن إنفاق الأموال في حرب الإسلام يدفع عنهم عذاب الله ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۖ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾. ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكُ رَقَبَةً ۖ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.

وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار، في ذلك اليوم العصيب ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ الآيات إلى نهاية السورة الكريمة^(١).

وفي السورة تنديد بالذين يقفون موقف المشاقّة ويتباهون بأموالهم وتقرير لقابلية الإنسان للاختيار بين الخير والشر، وحثّ على الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة. وفي مقدمتها عتق الرقيق. وأسلوبها عام إجمالاً^(٢).

وتضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية. حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة^(٣).

(١) صفوة التفاسير: ٤٨٩/٣.

(٢) التفسير الحديث: ٢٥٣/٢.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٩٠٨/٦.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء محمد ﷺ. فالقرآن الكريم كتاب الله ﷻ والذي أنزله على رسوله محمد ﷺ. ومنذ نزوله اشتغل العلماء والباحثون فيه، وألفت فيه العديد من الدراسات والكتب، ويشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١).

وبعد هذه خلاصة ما توصلنا إليه في بحثنا نجملها بالآتي:

❖ أكدت الدراسة على ضرورة فهم ودراسة علم المناسبات لما له من اثر على فهم إعجاز القرآن الكريم والوقوف على روعة وجمال كتاب الله. وهو ثمرة من ثمار علم التفسير لم ينتبه إليها إلا القليل من المفسرين قديماً وحديثاً.

❖ كان لصور التناسب القرآني الأثر الواضح في بيان وتوضيح الكثير من المعاني التي أشكلت على المفسرين، وبخاصة المحدثين.

❖ كان لصور التناسب القرآني الأثر الواضح في بيان وتفسير الكثير من المعاني التي كانت غامضة أو أشكلت على المفسرين وبخاصة ممن وقف عليها لغوياً وبيانياً. ثم انكشف لهم ما حوته من دلالات سياقية وجمالية أغنت النص القرآني المعجز والمفسر.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

❖ أوضحت الدراسة مدى العلاقة الوثيقة بين علم المناسبة والمعنى اللغوي الذي سيقى إلى الألفاظ من خلال توضيح بنية الاسم ومعناه الصرى الذى سيقى إلى ، ومدى الترابط والتلاحم بينهما.

❖ كما أوضحت الدراسة مدى ترابط المناسبة مع معناها اللغوى لموقع الاسم من خلال طبيعة المسند أو المسند إليه من خلال التقديم والتأخير أو التجرد والزيادة وكذا الأفعال وصيغها ودلالاتها الزمنية، وأثر ذلك فى سياقها اللغوى.

❖ كما بينت الدراسة مدى اهتمام المناسبة وأثرها فى عدول اللفظ عن أصله وسياق حاله وخروجه عن معناه الأصلي وإثراء السياق اللغوى من تقديم وتأخير وعناية واختصاص ورعاية للفاصلة وغيرها.

❖ كان لأثر المناسبة وقعا جماليا فى بيان علاقة حذف اللفظ وسياقه اللغوى من خلال حذف الفعل أو الفاعل أو المفعول، وكان هذا واضحا فى الحذف فى الجملة الفعلية ونسبة تفوق الحذف فى الجملة الاسمية، وسبب ذلك لما للفعل دور فى التجديد وعدم الثبات على عكس غيره من الجمل الأخرى.

❖ أوضحت الدراسة قوة العلاقة بين السياق اللغوى والمناسبة وبخاصة فى موضوع الالتفات وصوره والسبب فى ذلك لتنوع الخطاب فى الضمائر.

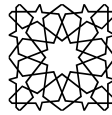
❖ توصلت الدراسة أن العلاقة الحميمة بين المناسبة والتناسب فى بناء الجملة ووجوه النظم من استفهام وأمر ونداء وتوعيد وبقية الوجوه أثرت فى خروج هذه الموضوعات الى سياقات جديدة أفاد منها اللغويون والكثير من البلاغيين وقد أثرت المكتبة البلاغية بمصطلحات جديدة لم تطرق من قبل.

❖ كانت للمناسبة القرآنية أثر واضح في وجوه النظم وبخاصة الصورة البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وكان لصورة المجاز الريادة والكثرة في ذلك، وسببه لكثرة تناول السياق لعلاقاته اللغوية والفعلية وتداخله فيها مما اثر على كثرة تواجد المناسبات فيه دون غيره من الوجوه.

❖ توصلت الدراسة أنَّ المناسبة في الفاصلة القرآنية كان لها الوقع الأكبر والتنوع الأكثر في مجمل الدراسة وسبب ذلك من خلال كثرة العلاقات بين الفواصل القرآنية وسياق آياتها ومضمونها ومضمون السورة مع سابقتها وعلاقتها مع لاحقتها كل ذلك جعل من المناسبة الأثر الواقع والجمال الرائع في توظيفها وبيان إعجاز كتاب الله العظيم.

❖ كانت خاتمة الدراسة موقع المناسبة القرآنية وتطبيقاتها بين فاتحة الكتاب والبقرة والسورة والمفتتح والخواتيم وتوصل البحث الى نتيجة مهمة أنَّ المناسبة القرآنية ظهرت بين جميع آيات كتاب الله بين مفتحتها وخواتيم التي قبلها. من خلال النظر بعمق وبتدبر ليكشف لنا البحث قيمة هذا العلم الجليل الذي هو كمال إعجاز كتاب الله.

والله من وراء القصد



المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

- ١- ابن سنان الحفاجي، عبد الله بن محمد، ١٩٥٣هـ، سر الفصاحة، تعليق: د. عبد المتعال الصعيدي، ط ١٠، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.
 - ٢- الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: العلامة: الشيخ شعيب الأرناؤوط، مطبعة مؤسسة الرسالة ناشرون، ط ١، سنة ٢٠١٣م.
 - ٣- أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت، مقبولة الحصري، جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، ٢٠١٢.
 - ٤- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، دار التراث العربي، مصر، القاهرة، د.ت.
 - ٥- الأساس في التفسير، سعيد حوى، ط ٣، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة.
 - ٦- أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الاعتصام، القاهرة.
 - ٧- أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ط ١، د.ت.
 - ٨- الإشارة إلى الإيجاز من بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، د.ت.
 - ٩- الأصول: دراسة إيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، النحو، فقه اللغة، البلاغة، د. تمام حسان، الشركة الجديدة، دار الثقافة، ط.
- ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

- ١٠- أضواء البيان إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ-)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، عام ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- ١١- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- دراسة قرآنية لغوية وبيانية، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط٢، د.ت.
- ١٢- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
- ١٣- الأقصى القريب في علم البيان، الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخي (ت٧٤٨هـ-)، صحح على نسخة قرأها العلامة عز الدين أبو عبد الله محمد الأمبوطي، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٣٢٧هـ.
- ١٤- إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله سبحانه، دار عمان للنشر، الأردن، ط٥١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- ١٥- أولى ما قيل في آيات التثزيل، رشيد الخطيب الموصل (ت١٩٧٩م)، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل، ١٩٧٣م-١٩٧٤م.
- ١٦- الآيات المبهمة في القرآن الكريم دراسة بلاغية، أ.د. عقيد خالد العزاوي، بحث في مجلة الأستاذ ، العدد ٦٨ لسنة ٢٠٠٤، جامعة بغداد، كلية التربية- ابن رشد.
- ١٧- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ-)، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، د.ت.
- ١٨- بحث الصورة الشعرية في شعر ذي النون المصري، د. إيمان كمال

المهداوي: ٣٦، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العدد ٢٤، عام ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١٩- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ)، تحقيق: د. أحمد بدوي، ود. جابر عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٠م.

٢٠- البديع، عبد الله بن المعتز (ت ٤٩٦هـ)، نشر وتعليق: أفناطيوس كراتشكوفسكي، مطابع دار الشعب، القاهرة، ط ١، ١٩٦٥م.

٢١- البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق: محمد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

٢٢- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار الدراسات، القاهرة، مطبعة دار الحديث سنة الطبع (٢٠٠٦م)، مجلد ١.

٢٣- البلاغة الميسرة، جمال إبراهيم قاسم، دار ابن الجوزي، مصر- القاهرة، ط ١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٢٤- البلاغة من منابعها (علم المعاني)، د. محمد هيثم غرة، دار الرؤية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق- سوريا، ط ٢، ١٩٩٩م.

٢٥- البيان القرآني في تفسير أولى ما قيل في آيات الترتيل، أ.د. عقيد خالد العزاوي، دار العصماء، دمشق، ط ١، ٢٠١٠.

٢٦- البيان القرآني في تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أ.د. عقيد خالد العزاوي، دار العصماء، دمشق، ط ١، ٢٠١٢.

- ٢٧- البيان في إعجاز وتناسب سور القرآن، أ.د. عقيد خالد العزاوي، دار العصماء ودار الماجد، ط ١، ٢٠١٤.
- ٢٨- البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ٢٩- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسين الزبيدي، تحقيق: علي شيري، مطبعة دار الفكر، بيروت، سنة الطبع، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- ٣٠- تأملات في القرآن الكريم، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٩١م.
- ٣١- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: حفي محمد شرف، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٣٢- التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير كتاب الله المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، مطبعة دار التونسية، تونس، سنة الطبع ١٩٨٤م.
- ٣٣- التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٣٨٣هـ.
- ٣٤- تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء: ٢.
- ٣٥- تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، نشر: مطبعة المنار، القاهرة، (د.ط)، (١٣٤٦هـ).

- ٣٦- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- ٣٧- تفسير أولى ما قيل في آيات التزويل، رشيد الخطيب الموصلي، مطبعة جامعة الموصل، ط١، ١٩٧١-١٩٧٥.
- ٣٨- التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ٣٩- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ)، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط٢، ١٩٣٤م.
- ٤٠- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ١٩.
- ٤١- تهذيب السعد ترتيب الكتاب (مختصر المعاني)، مسعود بن عمر بن عبد الله سعد التفتازاني (ت٧٩١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط٣، ١٩٥٠م.
- ٤٢- جماليات السياق القرآني وتحليلاته في الدرس البلاغي، أ. د. عقيد خالد العزاوي، دار الفراهيدي، بغداد، ط١، ٢٠١٣.
- ٤٣- حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتاني، بغداد، ١٩٧٩م.
- ٤٤- خزانة الأدب وغاية الأرب، أبي بكر تقي الدين الحموي (ت٨٢٧هـ)، شرح: عصام الاسفراييني، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.

- ٤٥- الخلاصة في تفسير سورة يس، علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.
- ٤٦- الخلاصة في تفسير سورة يس، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود الباحث في القرآن والسنة (حقوق الطبع لكل مسلم).
- ٤٧- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ت.
- ٤٨- دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل (ت ١٤٢٦هـ)، الناشر: دار المنار، ط ٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- ٤٩- درة التزليل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- ٥٠- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧٤هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ٥١- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، الهند، ط ١، ١٣٨٨هـ.
- ٥٢- الدلالة والمعنى، أ. د. عقيد خالد العزاوي وعماد خليفة، دار العصماء، دمشق، ط ١، ٢٠١٣.
- ٥٣- ديوان الحماسة، البحثري، مطبعة دار الفكر، بيروت، د. ت.
- ٥٤- ديوان عبد الباقي العمري الترياق الفاروقي، مطبعة حسن احمد الطوخي، مصر، ط ١، ١٢٨٧هـ.

- ٥٥- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي (ت ٧٠٢هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٥٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط ، د. ت.
- ٥٧- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار إحياء الكتب الجامعية، د. ت.
- ٥٨- شرح المفصل، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا الأسدي الحلبي النحوي (ت ٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت - لبنان، د. ت.
- ٥٩- شرح جمل الزجاجي، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي (٥٩٧هـ - ٦٦٩هـ)، ابن عصفور الأشيلي، تحقيق: د. صاحب أبو جناح، الموصل - العراق، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٦٠- شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٦١- صفوة التفاسير، الشيخ محمد علي الصابوني، دار الصابوني للنشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧.
- ٦٢- الصناعتين - الكتابة والشعر، أبو هلال: الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٦٣- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة ابن علي بن إبراهيم العلوي اليميني (٦٦٩-٧٤٩هـ)، راجعه وضبطه ودققه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٦٤- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح- شروح التلخيص، أبو حامد بهاء الدين أحمد بن علي السبكي (ت ٧٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.

٦٥- علم المناسبات في السور والآيات (دراسة)، د. محمد بن عمر بن سالم بازمول، جامعة أم القرى، المكتبة المكية، ط ١، ٢٠٠٢.

٦٦- العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، مصر، ط ١، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.

٦٧- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور عبد الله درويش، مطبعة العاني ببغداد، ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م.

٦٨- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، المكتبة الإسلامية، دار عمار، الأردن، ط ١، ٢٠٠٢.

٦٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الفكر، بيروت.

٧٠- الفروق اللغوية، علّق عليه ووضع حاشيته: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٧١- فن التشبه (بلاغة، أدب، نقد)، علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م.

٧٢- في الدراسات القرآنية، السيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

٧٣- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٠م، مجلد ١.

٧٤- قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي بن حسين الحرابي، الناشر: دار القاسم، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ.

٧٥- كتاب الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ط، د.ت.

٧٦- الكتاب، كتاب سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م.

٧٧- الكشف عن حقائق الترتيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي، مكتبة العبيكان، ط ١، ١٤١٨هـ.

٧٨- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: د. عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- ٧٩- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور
الأنصاري الأفرقي (ت ٧١١هـ)، مطبعة دار صادر، بيروت، ط ٣،
١٤١٤م، عدد الأجزاء ١٥.
- ٨٠- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة،
ط ٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٨١- مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار العلم، دمشق،
ط ١، ١٩٨٩م.
- ٨٢- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط ١٧، دار العلم
للملايين، بيروت.
- ٨٣- مباحث في علوم القرآن، مناع خلیل القطان، مطبعة دار المعارف،
الرياض، ط ٣، سنة الطبع ٢٠٠٠م.
- ٨٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير
(ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار
الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٩٨٣م.
- ٨٥- مجاز القرآن، أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، علق عليه:
د. فؤاد سزكين، مطبعة الخانجي، مصر، ط ٢، ١٩٨١م.
- ٨٦- المحصول في علم أصول الفقه، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق:
د. طه جابر فياض، مكتبة المذهب الشافعي، د. ت.
- ٨٧- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر
الحنفي الرازي (ت ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، مطبعة المكتبة
العصرية الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط ٥، سنة الطبع ١٩٩٩م.
- ٨٨- مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، ط ١، ١٤١١هـ.

- ٨٩- مدخل الى علم المناسبات، أ. د. عقيد خالد العزاوي، محاضرات تم إلقاؤها على طلبة الدراسات العليا، كلية الإمام الأعظم، ٢٠١٤.
- ٩٠- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وصحّحه: محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣، د.ت.
- ٩١- المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ٩٢- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: العدد ١٢٩، السنة ١٤٢٥هـ.
- ٩٣- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين البقاعي، تحقيق: الدكتور عبد السميع الأنيس، دار المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٧.
- ٩٤- مصطلحات الدلالة العربية (دراسة في ضوء علم اللغة الحديث)، د. جاسم محمد عبد العبود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- ٩٥- معاني القرآن، أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، والدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت.
- ٩٦- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويسمى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- ٩٧- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ج ١، ١٩٨٣م، ج ٢، ١٩٨٦م، ج ٣، ١٩٨٧م.
- ٩٨- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، إصدار مجمع اللغة العربية، ط ٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- ٩٩- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط ١، مطبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ١٠٠- مفاتيح الغيب، للرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين الرازي الإمام الشافعي القرشي، دار الكتب العلمية، ط ١، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.
- ١٠١- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ١٠٢- مفتاح العلوم، أبي يعقوب محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، مطبعة المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، د.ت.
- ١٠٣- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢١٠-٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، دار الأوقاف المصرية، ط ١٩٩٤.
- ١٠٤- ملاك التأويل: القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل- في توجيه متشابه اللفظ من آي التزليل، ابن الزبير: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- ١٠٥- من أسرار التعبير في القرآن الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الطبعة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، الرياض.

١٠٦- المناسبات بين الآيات والسور وفوائدها وأنواعها وموقف العلماء منها، د. سامي عطا حسين، جامعة آل البيت، ط١، ٢٠٠٧م.

١٠٧- المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، من أول سورة الرعد إلى آخر سورة مريم، جمعاً ودراسةً ونقداً، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إعداد: الطالب يوسف بن زيدان مزيد السلمي، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، المملكة العربية السعودية، جامعة أمّ القرى - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، شعبة التفسير وعلوم القرآن.

١٠٨- المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور من أول سورة النساء إلى آخر سورة الأعراف جمعاً ودراسةً وموازنةً، رسالة ماجستير، للطالب عبد الرحمن يتيم الفضلي، جامعة أمّ القرى، ١٤٣٠هـ.

١٠٩- مناسبة الإسراء بين سورتي النحل والكهف، أ. د. عقيد خالد العزاوي، بحوث لطلبة الدراسات العليا، كلية الإمام الأعظم، بغداد، ٢٠١٤م.

١١٠- مناسبة الإسراء بين سورتي النحل والكهف، أ.د. عقيد خالد العزاوي، محاضرات أُلقيت على طلبة كلية الإمام رحمه الله الجامعة - قسم أصول الدين، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١١١- المناسبة في القرآن، دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، د. مصطفى شعبان عبد الحميد، ط١، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- ١١٢- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد ابن حسن الآلوسي (٦٠٨-٦٨٤هـ)، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، ١٩٦٤م.
- ١١٣- المهذب في تفسير جزء عمّ، علي بن نايف الشحود، المكتبة الشاملة.
- ١١٤- الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، (٧٩٠هـ-١٣٨٨م)، دار ابن عفان للنشر، ط ١، ١٩٩٧م.
- ١١٥- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح- ضمن (شروح التلخيص)، أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولائي المغربي الملقب بابن يعقوب المغربي (ت ١١٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.
- ١١٦- الموسوعة القرآنية خصائص السور، جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- ١١٧- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، لأحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م، ط ١٦.
- ١١٨- نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس، ط ٢، ١٩٨١م.
- ١١٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم ابن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

المحتويات

المقدمة	٧
التمهيد: مقدمة تاريخية في علم المناسبات	١٣

الفصل التمهيدي

مقدمة في علم المناسبة

المطلب الأول: مفهوم المناسبة	١٩
١- تعريف المناسبة لغةً	١٩
٢- تعريف المناسبة اصطلاحاً	٢١
٣- موضوعه	٢٣
٤- ثمرته	٢٣
المطلب الثاني: نشأة علم المناسبة	٢٤
المطلب الثالث: موقف العلماء من علم المناسبات	٢٦
١- أقوال العلماء القائلون بوجود التناسب بين الآيات والسور	٢٦
٢- العلماء القائلون بعدم وجود التناسب بين الآيات والسور	٢٩
مناقشة الفريق المانع	٣٣
المطلب الرابع: أهمية علم المناسبات، فائدته، أشهر المؤلفات فيه	٣٥
أشهر المؤلفات والكتب والبحوث التي تناولت المناسبات القرآنية	٤١
أولاً: المؤلفات من كتب التفسير	٤١

٤٢	ثانياً: المؤلفات والبحوث من غير كتب التفسير
٤٤	المطلب الخامس: أنواع المناسبات
٤٥	القسم الأول: التناسب بين الآيات في السورة الواحدة، وله خمسة صور ..
٤٥	الآية لغةً
٤٦	الآية اصطلاحاً
٤٩	صور التناسب بين الايات في السورة الواحدة
٤٩	الصورة الأولى: تناسب كلمات الآية الواحدة
٥٢	الصورة الثانية: تناسب ترتيب الآيات
٥٤	الصورة الثالثة: تناسب مطلع السورة مع مقاصدها
٥٥	الصورة الرابعة: تناسب خاتمة السورة مع مقاصدها
٥٦	الصورة الخامسة: تناسب مطلع السورة مع خاتمتها
٥٧	القسم الثاني: التناسب بين السور، وله ثلاث صور
٥٧	- السورة لغةً
٥٧	- السورة اصطلاحاً
٥٩	صور التناسب بين السور
٥٩	الصورة الأولى: تناسب فاتحة السورة مع فاتحة ما قبلها
٦٠	الصورة الثانية: تناسب خاتمة السورة مع خاتمة ما قبلها
٦٢	الصورة الثالثة: تناسب مقاصد السورة مع السورة التي قبلها

الفصل الأول

المناسبات بين المعاني اللغوية وسياقاتها اللفظية

- المبحث الأول: المناسبة بين الأسماء والسياق اللغوي ٦٧
- أولاً: المعنى الوظيفي لبنية الاسم (المعنى الصرفي) ٦٧
- ١- الأسماء ذات الصيغ المحددة، وتشمل: ٦٧
- أ- النكرة والمعرفة ٦٧
- ب- المذكر والمؤنث ٧٣
- ج- المفرد والمثنى والجمع ٧٥
- د- الأسماء المشتقة ٧٧
- ٢- أسماء الاشتقاق ٨٠
- ١- الموصولات ٨٠
- ٢- أسماء الإشارة ٨١
- ٣- الظروف ٨٤
- المعنى الوظيفي لموقع الاسم (المعنى النحوي) ٨٦
- ١- المسند إليه ٨٦
- أ- موقع المسند إليه من حيث التقديم والتأخير ٨٧
- ب- موقع اختلاف طبيعة المسند إليه أو مدلوله ٨٨
- المبحث الثاني: المناسبة بين الأفعال والسياق اللغوي ٩٤
- المطلب الأول: صيغ الأفعال من حيث دلالتها على الزمن ٩٤

المطلب الثاني: صيغ الأفعال من حيث التجرد والزيادة ١٠٢

الفصل الثاني

المناسبة بين عدول اللفظ عن الأصل التركيبي وسياق الحال

المبحث الأول: المناسبة بين التقديم والتأخير والسياق اللغوي ١١٥

أولاً: تقديم المفعول به ١١٨

١- التقديم للاهتمام ١٢٣

٢- التقديم للاختصاص ١٢٤

٣- التقديم للعناية ١٢٤

٤- التقديم لرعاية الفواصل ١٢٤

ثانياً: تقديم المجرور ١٢٥

١- تقديم المجرور على الفاعل فاصلاً بينه وبين الفعل ١٢٥

٢- تقديم المجرور على المفعول به ١٢٦

٣- تقديم المجرور على الخبر ١٢٧

٤- تقديم المجرور على المبتدأ ١٢٩

٥- تقديم المجرور على الصفة ١٣٠

ثالثاً: تقديم الظرف ١٣١

١- تقديم الظرف أو تأخيرها، على اللفظ الواقع تمييزاً أو حالاً ١٣١

٢- تقديم الظرف على الفعل والفاعل معاً ١٣٢

٣- تقديم الظرف على المبتدأ في الجملة الاسمية ١٣٣

١٣٣	رابعاً: تقديم الخبر
١٣٥	المبحث الثاني: المناسبة بين حذف اللفظ والسياق اللغوي
١٣٧	١- الحذف في الجملة الفعلية
١٣٨	أ- حذف الفعل
١٤٠	ب- حذف الفاعل
١٤١	ج- حذف المفعول
١٤٤	٢- الحذف في الجملة الاسمية
١٤٤	أ- حذف المبتدأ
١٤٧	ب- حذف الخبر
١٤٨	٣- حذف عناصر مشتركة
١٤٨	أ- حذف الصفة
١٤٩	ب- حذف الموصوف
١٥١	ج- حذف المضاف
١٥٢	د- حذف المضاف إليه
١٥٥	المبحث الثالث: المناسبة بين الوصل والفصل
١٥٥	الفصل لغةً
١٥٥	الوصل اصطلاحاً
١٥٦	مواضع الفصل والوصل
١٥٦	أولاً: مواضع الفصل

١٦٠	ثانياً: مواضع الوصل
١٦٤	المبحث الرابع: المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي
١٦٤	مفهوم الالتفات
١٦٤	الالتفات لغةً
١٦٥	الالتفات اصطلاحاً
١٦٦	شرطا الالتفات
١٦٧	صور الالتفات
١٦٧	أ- الالتفات من ضمير التكلم إلى الغيبة
١٧٠	ب- الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة
١٧١	ج- الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة
١٧٤	د- الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب
١٧٧	المبحث الخامس: المناسبة بين التعريف والتكثير وسياقها اللغوي

الفصل الثالث

المناسبة والتناسب في وجوه النظم وبناء الجملة

١٨٥	المبحث الأول: التناسب في وجوه الاستفهام
١٨٥	الاستفهام: لغةً
١٨٥	الاستفهام اصطلاحاً
١٨٦	خروج الاستفهام عن معناه الأصلي
١٨٦	١- الاستفهام للتعجب

٢ - الاستفهام للتنبيه	١٨٧
٣ - الاستفهام للتعظيم	١٨٧
٤ - الاستفهام التقريري	١٨٨
٥ - الاستفهام الإنكاري	١٨٩
٦ - الاستفهام للتثبيت	١٩١
٧ - الاستفهام للنفي	١٩١
المبحث الثاني: التناسب في وجوه الأمر	١٩٣
الأمر اصطلاحاً	١٩٣
خروج الأمر عن معناه الأصلي	١٩٤
١ - الأمر للدعاء	١٩٤
٢ - الأمر للتهديد والوعيد	١٩٥
٣ - الأمر بمعنى الخبر	١٩٦
٤ - الأمر للامتنان	١٩٧
٥ - الأمر للتوبيخ والإهانة	١٩٨
المبحث الثالث: التناسب في وجوه النهي	١٩٩
النهي اصطلاحاً	١٩٩
خروج النهي عن معناه الأصلي	١٩٩
١ - النهي للدعاء	١٩٩
٢ - النهي للتأكيد والتقرير	٢٠٠

٢٠٠	٣- النهي للمبالغة
٢٠١	٤- النهي للكراهية
٢٠٢	المبحث الرابع: التناسب في وجوه النداء
٢٠٢	تعريف النداء
٢٠٢	أدواته
٢٠٣	المبحث الخامس: التناسب في وجوه التوكيد

الفصل الرابع

المناسبة في وجوه النظم والصورة البيانية

٢٠٩	المبحث الاول: المناسبة والتناسب في صور التشبيه
٢٠٩	التشبيه لغةً
٢٠٩	التشبيه اصطلاحاً
٢١٥	أركان التشبيه
٢١٥	طرفا التشبيه
٢١٧	المبحث الثاني: المناسبة والتناسب في صور المجاز
٢١٧	تعريف المجاز لغةً
٢١٨	المجاز اصطلاحاً
٢١٨	أقسام المجاز عند البلاغيين
٢١٩	أقسام المجاز
٢١٩	أولاً: المجاز العقلي

علاقات المجاز العقلي	٢٢٠
١- العلاقة المفعولية (ما بني للفاعل وأسند إلى المفعول)	٢٢٠
٢- علاقة الفاعلية: (ما بني للمفعول وأسند إلى الفاعل)	٢٢١
٣- علاقة الزمانية (ما بني للفاعل وأسند إلى الزمان)	٢٢٢
٤- العلاقة المكانية	٢٢٣
٥- العلاقة السببية (ما بني للفاعل وأسند إلى السبب مجازاً)	٢٢٤
ثانياً: المجاز اللغوي	٢٢٥
علاقات المجاز اللغوي	٢٢٦
١- السببية (ذكر السبب وإرادة المسبب)	٢٢٦
٢- المسببية (ذكر المسبب وإرادة السبب)	٢٢٧
٣- الجزئية (إطلاق الجزء وإرادة الكل)	٢٢٨
٤- الكلية (إطلاق اسم الكل على الجزء)	٢٢٩
٥- اعتبار ما كان	٢٣١
٦- اعتبار ما سيكون	٢٣١
المبحث الثالث: المناسبة والتناسب في صور الاستعارة	٢٣٣
الاستعارة لغةً	٢٣٣
الاستعارة اصطلاحاً	٢٣٣
نماذج من الاستعارات القرآنية	٢٣٥
المبحث الرابع: المناسبة والتناسب في صور الكناية	٢٣٧

الكناية لغةً	٢٣٧
الكناية اصطلاحاً	٢٣٧
أقسام الكناية	٢٣٨
١- الكناية عن طلب نفس الصفة	٢٣٨
٢- الكناية عن الموصوف	٢٤٢
٣- الكناية عن النسبة	٢٤٤

الفصل الخامس

التناسب في الفواصل القرآنية

المبحث الأول: تعريف الفاصلة القرآنية والخلاف بين الفواصل والسجع ...	٢٤٧
الفاصلة لغةً	٢٤٧
الفاصلة اصطلاحاً	٢٤٧
المبحث الثاني: المناسبات بين فواصل الآي ومضمون السور	٢٥٢
أ- تناسب الفاصلة مع مضمون السورة	٢٥٢
ب- تناسب الفاصلة مع المعنى العام للمقطع الذي ظهرت فيه	٢٥٥
المبحث الثالث: العلاقة بين مناسبة الفاصلة وسياق آياتها	٢٥٧
المبحث الرابع: الفاصلة القرآنية وعلم المناسبة	٢٦٢
تناسب الفاصلة	٢٦٢
المبحث الخامس: التقديم والتأخير في الفاصلة القرآنية (دراسة تطبيقية) ..	٢٦٥

الفصل السادس

المناسبات القرآنية «دراسة تطبيقية»

المبحث الأول: المناسبة بين فاتحة الكتاب وسورة البقرة	٢٧٣
المطلب الأول: التناسب بين السورة في المفتح	٢٧٣
المطلب الثاني: التناسب بين السورة في الخواتيم	٢٧٧
المبحث الثاني: التناسب بين سورة البقرة وآل عمران	٢٨٠
المطلب الأول: التناسب بين فاتحي السورتين	٢٨٠
المطلب الثاني: التناسب بين فواتح السور وخواتيم التي قبلها والتي تليها	٢٨١
الخاتمة	٣١٧
المصادر والمراجع	٣٢٠
المحتويات	٣٣٤